



مجلة جيل الدراسات الأدبية والفكرية

مجلة علمية دولية محكمة تصدر شهريا عن مركز جيل البحث العلمي

Lebanon - Tripoli /Abou Samra Branche P.O.BOX - www.jilrc.com - literary@journals.jilrc.com



[ISSN 2311-519X](http://www.jilrc.com)

العام السابع - العدد 63 - يوليو 2020

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



مركز جيل البحث العلمي

مجلة جيل الدراسات الأدبية والفكرية

ISSN 2311-519X

مجلة علمية دولية محكمة تصدر شهريا



Lebanon - Tripoli / Abou Samra Branche P.O.BOX - www.jilrc.com - literary@journals.jilrc.com

المشرفة العامة: أ.د. سرور طالبی

المؤسسة ورئيسة التحرير: د. غزلان هاشمي

هيئة التحرير:

- أ.د. شريف بموسى عبد القادر، جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان / الجزائر.
أ.د. أحمد رشاش جامعة طرابلس / ليبيا.
د. خالد كاظم حميدي وزير الحميداي، جامعة النجف الأشرف / العراق.
د. مصطفى الغرافي، جامعة عبد الملك السعدي / المغرب.

رئيس اللجنة العلمية: أ.د. الطاهر رواينية، جامعة باجي مختار/ الجزائر

اللجنة العلمية:

- أ.د. إحسان يعقوب حسن الديك، جامعة النجاح الوطنية / فلسطين.
أ.د. أمين مصري. المدرسة العليا للأساتذة/وهران. الجزائر.
أ.د. ضياء غني لفتة العبودي، ذي قار/ العراق.
أ.د. عبد الوهاب شعلان. جامعة محمد الشريف مساعدي. الجزائر.
أ.د. محمد جواد حبيب البدراني، جامعة البصرة / العراق.
أ.د. منتصر الغضنفری جامعة الموصل / العراق.
د. دين العربي، جامعة الدكتور مولاي الطاهر سعيدة / الجزائر.
د. كريم المسعودي جامعة القادسية / العراق.
د. مليكة ناعيم، جامعة القاضي عياض / المغرب.

أعضاء لجنة التحكيم الاستشارية لهذا العدد:

- د. إبراهيم نادن. جامعة القاضي عياض- المغرب
د. عائشة جمعي. جامعة يحي فارس المدية. الجزائر
د. عبدالقادر بن فرح. جامعة سوسة. تونس
د. فاطمة الزهراء نهمار. جامعة لونيبي علي. البليدة 2. الجزائر
د. لحسن عزوز. جامعة محمد خيضر بسكرة. الجزائر
د. محمود خليف خضير عبيد الحياني. الجامعة التقنية الشمالية. الموصل. العراق
د. محمود فتوح. جامعة حسيبة بن بوعلی الشلف. الجزائر
د. هناء محمد خلف الشلول. جامعة جدارا. الأردن

التعريف:

مجلة علمية دولية محكمة ومفهرسة تصدر شهريا عن مركز جيل البحث العلمي وتعني بالدراسات الأدبية والفكرية بإشراف هيئة تحرير ولجنة علمية ثابتة مشكلة من أساتذة وباحثين من عدة دول وهيئة تحكيم تتشكل دوريا في كل عدد.

اهتمامات المجلة وأبعادها:

ينفتح الخطاب الفكري والأدبي على عدة اعتبارات، ويتموضع ضمن سياق سوسيو ثقافي وسياسي، يجعل من تمثلاته تأخذ موضوعيات متباينة، فبين الجمالي والفكري مسافة تماس وبين الواقعي والجمالي نقاط التقاء تكشفها المواقف. وإيمانا منا بأن الحرف التزام ومسؤولية، وبأن الكلمة وعي وارتقاء، فإن مجلة جيل الدراسات الأدبية والفكرية المجلة الأكاديمية الدولية المحكمة والتي تختص بنشر البحوث الأدبية والمقاربات النقدية والفكرية تسعى لأن تقدم جديدا إلى الساحة الفكرية العربية.

الأهداف:

- نشر المعرفة الأصيلة، وتعزيز الحوار العلمي العقلاني من خلال نشر الرأي والرأي المخالف.
- تلبية حاجات الباحثين وطلبة العلم سواء من ناحية الاكتفاء المعرفي في مواضيع محددة تتماشى وهدف المجلة أم من ناحية النشر وتشجيع البحوث الرصينة والمبتكرة.
- خلق وعي قرأني حدوده التمييز بين الكلمة الأصيلة والكلمة المبتذلة التي لا تقدم جديدا في ظل استسهال النشر مع المتاحات الالكترونية.



مركز جيل البحث العلمي

مجلة جيل الدراسات الأدبية والفكرية

شروط النشر



مجلة جيل الدراسات الأدبية والفكرية مجلة علمية دولية محكمة تختص بنشر البحوث الأدبية والمقاربات النقدية والفكرية، تصدر شهريا عن مركز جيل البحث العلمي، بإشراف هيئة تحرير مشكلة من أساتذة وباحثين وهيئة علمية تتألف من نخبة من الباحثين وهيئة تحكيم تتشكل دوريا في كل عدد. تقبل المجلة الأبحاث والمقالات التي تلتزم الموضوعية والمنهجية، وتتوافر فيها الأصالة العلمية والدقة والجدية وتحترم قواعد النشر التالية:

- أن يكون البحث المقدم ضمن الموضوعات التي تعنى المجلة بنشرها.
- ألا يكون البحث قد نشر أو قدم للنشر لأي مجلة، أو مؤتمر في الوقت نفسه، ويتحمل الباحث كامل المسؤولية في حال اكتشاف بأن مساهمته منشورة أو معروضة للنشر.

• أن تحتوي الصفحة الأولى من البحث على:

- عنوان البحث باللغة العربية والانجليزية.
- اسم الباحث ودرجته العلمية، والجامعة التي ينتمي إليها باللغة العربية والانجليزية.
- البريد الإلكتروني للباحث.
- ملخص للدراسة في حدود 150 كلمة وبحجم خط 12 باللغة العربية والانجليزية.
- الكلمات المفتاحية بعد الملخص باللغة العربية والانجليزية.
- أن تكون البحوث المقدمة بإحدى اللغات التالية: العربية، الفرنسية والإنجليزية.
- أن لا يزيد عدد صفحات البحث على (20) صفحة بما في ذلك الأشكال والرسومات والمراجع والجداول والملاحق.
- أن يكون البحث خالياً من الأخطاء اللغوية والنحوية والإملائية.
- أن يلتزم الباحث بالخطوط وأحجامها على النحو الآتي:
- اللغة العربية: نوع الخط (Traditional Arabic) وحجم الخط (16) في المتن، وفي الهامش نفس الخط مع حجم (12).
- اللغة الأجنبية: نوع الخط (Times New Roman) وحجم الخط (14) في المتن، وفي الهامش نفس الخط مع حجم (10).
- تكتب العناوين الرئيسية والفرعية بحجم 18 نقطة مع تضخيم الخط.
- أن تكتب الحواشي بشكل نظامي حسب شروط برنامج Microsoft Word في نهاية كل صفحة.
- أن يرفق صاحب البحث تعريفا مختصرا بنفسه ونشاطه العلمي والثقافي.
- عند إرسال الباحث لمشاركته عبر البريد الإلكتروني، سيستقبل مباشرة رسالة إشعار بذلك.
- تخضع كل الأبحاث المقدمة للمجلة للقراءة والتحكيم من قبل لجنة مختصة ويلقى البحث القبول النهائي بعد أن يجري الباحث التعديلات التي يطلبها المحكمون.
- لا تلتزم المجلة بنشر كل ما يرسل إليها وهي غير ملزمة بتقديم مبررات.

• ترسل المساهمات بصيغة الكترونية حصراً على عنوان المجلة: literary@journals.jilrc.com

الفهرس

الصفحة

- 7 • الافتتاحية
- 9 • النحو العربي من الطبع إلى الوضع، ورصد أهم مصطلحات تعيينه. أحمد قريش/جامعة تلمسان. الجزائر.
- 33 • خطاب التبسيط العلمي: محاولة في التعريف. يوسف مقران/جامعة تيبازة. الجزائر.
- 65 • أثر المعنى في توجيه الإعراب. سندس فائق بارودي/جامعة البعث. سوريا.
- 87 • مناهجُ خصوم المتنبيّ في دراسة سرقاته الشعرية. دعد يونس السالم/جامعة البعث. سوريا.
- 107 • التناص الإيقاعي مع القرآن الكريم في شعر النيهاني ولد المحبوبي. محمد أحمد المختار. جامعة انواكشوط. موريطانيا.
- 127 • مراحل وضع النحو العربيّ. محمد الطيب البشير بابكر سليمان إبراهيم عبد الله إبراهيم. جامعة الخرطوم. السودان.

الافتتاحية

بسم الله الرحمن الرحيم

اخترنا لكم في هذا العدد ثلاث دراسات نحوية ، الأولى تناولت بالدرس والتدقيق النحو العربي راصدة أهم مصطلحاته التعينية ، والثانية حاولت تحقيقه من خلال إبراز أهم علماء كل مرحلة وأهم سماتها ، والثالثة تقصت أثر المعنى في توجيه الإعراب ، ولهذه المواضيع أهمية بالغة ذلك لأنه يتبين من خلال النحو وبه -على حد تعبير ابن خلدون - أصول المقاصد بالدلالة ، وذلك أدعى لحفظ الكلام من الخلط والإيهام وحماية اللغة من فوضى التعبير . هذا واحتوى العدد كذلك على دراسة في الأدب القديم تناولت مذاهب وطرق دراسة خصوم المتنبي لسرقاته الشعرية.

كما تضمن العدد في إحدى مقالاته خطاب التبسيط العلمي نظرا لأهميته كونه يعد مرحلة وسطى بين النصوص العلمية والتقنية الموجهة لأهل الاختصاص ، وأخيرا تقصت دراسة التناص الإيقاعي مع القرآن الكريم في شعر النبهاني ولد المحبوبي.

العدد على ثرائه موجه لأهل الاختصاص ، فهو منهم وإيهم ، وعليه نرجو أن يؤسس لحوارية معرفية ، وأن يكون طريقا للإضافة والإضاءة والنقاش العلمي الهادف الهادئ.

نشكر أسرة المجلة على صبرها وعلى تكبدها عناء المتابعة والتدقيق ، كما نهنتهم لأن العمل لم يكن ليتم لولا جهودهم بعد فضل الله تعالى ، كما ونهئ جميع الباحثين الذين نشروا موادهم في هذا العدد ، راجين أن يتقبله الله من الجميع.

رئيسة التحرير: د. غزلان هاشمي

**تخلي أسرة تحرير المجلة مسؤوليتها عن أي انتهاك لحقوق الملكية الفكرية
لا تعبر الآراء الواردة في هذا العدد بالضرورة عن رأي إدارة المركز
© جميع الحقوق محفوظة لمركز جيل البحث العلمي**

النحو العربي : من الطبع إلى الوضع ، ورصد أهم مصطلحات تعيينه

Arabic Grammar : From an innate common sense to establishing its rules and the most important terms for its designation

الأستاذ الدكتور أحمد قريش، جامعة أبي بكر بلقايد - تلمسان - الجزائر

Pr. Ahmed Guerriche, Aboubekre Belkaid University of Tlemcen - Algeria

Summary

The human language occupies a prominent position in the man's intellectual life and his various life activities, as he is completely incapable of performing any communication between individuals and communities without resorting to language, nor he is able to explore the foundations of the human intellectual system without mastering its entity and the complete and interactive rules which govern it within the framework of a comprehensive linguistic system through which the human thinking expresses its being. That is, this human being, while he was able to establish the terminology and put forward the words, he was guided by his thinking to establish rules to control the word, define the meaning, coordinate the phrase, improve it and beautify it to make the language. And perhaps what they referred to as 'language' was matched by the concept of 'tongue'.

The extent of the group's development is accompanied by the development of its languages in making the rules and methods of coordination and beauty. Because, in addition of being 'sounds by which nations express their purposes', language is also governed by a set of linguistic norms that the speaker must respect in every communication process. At the vocal level, language is bounded by a scale ranging from the lips to the end of the throat. As for the level of usage, during its fluctuation and combination, the sounds can compose a set of used words and words that can be used in the future. Both levels have a calculated amount that the language cannot exceed. The Arabic language used eighty thousand articles, and the possible used articles number goes up to twelve thousand items. The Arabs defined the expression before the science of grammar, and that was an innate characteristic until they mixed with the Aajim (non-arabs).

The history of Arabic revealed the efforts made to make the language of the Coran prevail in its clarity and its commitment to define the expressions, so as to make it a language that is free from the special sectarian languages.

The linguistic lesson for Arabs resulted in extrapolating the rules that govern the Arabic language as a complete system, because the overall definitions of language did not go beyond the fact of being made in the form of a particular scheme which means that language is a system in addition to being innate and instinct.

Key words: innateness, grammar error, grammar, the term.

ملخص:

تحتلّ اللّغة البشريّة المكانة المرموقة في حياة الإنسان الفكريّة ومختلف نشاطاته الحيّاتيّة، ذلك لأنّه عاجز- تمام العجز- إجراء أيّ تواصل بين الأفراد والمجتمعات من دون اللّجوء إلى اللّغة، كما لا يتسوّى له سبر أغوار المنظومة الفكريّة الإنسانيّة دون امتلاك ناصيتها، وما يحكمها من أنظمة متكاملة ومتفاعلة فيما بينها ضمن إطار النّظام اللّغوي الشّامل الذي بواسطته يعبر الفكر الإنساني عن كيانه، أي أنّ هذا الإنسان في الوقت الذي اقتدر فيه على الاصطلاح ووضع الألفاظ، اهتدى بحكم تفكيره إلى وضع قواعد لضبط اللفظ، وتحديد المعنى، وتنسيق العبارة، وتحسينها وتجميلها، فكانت اللّغة، ولعلّ ما كان يطلقون عليه "اللغة" كان يقابله مصطلح اللسان.

وبمقدار رقيّ الجماعة وتحضرها يكون حظّ لغاتها أيضا من وضع القواعد، وطرق التّسيق والتّجميل، لأنّها إضافة إلى كونها عبارة عن "أصوات يعبر بها كلّ قوم عن أغراضهم". فهي محكومة أيضا بجملة من النواميس اللّغويّة تلزم المتكلّم احترامها في كلّ عملية تواصل. فعلى المستوى الصوتي فهي مقيّدة بمدرجه الممتد من الشّفتين إلى أقصى الحلق. وعلى مستوى الاستعمال ما تقدّر هذه الأصوات صنعه في أثناء تقلبها وتركيبها من ألفاظ مستعملة وألفاظ يمكن استعمالها في المستقبل، وكلا المستويين لهما مقدار محسوب لا تقوى اللّغة على مجاوزته. فرصيد الألفاظ العربيّة المستعملة ثمانون ألف مادة، والممكنة الاستعمال يرقى بها الحساب إلى اثني عشر ألف مادة. والعرب عرفوا الإعراب قبل علم النّحو، وكان ذلك ملكة طبيعيّة فيهم حتى اختلطوا بالأعاجم.

وتاريخ العربيّة كشف عن الجهود التي بذلت كي تسود لغة القرآن في وضوحها والتزامها الإعراب، ولتكون لغة عامة لا وجود فيها للغات الخاصّة الطائفية.

وأسفر الدّرس اللّغوي عند العرب عن استقرار الضوابط التي تحكم العربيّة على أنّها نظام كامل، لأنّ مجمل التعاريف للّغة لم تخرج عن كونها بناء جاء على نحو معيّن، أي أنّها نظام، إضافة إلى كونها غريزة وفطرة.

الكلمات المفتاحية: السليقة، اللحن، النحو، المصطلح.

المخطط: تمهيد، السليقة، دوافع وضع النحو، مصطلحات تعيين علم النحو، خاتمة.

تمهيد:

ما لا تختلف حوله الدراسات أنّ العربيّة أقدم اللّغات السامية، ومن أقدم لغات العالم، فلم تبرح في جاهليتها عن عقر بيتها، ولم تتعدّ جغرافية الجزيرة، وخروجها في الإسلام كان للجهاد ونشر العقيدة. ولم يتواصل العرب بغير لغتهم، ولم يكتبوا بغير ألف بائهم طوال مراحل تاريخهم، على خلاف كثير من الأمم⁽¹⁾. وقد أشار أحد علماء

(1) ينظر المعرب والدخيل في اللغة العربية و آدابها: محمد أنونوي، 1426هـ 2005 م، ط(1)، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع: ص6.

العربية إلى هذه الميزة، بقوله: "كانت العرب في جاهليتها على إرث من إرث آبائهم في لغاتهم وأدابهم..."⁽¹⁾ ولهذا حافظت العربية ولا تزال على كيانها وأصالتها. "إنما انقادات واستوت واطردت وتكاملت بالخصال التي اجتمعت لها في تلك الجزيرة"⁽²⁾، ما يجعلها تحمل كمونياً نحواً وهو بمعناه الحقيقي طبيعي على لسان كل متكلم يتلقنه.

هذا ما يترجم بجلاء ارتباط حياة الأمة العربية منذ التاريخ القديم بحياة لغتها ارتباطاً لا نظير له على خلاف غيرها من الأمم، وعزز هذا الارتباط وقوى أواصره القرآن الكريم الذي نزل بلسان عربي، ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ يوسف: 2. ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ الزخرف: 3. ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ الشعراء: 193، 194، 195.

يعدّ القرآن الكريم حلقة هامة في تاريخ اللغة العربية، ونموذجاً يحمل الجديد لهذه اللغة التي تطوّرت في أثره، وبفضله اخترقت حدود الإنسانية المحضّة، ولا يقام لها فهما، كما عبّر عن ذلك المستشرق الفرنسي ريجيس بلاشير: إن أهمل أهمية هذا "الحدث القرآني"⁽³⁾. فكانت جديدة بأن تكون معربة عن دين جديد، كما كان الاهتمام بها ودراستها غاية ووسيلة، فهي غاية ممثلة في هذه اللغة الجديدة في كلام الله سبحانه وتعالى، وكلام نبيه الكريم، وهي وسيلة لفهم معاني الاستعمالات اللفظية المختلفة الواردة في القرآن الكريم، وهكذا طبع القرآن الكريم اللغة العربية بطابع واضح، واندثرت بموجبه آثار اللهجات، والتزمت الإعراب الذي لم يكن شائعاً ومستعملاً على النحو الذي التزمت به نصوص القرآن، وجعلت الإعراب السمة البارزة الملازمة للعربية التي أريد لها أن تكون كذلك⁽⁴⁾.

وسمة الإعراب المتعلقة بالعربية، تؤكد وجودها أمور ثلاثة: الوثائق المنقولة⁽⁵⁾، والأخبار المدوّنة، وكون هذه الظاهرة - الإعراب - وسيلة تعبيرية لا يمكن أن تستغني عنها إلا إذا غيّر نظام الجملة فيها⁽⁶⁾.

ونشأت هذه السمة في العرب "فناً قبل أن تنشأ علماً"⁽⁷⁾. لذا تصوّر بعض الدارسين أن "العرب كانوا يعرفون الإعراب قبل علم النحو، كما كانوا يحسنون النظم قبل علم العروض، وكان ذلك ملكة طبيعية فيهم حتى اختلطوا بالأعاجم"⁽⁸⁾ فتعرضت لغتهم إلى تأثيرات ما سمح بنقل ألفاظ من مواضع إلى مواضع أخرى بزيادات زبدت، وشرائع

(1) الصحاحي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها: ابن فارس (د 395 هـ)، 1964 م، حققه وقدم له مصطفى الشويبي، مؤسسة بدران للطباعة والنشر، بيروت: 78.

(2) البيان والتبيين: الجاحظ (أبو عثمان بن بحر محبوب الكنانى، ت225هـ)، تحقيق عبد السلام هارون، 1368هـ، 1949م، القاهرة: 163/1.

(3) التطور اللغوي التاريخي: إبراهيم السمراي، 1983م، ط(3)، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت: لبنان: 28.

(4) السابق: 57.

(5) للمزيد ينظر ظاهرة الإعراب في النحو العربي: أحمد سليمان ياقوت، 1983م، ديوان المطبوعات الجامعية: الجزائر: 6-9. وينظر تاريخ العرب قبل الإسلام: سعد زغلول عبد الحميد، دار النهضة العربية: 16-18.

(6) ينظر أصول النحو العربي: محمد خير الحلواني، 1979م، د ط: 132.

(7) البحث اللغوي عند العرب: أحمد مختار عمر، 1997م، عالم الكتب، القاهرة: 82.

(8) تاريخ آداب اللغة العربية: جرجي زيدان، 1978م، ط(2)، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت: 220/1.

شُرعت، وشرائط شُرطت⁽¹⁾، لتعزّز قدرتها على استيعاب المفاهيم المستحدثة أياً كانت، والتعبير عنها، بل بالتأكيد أصبحت أقدر وأطوع؛ لأسباب لغوية وحضارية، وأدلة تاريخية واجتماعية، "فحين توافرت لشعبها أسباب النهوض في العهود القديمة...، وسعت العلوم والمعارف التي ذاعت إذ ذاك، ولم تقصّر عن التعبير عن شيء منها"⁽²⁾.

اللغة العربية من الطبع إلى الوضع

أكدت الحقائق المتعلقة بتاريخ اللغة، أنّ الناس من أتباع سيّد الخلق عليه الصلاة والسلام وجدوا صعوبة لغوية في قراءة القرآن وفهمه، وبخاصة أهل المدن و الأمصار، لأنّ من خصوصيات اللّغة التي نزل بها القرآن الكريم، فهي من حيث اللّهجة الصّوتية لغة قريش ومكّة، ومن حيث البناء والإعراب لغة الشّعْر السّائدة في بوادي نجد والحجاز⁽³⁾. أي أنّ القرآن جاء معرباً ومعجزاً، ومثل ذلك حديث رسول الله (صلى)، ثمّ إنّ شعر العرب الجاهليين ونثرهم كان آية في نظمه وإعرابه.

وحلّ لهذه المشكلة اللغوية دعا الرسول الله صلى الله عليه وسلم إلى إعرابه، فقد ورد عن عبد الله بن سعيد بن أبي سعيد المقبري، عن أبيه، عن أبي هريرة، عن النبي: "أعربوا القرآن والتمسوا غرائبه"⁽⁴⁾، لأنّ فهم كتاب الله لا يتأتّى إلاّ بتعلّم العربية على الوجه الأكمل ليفتح للمتعلّم مغاليقه، ويطلعه بعمق على ما فيه. ولعلّ ما يجلي هذا المغزى أكثر دعوة عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - إلى التّحكّم في القراءة السليمة توخياً للمعنى القرآني الصحيح كان في تلك الرواية التي وردت على عهده أنّ أعرابياً قدّم لتعلّم القرآن، فقال: من يقرئني شيئاً مما أنزل الله تعالى على محمد - صلى الله عليه وسلم - فقرأ رجل سورة التّوبة: ﴿ وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ ﴾ التّوبة: 3. بكسر لام كلمة "رسوله" فقال الأعرابي: أو قد بريء الله من رسوله؟ إن يكن الله تعالى بريء من رسوله فأنا أبراً منه، فبلغ الأمر عمر بن الخطاب فدعاه فقال: أتبرأ من رسول الله - صلى الله عليه وسلم -؟ فقال: يا أمير المؤمنين إنّّي قدّم المدينة ولا علم لي بالقرآن، فسألته من يقرئني، فأقرأني هذا سورة التّوبة فقال: إنّ الله بريء من المشركين ورسوله، فقلت: أو قد بريء الله من رسوله؟ أن يكن الله تعالى بريئاً من رسوله فأنا أبراً منه، فقال عمر - رضي الله عنه - ليس هكذا يا أعرابي، فقال: كيف هي يا أمير المؤمنين؟ قال: ﴿ إن الله بريء من المشركين ورسوله ﴾، فقال الأعرابي: وأنا والله أبراً ممن بريء الله ورسوله منهم⁽⁵⁾. فأمر عمر بن الخطاب ألا يقرئ القرآن إلا عالم باللّغة.

(1) الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها: ابن فارس، حققه وقدم له مصطفى الشويبي، 1964م، مؤسسة بدران للطباعة والنشر، بيروت: 78.

(2) أخبار النحويين البصريين: السيرفي أبو سعيد، تحقيق طه محمد الزيني ومحمد عبد المنعم خفاجي، 1955م، ط(1): 16.

(3) ينظر المفصل في تاريخ النحو العربي، الجزء الأول قبل سيبويه: محمد خير الحلواني، مؤسسة الرسالة، دط، دت: 11.

(4) المستدرک على الصحيحين: أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن النيسابوري المعروف بابن البيع (ت: 405هـ)، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا: دار الكتب العلمية - بيروت ط(1)، 1411 هـ - 1990م: 477/2.

(5) ينظر نزهة الألباء في طبقات الأدباء: لابن الأنباري (أبو البركات عبد الرحمان بن محمد، ت: 577هـ)، تحقيق إبراهيم السامرائي، بيروت: 16.

والأمر لا يقتصر على هذا فحسب، بل كثير من الخلافات التي وقعت بين الفقهاء مردّها في معظمها إلى اختلافهم في فهم أساليب العربية، فيعودون إلى كلام أهلها وأقوال النحاة ليحتكموا إليها ويحكموها، كلّ ذلك لأنّ كتاب الله يمثل الذروة العليا في الأساليب العربية.

ووجد الأعاجم الداخلون في الإسلام أنفسهم يستعملون لغة غير لغتهم فاضطّروهم ذلك لتعلّم اللّغة العربية لدينهم ولدنياهم، فكانوا أحوجين إلى نوع من العلم يسهل لهم طريق التعلّم، فسمحت هذه الحاجة إلى وضع علم النّحو، "وكان طبيعياً أن ينشأ ذلك في العراق لا في الحجاز ولا في الشام، لأنّ الحجاز لم يكن في حاجة إلى قواعد يقيم بها لسانه، وأن موالي العراق أكثر رغبة من موالي الشام، ورغبة الفرس في العربية كانت أكثر من رغبة سواهم"⁽¹⁾. وممارسة النّحاة لهذا الضّبط هدّتهم إلى كشف علل الإعراب، فكان هذا العلم، الذي هو أول أمره ضبط لمعاني الألفاظ برسم حركاتها، أو هو الجانب العملي من ممارسة الضّبط والتعليل توخياً لهندسة معمار الإعراب الذي يتم به التفريق "بين المعاني فلو" أنّ القائل إذا قال: ما أحسن زيد، لم يفرق بين التعجب، والاستفهام، والذم إلا بالإعراب..."⁽²⁾.

فمسار العربية كشف عن الجهود التي بذلت كي تسود لغة القرآن في وضوحها والتزامها الإعراب، ولتكون لغة عامة لا وجود فيها للغات الخاصّة الطائفية.

كما وأسفر الدّرس اللّغوي عند العرب عن استقراء الضّوابط التي تحكم العربية على أنّها نظام كامل، لأنّ مجمل التعاريف للّغة لم تخرج عن كونها بناء جاء على نحو معيّن، أي أنّها نظام، إضافة إلى كونها غريزة وفطرة. هذا ما يراه أبو حيان (تحوالي 400هـ) في الإمتاع والمؤانسة مختصراً المناظرة التي جرت بين أبي سعيد السيرافي، وأبي بشر مّتي: "قال مّتي: يكفي من لغتكم هذه، الاسم والفعل والحرف. قال أبو سعيد: أخطأت لأنك في هذا الاسم والفعل والحرف فقير إلى وصفها وبنائها على التّرتيب الواقع في غرائز أهلها"⁽³⁾.

نشأ النّحو العربي - كما أسلفت - فنّاً تمرّنت في إثره ألسنة النّاطقين بالعربية على طرائق للأداء تمكّنت من طبائعهم، أي أنّ اللّغة العربية بنواميسها كانت فطرة وغريزة في العرب الأوائل لفترة طويلة. وظلّوا يجهلون في مرحلة الاستقراء ما تواضع عليه النّحاة من مصطلحات لجهودهم اللّغوية، لأنّهم كانوا يحتكمون إلى سليقة ذات منهج دقيق، أساسه النّوق الرفيع، والنّطق السليم، والوزن العربي الخالص، فاللفظ يعرب بادئ ذي بدء بالبداهة من غير قوانين⁽⁴⁾، والروايات حول ذلك كثير. قال الجاحظ (ت255هـ): "روى أصحابنا أن رجلاً من البلديين قال لأعرابي: "كيف أهلك" قالها بكسر اللام. قال الأعرابي: صلباً، لأنه أجابه على فهمه، ولم يعلم أنه أراد المسألة عن أهله

(1) فجر الإسلام: أحمد أمين، 1969م، ط(10)، دار الكتاب العرب، بيروت،: 183 بتصرف.

(2) الصحاحي: ابن فارس (ت395هـ)، تحقيق عمر الطباع، المصدر السابق: 65 وما بعدها.

(3) الإمتاع والمؤانسة: أبو حيان (علي بن محمد بن العباس تحوالي 400هـ)، الليلة الثامنة، منشورات دار مكتبة الحياة بيروت: 116/1.

(4) ينظر المعرب والدخيل في اللغة العربية و أداها، السابق: 15.

وعياله⁽¹⁾. وهذا ياقوت الحموي (ت626هـ) ينقل في إرشاد الأريب رواية عن ابن جني (ت392هـ) أنه سأل أحد الأعراب ممن يثق في عربيته، عن تصغير حُبَارِي، فيجيبه: حُبُرور، ذلك أنّ الحبورور في اللّغة هو فرخ الحُبَارِي، أمّا التّصغير الصّرفي حُبِير أو حُبَيْرِي. فهو ممّا لا يخطر ببال الأعرابي، وحين سألته كيف تجمع مُحرنجما؟ أجاب: فرّقه حتّى أجمعه. إذ المعنى الدّلالي للمحرنجم هو المجتمع، ولا يتسوّى جمعه إلّا بعد أن يفرّق، قال ابن جني: كان غرضي من ذلك أن أعلم ما يقوله، أيكسّر فيقول: حَرَاجم، أم يصحّح فيقول: مُحرنجمات " فذهب هو مذهبا غير ذين⁽²⁾.

ومن الروايات التي تصبّ في هذا السياق، سُمع أعرابي ينشد:

نحنُ بني علقمة الأخيّارا

فقيل له لِمَ نصبت (بني)؟ فقال: وما نصبته...⁽³⁾ لأنّه لا يعرف النّصْب إلّا إسناد الشيء. ويتّضح ذلك أكثر في قول الأصمعي (ت216هـ) لما سأل أعرابيا: أتمهمز اسرائيل؟ قال: إني إذن لرجلٌ سوءٍ، قلت: أفَتَجُرُّ فلسطين؟ قال: إني إذا لرجل قويّ. فهذا الأعرابي لم يفهم من الهمز إلّا العيب والشتّم، لذا أبى أن يكون عَيَاباً؛ لأنّ ذلك من صفات سوء الخلق، ولم يفهم من الجرّ إلّا السحب... أما الهمزُ بمعنى النطق بالهمز، والجرّ بمعنى الإتيان بالحركة المخصصة، فهو أبعد ما يكون عن ذهنه وتفكيره⁽⁴⁾، أي انه لم يعرف المصطلح النّحوي بمعناه واستعماله الاصطلاحي.

وتشكّلت لدى الأعراب في تلك الفترة فكرة عن النّحوي على أنّه من متصنّعي الكلام، فتجلّت تلك الفكرة في نعت أحد الفصحاء النّحويين بأنّهم يتشدّقون في كلامهم، ويتكلّفون دون بيان:

ولستُ بنحويّ، يلوك لسانه ** ولكن سليقي يقول فيُعرب⁽⁵⁾

ولذا لم يسر يوما في اعتقاد العرب أنّ الإعراب وشاح توشح به اللّغة العربية، ولكنهم اتّخذوه وسيلة تعبيرية تحمل أثقل عبء في أداء المعاني الدّقيقة، على خلاف اللّغات الأخرى غير المعربة التي تجعل بناء الجملة ونظامها قائما مقام الإعراب، فتقدم الفاعل، وتستعمل الفعل المساعد، ثم تأتي بالفضلات، أمّا العربية فنظام الجملة فيها طيّع لا يلتزم حدود صارمة، لأنّ الإعراب هو الذي يدلّ السامع على الفاعل، و المفعول.

ونخلص من هذا إلى أنّ العربي استعمل المصطلحات النّحوية على الرغم من جهله بخصوصياتها، وهذا الأمر يجعلنا نقول بعدم إمكانية تحديد تاريخ لنشأة كلّ مصطلح من المصطلحات النّحوية تحديداً دقيقاً؛ لأنّ هذا

(1) البيان والتبيين، السابق: 163/1.

(2) ينظر إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب: ياقوت الحموي (ت626هـ)، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامية، 1993م، ط(1)، بيروت: 38/5.

(3) ينظر الصحابي في فقه اللّغة و مسائلها و سنن العرب في كلامها: ابن فارس (أبو الحسن أحمد بن زكريا بن فارس ت395هـ)، تحقيق السيد أحمد صقر، دط، دت: 35.

(4) ينظر مدرسة البصرة النحوية: عبد الرحمن السيد، 1968م، ط(1)، دار المعارف، القاهرة: 324 – 325.

(5) ينظر التصريح على التوضيح: خالد الأزهرى (ت905هـ)، 1326هـ، القاهرة: 331/2.

التاريخ يحيط به الاضطراب وعدم ثبات المصطلح، لكن المؤكد أن هذه المصطلحات قد سايرت نشأة النَّحو⁽¹⁾، وبدأت كما بدأت العلة والقياس، وفكرة النَّحو وطريقة تناولها كانت ساذجةً طبيعيةً في أول الأمر، وما جهد أبي الأسود الدؤلي (ت69هـ) إلا أولى محاولاتها في أوراق النَّحو التي وضعها⁽²⁾، لكنها ما لبثت بمضي الزمن وطول العهد ومتابعة الدرس أن ترقى وتتطور⁽³⁾.

تفشي اللحن حتمية اجتماعية ودافع إلى وضع النحو

كان لزاماً على الأوائل من العرب توفير أسباب التطور لحماية لغتهم من العوامل المؤثرة فيها، سواء أكانت داخلية ناجمة عن مؤثرات طبيعية مرتبطة بتطور اللغة ذاتها، أم خارجية أفرزها امتزاج ثقافة العرب وحضارتهم بثقافة وحضارة من حتمت الظروف الاجتماعية والتاريخية⁽⁴⁾ الاحتكاك والاتصال بهم. فلم يكن بد أن يكون لهذا الاتصال أثره المحتوم، إلى جانب مظاهر الحياة المختلفة في لغة الفتتين، لذلك شاع في اللغة ما أطلق عليه اللغويون والنحويون اللحن، الذي يعرف على أنه الخطأ اللغوي في التراكيب والكلمات ذات الأصول العربية. وقد عبّر الزبيدي (ت989هـ) عن ظروف هذه الظاهرة بقوله: "لم تزل العرب على سجيتهما في صدر إسلامها، وماضي جاهليتها، حتى أظهر الله الإسلام على سائر الناس، فدخلوا فيه أفواجا، وأقبلوا عليه أرسالا، واجتمعت فيهم الألسنة المتفرقة واللغات المختلفة، ففشا الفساد في اللغة العربية، واستبان منها في الإعراب الذي هو حلما والموضح لمعانيها، فتفطن لذلك من نافر بطباعه سوء إفهام الناطقين من دخلاء الأمم بغير المتعارف من كلام العرب، فعظم الإشفاق من فشو ذلك وغلبته في تقييدها لمن ضاعت، وتثقيفها لمن زاغت عنه"⁽⁵⁾.

وأول ما ظهر اللحن ظهر في القضايا ذات الصلة بالإعراب، فهذه ابنة أبي الأسود الدؤلي (ت69هـ) تنغمس فيه فتقول لأبيها: ما أشدُّ الحرِّ"، قال لها: "الحصباء بالرمضاء. قالت: إنَّما تعجبتُ من شدَّته. قال: أوقد لحن الناس؟"⁽⁶⁾.

(1) ينظر مكانة الخليل بن أحمد الفراهيدي في النحو العربي: جعفر عباينة، 1984م، ط(1)، دار الفكر، عمارة: 157.

(2) ينظر الحلقة المفقودة في تاريخ النحو العربي: عبد العال سالم مكرم، 1977م، مؤسسة الوحدة، الكويت: 8 – 9.

(3) ينظر مدرسة البصرة النحوية، عبد الرحمن السيد، السابق: 324 – 325.

(4) أقصد بالظروف الاجتماعية المعاملات المصلحية التجارية، وبالتاريخية الفتوحات الإسلامية.

(5) لحن العوام: أبو بكر الزبيدي (أبو بكر محمد بن الحسن بن عبد الله ت989هـ)، تحقيق رمضان عبد التواب، 1964م، المطبعة الكمالية، القاهرة: 4.

(6) سير أعلام النبلاء: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي (ت748هـ)، مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، ط(3)، 1405 هـ / 1985 م: 83/4.

كان السلف من أمة محمد صلى الله عليه و سلم، يرون أن اللحن في اللغة يقتضي الاستغفار والإنكار! فلا يقرونه فيهم، بل يؤدبون عليه أبناءهم. وهذا أبو بكر الصديق يشدد النكير على نفسه إن أخطأ، وذلك حين يقول: "لأن أقرأ فأسقط أحب إلي من أن أقرأ فألحن"⁽¹⁾.

ولم يخف الرسول - صلى الله عليه و سلم- و بعض الخلفاء والعلماء والأعراب على حدّ السواء قلقهم من فشوه - و لا سيّما في قراءة القرآن الكريم - إذ سمع الرسول صلى الله عليه وسلم رجلا يقرأ فيلحن، فقال: "أرشدوا أخاكم فإنه قد ضل"⁽²⁾. وهذا ما كان يخشاه أبو بكر على نفسه في قوله: "لأن أقرأ و أسقط أحب إلي من أن أقرأ و ألحن"⁽³⁾. وارتاب منه عبد الملك بن مروان، حين قيل له: أسرع إليك الشيب، فقال: "شيبني ارتقاء المنابر مخافة اللحن". وفي رواية أخرى: "شيبني ارتقاء المنابر وتوقّع اللحن"⁽⁴⁾. وخشى على نفسه أن يستفحل في لسان ابنه الوليد بعد أن لحن فقال: "أضر بالوليد حبنا له، فلم نوجهه للبادية"⁽⁵⁾. والتزم الحجاج بعدم الوقوع فيه بعد أن قوّم يحيى بن يعمر (ت129هـ) لسانه في استشارة له: أسمعني ألحن على المنبر؟ قال: تقول: الأمير أفصح من ذلك، فألح عليه، فقال: حرفاً، قال: أيّاً؟ قال: في القرآن، قال الحجاج ذلك أشنع له، فما هو؟ قال: في قوله جلّ وعزّ: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ التوبة: 24. فتقرأها (أحبّ) بالرفع، والوجه أن تقرأ بالنصب (أحبّ) على أنه خبر كان، قال: لا جرم لا تسمع لي لحنأ أبداً فألحقه بخراسان⁽⁶⁾. كما دفع - اللحن - عبد العزيز بن مروان على تعلّم اللّغة في رواية أطلعنا عليها ابن كثير (ت774هـ) في مؤلفه البداية والنهاية في أثناء ترجمته له: كان يلحن في الحديث وفي كلامه، ثمّ تعلّم العربية فأنتقنها وأحسنها، فكان من أفصح الناس، سبب ذلك أنّه دخل عليه رجل يشكو ختنه، فقال له عبد العزيز: من ختنك؟ فقال الرجل: ختني الخاتن الذي يختن الناس، فقال لكتابه ويحك بماذا أجابني؟ فقال الكاتب: "يا أمير المؤمنين كان ينبغي أن تقول من ختنك؟ فوقع في نفسه ألا يخرج من منزله حتى يتعلّم العربية"⁽⁷⁾.

- (1) المزهر في علوم العربية وأنواعها: السيوطي (جلال الدين عبد الرحمان بن أبي بكر 911هـ)، تحقيق ج: جاد المولى وزميله، القاهرة، د: 199/2.
- (2) المستدرک على الصحيحين: أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن النيسابوري المعروف بابن البيع (ت: 405هـ)، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا: دار الكتب العلمية - بيروت ط(1)، 1411 هـ- 1990م: 439/2. وهي الرواية التي نقلها ابن جني ينظر الخصائص: السابق: 8/2.
- (3) المستتر في القرآت العشر: أبو الطاهر أحمد بن علي بن عبيد الله بن عمر بن سوار البغدادي (ت496هـ)، تحقيق ودراسة عمار أمين الردو، 1426هـ، 2005م، ط(1)، دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث: 188/1. وينظر المزهر في علوم اللغة العربية وأنواعها: السيوطي (عبد الرحمان جلال الدين ت911هـ)، تحقيق ج: جاد المولى وزميله، القاهرة، د: 397/2.
- (4) البيان والتبيين: الجاحظ، (أبو عثمان عمرو بن بحر، ت255هـ) تح: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، لبنان: 161/2.
- (5) نفسه: 205/2.
- (6) ينظر طبقات النحويين واللغويين: الزبيدي (أبو بكر محمد بن الحسن بن عبد الله ت989هـ)، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، 1373هـ، 1954م، القاهرة: 28.
- (7) البداية والنهاية: ابن كثير (إسماعيل بن عمر الدمشقي، ت774هـ)، 1348هـ، القاهرة: 61/9.

ومن الروايات التي كشفت عن تسلسل اللحن إلى وسائط الأمراء كتلك التي تروي أنّ الشعبي دخل على الحجاج فقال له: كم عطاءك؟ قال: ألفين. قال: ويحك! كم عطاؤك؟ قال: ألفان. فقال: فلم لحنتم فيما لا يلحن فيه مثلك؟ قال: لحن الأمير فلحنتم، وأعرب الأمير فأعربت، ولم أكن ليلحن الأمير فأعرب أنا عليه، فأكون كالمقرع له بلحنه، والمستطيل عليه بفضل القول قبله. فأعجبه ذلك منه، ووهبه مالا⁽¹⁾.

وأظهر الكشف المبكر لهذا الداء اللساني مواقف حازمة لتقويضه واحتوائه قبل استفحاله، ولعلّ أول موقف كان ذلك الذي أبداه الرسول - صلى الله عليه وسلم - حين أحسن بمسؤولية الوقاية منه، داعياً في ذلك الله أن يشمل برحمته من يصلح نفسه منه في قوله: "رحم الله امرأً أصلح من لسانه"⁽²⁾. كما أبدى بعضهم الشدة في معالجة الظاهرة، منهم عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - ذكر عنه أنه ردّ كتاب أبي موسى الأشعري عامل الكوفة في عهده للحن ورد فيه موقعاً أسفله: أقسم عليك ألا ما قنعت كاتبك سوطاً، فلما جاء الكتاب إلى الكاتب وسأل عن خطئه فيه، قيل له في عنوانه⁽³⁾، فأصلح عنوانه وأرسله إلى الخليفة فقبله منه. كما ورد في الأخبار أنّ عمر بن الخطاب قد أدب أولاده بسبب اللحن⁽⁴⁾.

ولم يخف الخليفة هارون الرشيد امتعاضه من لحن وقع من الفراء (ت207هـ) في حضرته، وخاصة أنّه كان من علماء اللغة، فقال له الفراء ملتتمساً منه العذر لما بدر منه، لأنّه لم يكن من البداية المطبوعين على الفصاحة: "إنّ طباع أهل البدو الإعراب، وطباع أهل الحضرة اللحن، فإذا تحفظت لم ألحن، وإذا رجعت إلى الطبع لحنتم"⁽⁵⁾. فلا المكانة التي حظي بها الفراء عند الخليفة شفعت له، ولا المقام سمح بغض الطرف عن اللحن، لأنّ قناعة الاستعمال السليم للغة مبدأ تشبّع به العرب، وقد أشارت إلى ذلك بعض القصص التي أوردها الجاحظ (ت225هـ) في مؤلفه البيان والتبيين، أنّ العرب إذا أرادت أن تستمع إلى نادرة أوصت بالحفاظ على إعرابها ومخارج ألفاظها، لأنّ تغييرها يؤدي بها للخروج عن غايتها" ويردف - الجاحظ - قائلاً موضحاً بأنّه: "إذا التقطت أيّ نادرة من كلام العرب، فاحذر أن تسردها إلا مع إعرابها، بمعنى محاولة ضبط مخارج ألفاظها، فإنّ غيرت نطقها مثلما هو عند المولدين والبلديين لم يعد لهذه الحكاية معنى"⁽⁶⁾.

كما نقل الكاتب نفسه رواية في المؤلّف ذاته من باب التندر في اللحن الذي كان محلّ الفكاهة بين الأعراب والنحاة، أنّ نحوياً تقدّم بين يدي السلطان يشكو رجلاً في دين له عليه، قال: "أصلح الله الأمير لي عليه درهمان،

(1) العقد الفريد: ابن عبد ربه، 1956م، دار الكتاب العربي، بيروت: 125/2.

(2) الخصائص، السابق: 245/3.

(3) وهو "من أبو موسى إلى الخليفة الثاني عمر... " وقيل أنّه أول خطأ في الكتابة، ينظر لحن العوام المصدر السابق، ص4.

(4) ينظر معجم الأدباء- إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب: ياقوت الحموي، (ت626هـ)، تحقيق إحسان عباس، 1414هـ، 1993م، دار العرب الإسلامي: بيروت: 20/1. وينظر الخصائص لابن جني، المصدر السابق: 8/2.

(5) طبقات النحويين واللغويين، السابق: 41.

(6) البيان والتبيين: الجاحظ (أبو عثمان بن بحر محبوب الكناني، ت225هـ)، تحقيق عبد السلام هارون، 1368هـ، 1949م، القاهرة: 91/1.

فقال خصمه: لا والله أيها الأمير إنّ هي ثلاثة دراهم، لكنّه لظهور الإعراب ترك من حقه درهما⁽¹⁾. وظهور الإعراب الذي أشار إليه الخصم كان في لفظة ثلاثة، فالعدد يذكر مع المعدود المؤنث، ويؤنث مع العدد المذكور في قواعد اللغة العربية، هذا ما أثار مخاوف المتكلم أن يقع في اللحن، فاستبدل لفظة ثلاثة بلفظة درهمان متنازلاً في ذلك عن درهم من حقه. ما كان لهذا الشاكي أن يضيّع حقه لو أصلح لسانه.

وإصلاح اللغّة لا يتأتّى إلا بالعربية (الإعراب، والكلام، واللّحن، والنحو). وباكورته يمكن تلخيصها في رواية عن الزجاج (ت316هـ) أن أبا الأسود الدؤلي (ت69هـ) قال: "دخلت على علي بن أبي طالب فرأيتَه مطرقاً متفكراً فقلت: فيم تفكر يا أمير المؤمنين؟ قال: إنّي سمعت ببلدكم هذا لحناً فأردت أن أصنع كتاباً في أصول العربية، فقلت: إن جعلت هذا أحييتنا، وبقيت فينا هذه اللغّة"⁽²⁾. وهذا المسعى من دون شكّ يقتضي مصطلحات تعين على تعيين هذا العلم وما تضمّنه من قواعد.

المصطلحات المستخدمة في تعيين علم النحو

المصطلح في مفهومه القاموسي، هو من أصل المادة: (صلح)، والصلح: تصالح القوم بينهم، والصلح: السلم، قد اصطالحوا وصالحووا واصلحوا وتصالحووا... بمعنى واحد⁽³⁾.

وقال أحمد بن فارس اللغويّ: "الصاد واللام والحاء أصل يدلّ على خلاف الفساد"⁽⁴⁾. وقال الأزهري (ت509هـ): "تصالح القوم واصلحوا بمعنى واحد"⁽⁵⁾. وكلاهما يعني أن الجذر الثلاثي للفظ (مصطلح) كان يعني في الجاهلية الصلح أو الصلاح المناقض للفساد، ولم يكن يدلّ على شيء من المعنى الذي اكتسبه في العصور التّالية، وأن الفعل (اصلحوا) لم يكن يعني أكثر من ائتلاف القوم بعد الاختلاف.

ثم صقل التّطور هذا اللفظ، وأضاف إلى معناه الأول معنى جديداً يوضحه الزبيدي (ت379هـ) في قوله: "الاصطلاح اتفاق طائفة مخصوصة على أمر مخصوص"⁽⁶⁾. ويحدّد غيره المصطلح العلمي، فيقول: "المصطلح العلمي هو لفظ اتفق العلماء على اتّخاذه للتعبير عن معنى من المعاني"⁽⁷⁾. "والاصطلاح يجعل للألفاظ مدلولات جديدة غير مدلولاتها اللّغوية الأصلية"⁽⁸⁾.

(1) السابق: 322.

(2) الأشباه والنظائر: السيوطي، تحقيق عبد العال مكّرم، 1985م، ط(1)، مؤسسة الرسالة، بيروت: 13/1.

(3) ينظر لسان العرب: ابن منظور الإفريقي (ت711هـ)، دار لسان العرب، بيروت: مادة (صلح).

(4) مقاييس اللغة: أحمد بن فارس، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الجليل، بيروت، د.ت: مادة (صلح).

(5) تهذيب اللغة: أبو منصور الأزهري، تحقيق عبد السلام محمد هارون ومحمد علي النجار، 1964م، دار القومية العربية: مادة (صلح).

(6) تاج العروس: المرتضى الزبيدي، 1969م، طبعة الكويت: مادة (صلح).

(7) المصطلحات العلمية في اللغة العربية في القديم والحديث: الأمير مصطفى الشهابي، 1988م، مجمع اللغة العربية، دمشق: 6.

(8) نفسه: 6.

وبشكل قريب إلى الفهم فإنّ المصطلح لفظ يطلق للدلالة على مفهوم معيّن عن طريق الاصطلاح (الاتفاق) بين الجماعة اللغوية على تلك الدلالة المرادة، التي تقرن بين اللفظ (الدال) والمفهوم (المدلول) لمناسبة بينهما⁽¹⁾، "لكن لا يشترط وجود هذه العلاقة بين الاسم المسمّى"⁽²⁾، فلو أطلقنا اسم "مُنْبَه" على جهاز معيّن، وأردناه مصطلحاً، وجب أن يكون هذا الجهاز من خصائصه التنبية، وهذه هي العلاقة المنطقية الواجبة بين المصطلح ومفهومه، أما الاسم: فقد نطلق الاسم "زيد" على شخص أو مسمّى، لا يكون بالضرورة زيد. وهي بذلك ألفاظ مقررة تشبه الحدود وإشارات الطريق⁽³⁾، لها معانٍ يفهمها الناس، ومعانٍ أحر لا يفهمها إلاّ أهل ذلك العلم الذي تنسب إليه⁽⁴⁾، فإن حصل هذا الاتفاق بين جماعة المُحدثين تفتّق عنه مصطلح في الحديث، وإن قام بين جماعة الفقهاء نتج عنه مصطلح في الفقه، وإن كان بين جماعة النحاة كان المصطلح النحوي⁽⁵⁾. كما يدلّ المصطلح الواحد على معانٍ تختلف باختلاف العلوم، فمصطلح (الخبر)⁽⁶⁾ على سبيل المثال لا الحصر، له معنى عند النحويين، وآخر عند المُحدثين وثالث عند البلاغيين، كما أن الاختلاف في دلالة المصطلح يكون بين النحاة أنفسهم بسبب مناهجهم العلمية ومدارسهم المختلفة⁽⁷⁾. ولذا "وجب أن يتجاوز المصطلح الدلالة اللفظية والمعجمية إلى تأطير تصوّرات فكرية وتسميتها في إطار معيّن تقوى على تشخيص وضبط المفاهيم التي تنتجها ممارسة ما في لحظات معيّنة، والمصطلح بهذا المعنى هو الذي يستطيع الإمساك بالعناصر المُحدّة للمفهوم، والتمكّن من انتظامها في قالب لفظي"⁽⁸⁾.

أقول: لما كان الأمر كذلك، فإنّ لبّ المشكلة كما تبدو لي، هو الاتفاق بين الجماعة، والأسس والمبادئ التي يقوم عليها هذا الاتفاق، وسبل تحقيقه.

وقد جمع المتخصّصون في علم المصطلح تعريفاً له في منتهى الدقّة، فعرفوه بأنّه الرّمز اللّغوي المحدّد لمفهوم واحد تخصّص بعد شيوعه. بما يسمى بالدلالة الصنّاعية.

(1) الوسيط: إصدار مجمع اللغة العربية بالقاهرة، 1998م، ط(3): (اصطلاح)

(2) المصطلحات اللغوية الحديثة في اللغة العربية: معجم عربي-أعجمي/أعجمي-عربي: محمد رشاد الحمزاوي، 1987م، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر: 106.

(3) ينظر الأسلوب: أحمد الشايب، 1976م، ط1، مطبعة السعادة، القاهرة: 97 – 98.

(4) ينظر النقد اللغوي عند العرب حتى نهاية القرن السابع عشر للهجرة، 1978م، ط(1)، دار الحرية، بغداد: 284.

(5) ينظر المصطلح النحوي، نشأته وتطوره حتى أواخر القرن الثالث الهجري: عوض محمد القوزي، 1981م، الرياض: 22.

(6) ينظر الخبر عند النحويين كل ما أسندته إلى المبتدأ وحدثت به عنه، وعند المُحدثين الرواية، وعند البلاغيين كلام يحتمل الصدق والكذب، ينظر:

اللّمع في العربية: ابن جني (ت392هـ) تحقيق: حامد المؤمن، 1982م، ط(1)، مطبعة العاني، بغداد: 80.

(7) ينظر المصطلح النحوي نشأته وتطوره، السابق: 24.

(8) المصطلح اللغوي في كتاب سيبويه: رسالة دكتوراه، للطالب: رقيق كمال، جامعة تلمسان، 2013/2012.

والمصطلحات التي عبّرت عن علم النّحو، حصرتها بعض الدارسين في ثلاثة مصطلحات، هي: العربية والكلام والإعراب⁽¹⁾. ويضيف بعضهم مصطلح اللّحن⁽²⁾.

واستخدم ابن خلدون - في حديثه عن علم (النّحو) - ثلاثة مصطلحات: علم النّحو، وصناعة العربية، وعلم العربية⁽³⁾. وهو ما استخدمه النّحويون المتقدّمون كما سبق وأن ذكرت، ولكن ما شاع عند ابن خلدون (255هـ) استبدال (علم) بكلمة (صناعة)، ولا تكاد تفارق مدونته مستخدماً كلمة (صناعة) مفردة، وجمعاً (صنائع).

مصطلح العربية

أما من حيث أسبقية تلك المصطلحات. المذكورة. في الوجود، فذهب بعض الباحثين إلى تقدّم اصطلاح (العربية)⁽⁴⁾، مستدلّين بقول عمر بن الخطاب: "تعلّموا العربية فإنّها تزيد في المروءة"⁽⁵⁾. وفي رواية أخرى "تعلّموا العَرَبِيَّةَ؛ فَإِنَّهَا تُثَبِّتُ الْعُقْلَ، وَتَزِيدُ فِي الْمُرُوءَةِ"⁽⁶⁾. كما نقل عنه أيضاً قوله: "تعلّموا إعراب القرآن كما تتعلمون حفظه"⁽⁷⁾. ونقل فيما يدعم هذا الاتجاه عن كعب الأحمبار أنّه حكم بين عبد الله بن عباس، ومعاوية حين اختلفا في فهم قوله تعالى: ﴿عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾، فقال لهما: "أمّا العربية فأنتم أعلم بها، وأمّا أنا فأجد الشّمس في التوراة تغرب في ماء وطنين"⁽⁸⁾.

وذكرت بعض المصادر أنّ أول نصّ ورد فيه هذا المعنى الاصطلاحي والذي يؤكّد قدمه وعراقته ما نقله ابن نوفل عن أبيه، قال: سمعت أبي يقول لأبي عمرو بن العلاء (ت154هـ): "أخبرني عمّا وضعت ممّا سمّيته عربية، أيدخل فيه كلام العرب كلّها..."⁽⁹⁾.

كذلك ما نقله الأصمعي (ت216هـ) عن شعبة بن الحجاج (ت160هـ)، فقال: "حدّثني شعبة قال: كنت أختلف إلى أبي عقرب، فسألته عن الفقه، ويسألته أبو عمر عن العربية، فنقوم، وأنا لا أحفظ حرفاً ممّا سأله، ولا يحفظ حرفاً ممّا سألته"⁽¹⁰⁾. وروي عن عمرو بن دينار (ت125هـ) قال: اجتمعت أنا والزهري (ت124هـ) ونصر بن عاصم (ت89هـ).

(1) ينظر أبو الأسود الدؤلي ونشأة النحو العربي: فتحي عبد الفتاح الدجني، 1974م، الكويت، وكالة المطبوعات: 13-14.

(2) ينظر المصطلح النحوي: نشأته وتطوره حتى أواخر القرن الثالث الهجري، السابق: 16.

(3) ينظر المقدمة: ابن خلدون، تحقيق علي عبد الواحد وافي، 2004م، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة: 3/1168.

(4) ينظر المفصل في تاريخ النحو العربي، السابق: 12.

(5) المستتر في القراءات العشر، السابق: 188/1.

(6) التاريخ الكبير: محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله (المتوفى: 256هـ)، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد - الدكن، تحقيق محمد عبد المعيد خان: 68/9.

(7) إيضاح الوقف والابتداء في كتاب الله عز وجل: أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري (ت328هـ)، تحقيق محي الدين رمضان، 1390هـ، 1971م، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق: 19/1.

(8) غاية النهاية في طبقات القراء: ابن الجزري (ت833هـ)، 1402هـ، 1982م، ط(3)، دار الكتب العلمية: بيروت: 303/2.

(9) طبقات النحويين، السابق: 39.

(10) السابق: 31.

فتكلم نصر، فقال الزهري: "إنه ليفلق بالعربية تفليقاً"⁽¹⁾. ومعلوم أنّ نصر بن عاصم من أوائل المهتمين بالدراسات النحوية⁽²⁾.

كما أخذ بعض المؤرخين وأصحاب الطبقات، برأي استعمال مصطلح العربية على أساس أنه النحو حيث قال ابن سلام (ت232هـ): "كان أبو الأسود أول من استنّ العربية، وفتح بابها، وأنهج سبيلها، ووضع قياسها"⁽³⁾. وقال المبرد (ت280هـ): "أول من وضع العربية ونقط المصحف أبو الأسود الدؤلي"⁽⁴⁾.

وعلى ضوء أرجح الأخبار والروايات لم تعرف كلمة "العربية" بالمفهوم الاصطلاحي طريقها إلى الظهور إلا بعد انتهاء القرن الثاني للهجرة، وقد أطلقت آنذاك على ما جمعه الرواة من البداية عن العرب الفصحاء بعد فشو اللحن⁽⁵⁾.

والواضح في ذلك أنّ مصطلحي "عربية"، و"نحو" هما اللذان أطلقا على هذا العلم، ثم زال الأوّل على الأيام، وبقي الثاني للدلالة عليه.

مصطلح الكلام:

ومنه سمي نحو الكلام، إذ قال ابن فارس (ت395هـ): "ومنه اشتقاق النحو في الكلام، كأنه قصد الصواب"⁽⁶⁾. ويستدل على تقدّم استعمال مصطلح (الكلام) بما روي عن أبي الأسود الدؤلي (ت69هـ)، وقد سمع اللحن في كلام الموالي: "هؤلاء الموالي قد رغبوا في الإسلام فدخلوا فيه، فصاروا لنا إخوة، فلو علمناهم الكلام"⁽⁷⁾.

مصطلح الإعراب

أمّا لفظة "الإعراب" في دلالتها اللغوية، فهي:

التغيير: يقال: فعلت كذا فما عرب علي أحد، أي: فما غير علي أحد. التحبب. ومنه العروب: المرأة المتحبة إلى زوجها، وبه فسر قوله تعالى: ﴿عُرْبًا أْتْرَابًا﴾ الواقعة: 37. الإجمالة: يقال: عربت الدابة، أي: جالت في مرعاها. وأعربها

(1) أخبار النحويين البصريين، السابق: 21.

(2) نفسه: 27.

(3) طبقات فحول الشعراء: ابن سلام (محمد بن سلام، ت232هـ)، تحقيق محمود شاكر، 1952هـ، دار المعارف، القاهرة: 15/1.

(4) طبقات النحويين واللغويين: الزبيدي (أبو بكر محمد بن الحسن، ت989هـ)، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، 1373هـ، 1954م، القاهرة: 21.

(5) ينظر اللهجات العربية نشأة وتطورا: عبد الغفار حامد هلال، 1418هـ، 1989م، دار الفكر العربي: 20.

(6) جمهرة اللغة: محمد بن الحسن بن دريد أبو بكر، تحقيق: رمزي منير بعلبكي، 1987م، دار العلم للملايين: 575/1.

(7) أخبار النحويين البصريين، السابق: 13.

صاحبها: أجالها. وإزالة الفساد. يقال: أعربت الشيء إذا أزلت عربيه، أي فساده⁽¹⁾، "فكان كقولك: أعجمت الكتاب، إذا أزلت عجمته"⁽²⁾.

وعربت معدة الرجل إذا فسدت، فكان المراد من الإعراب إزالة الفساد، ودخول همزة السلب قلبت المعنى، ومنه أشكيت الرجل أي أزلت شكايته، وأعربت أزلت فساده.⁽³⁾ ومعنى الإبانة، يقال أعرب الرجل عن حاجته إذا أبان عنها، والإعراب مصدر للفعل "أعرب"، قيل أعرب فلان كان فصيحاً في العربية وإن لم يكن من العرب، وأعرب بحجته أفصح بها ولم يتق أحداً، والكلام بيّنة وأتى به وفق قواعد النحو، ويأتي للإبانة، يقال عرب عنه لسانه: أبان وأفصح⁽⁴⁾. والإعراب الذي هو النحو، إنما هو الإبانة عن المعاني بالألفاظ، وأعرب كلامه إذا لم يلحن في الإعراب⁽⁵⁾.

والكلام المعرب يضمن الإبلاغ بما يحتويه من علامات لإقامة الفروق بين عناصر الكلام. والإعراب في اصطلاح النحاة هو الإبانة عن المعنى. قال الزجاج (ت316هـ): إن النحويين لما رأوا في أواخر الأسماء والأفعال والحركات تدلّ على المعاني، وتبين عنها سموها إعراباً أي بياناً وكأنّ البيان بها يكون... ويسمى النحو إعراباً والإعراب نحواً⁽⁶⁾. لأنّ هناك علاقة وثيقة بين التعريف اللغوي والاصطلاحي للإعراب، وهو الإبانة والتوضيح للمعنى والناحية الإعرابية.

وابتغاءً لهذا المعنى حثّ الرسول صلى الله عليه وسلّم الأخذ به في قراءة القرآن الكريم وشرحه، مستعملاً مصطلح الإعراب في قوله: "أعربوا القرآن والتمسوا إعرابه"⁽⁷⁾.

وذهب بعض العلماء والدّارسين⁽⁸⁾ إلى أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - هو أوّل من استعمل مصطلح الإعراب في قوله: "وليعلم أبو الأسود أهل البصرة الإعراب"⁽⁹⁾. والمقصود به النحو على غرار ما ورد في عدد من المصادر العربية القديمة⁽¹⁰⁾. ويتأكد ذلك من كلام الزجاج (ت337هـ) الذي استعمال كلمة (الإعراب) بمعنى النحو اصطلاحاً في القرن الثالث للهجرة: "يسمى النحو إعراباً، والإعراب نحواً سماعاً، لأن الغرض طلب علم واحد"⁽¹¹⁾.

- (1) ينظر لسان العرب: المصدر السابق مادة (عرب). تاج العروس: المرتضى الزبيدي، 1969م، طبعة الكويت: مادة (عرب). وهمع الهوامع: تحقيق عبد العال سالم مكرم، دار البحوث العلمية، الكويت، دت: 40/1.
- (2) نقلاً عن المصطلح النحوي لعوض حمد القوزي: 15.
- (3) ينظر التفسير الكبير، الرازي، 1983م، ط(2)، دار الفكر، بيروت: 52/1.
- (4) ينظر لسان العرب، المصدر السابق: مادة (عرب).
- (5) نفسه: 115/9.
- (6) بنية العقل العربي: محمد عابد الجابري، 1990م، ط(3)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت: 44.
- (7) المستتر في القراءات العشر، السابق: 186/1.
- (8) ينظر المصطلح النحوي، نشأته وتطوره حتى أواخر القرن الثالث الهجري، السابق: 14.
- (9) أنباه الرواة على أنباه النحاة: القفطي جمال الدين، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم يحيى، 2004م، ط1، يحيى، المكتبة العصرية: 15/1.
- (10) ينظر الفصول الخمسون: ابن معطي يحيى، تحقيق: محمود محمد الطناحي، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، الطبعة، دط، دت: 149.
- (11) الإيضاح في علل النحو: أبو القاسم الزجاجي، (ت337هـ)، تحقيق الدكتور مازن المبارك، 1986م، ط(5)، دار النفائس: 91.

لعلّ الباعث الأصيل لهذا المصطلح (الإعراب) حسب ما تشير إليه بعض المصادر، هو عملية (نقط المصحف) التي أنجزها أبو الأسود الدؤلي (ت69هـ)⁽¹⁾، وهو الذي سمي هذا النقط المعبر عن حركات أواخر الكلم إعراباً، وأنه قال قبل الشروع فيه: "أرى أن أبتدئ بإعراب القرآن"⁽²⁾. وقد تكون التسمية بنقط الإعراب حدثت في ما بعد، تمييزاً لنقط أبي الأسود عن نقط الاعجام الذي قام به بعد ذلك نصر بن عاصم (ت89هـ)⁽³⁾، ويحيى بن يعمر العدواني (ت117هـ)⁽⁴⁾، كما ميزوا بينهما خطأ بكتابة نقط الإعراب بلون أحمر ونقط الاعجام بلون أسود، وبقي أمر كتابتهما على هذه الحال حتى مجيء الخليل ابن أحمد (ت175هـ) الذي أبدل نقط أبي الأسود بالحروف، لأنه كان يرى أن الفتحة بعض الألف، والكسرة بعض الياء، والضمة بعض الواو.⁽⁵⁾

وقد جاءت هذه الكلمة - الإعراب - بمعنى النَّحو في عدد من المصادر العربية القديمة ولعلّ أقدم مصتَف استعملت فيه هذه الكلمة بهذا المعنى - في حدود معرفتي - هو كاتب الفراء (ت207هـ) الذي استهل فيه تفسيره للقرآن الكريم بقوله: "تفسير مشكل إعراب القرآن ومعانيه"⁽⁶⁾، وما يجلي ذلك قوله: "ومما كثر في كلام العرب فحذفوا منه أكثر من ذا، قولهم: أيش عندك؟ فحذفوا إعراب (أي) وإحدى ياءيه"⁽⁷⁾، وواضح أنه يريد بإعراب (أي) حركتها. وتلاه كتاب النحاس (ت238هـ) الموسوم بـ "إعراب القرآن"، ثم كتاب ابن خالويه (ت370هـ) "إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم". وكتاب مكي بن أبي طالب القيسي (ت437هـ) "مشكل إعراب القرآن".

وسار على هذا النهج في استعمال ذات المصطلح في وقت متأخر وفي حدود ضيقة، علماء القرن الرابع و ما أعقبه، كابن جني (ت392هـ) في كتابه "سر صناعة الإعراب"، وهناك أيضاً الحريري صاحب المقامات (ت576هـ) في موسومه "ملحة الإعراب"، واستعمله ابن معطي (ت628هـ) في كتابه "الفصول الخمسون"، إذ قال: "إن غرض المبتدئ الراغب في علم الإعراب حصرت في خمسين فصلاً"⁽⁸⁾.

مصطلح اللّحن

مصطلح اللّحن في مقابلة النَّحو، يعني كما في المقاييس "إمالة الشيء من جهته... وهذا من الكلام المولد، لأنّ اللّحن محدث لم يكن في العرب العاربة الذين تكلموا بطباعهم السليمة، ومن هذا الباب قولهم هو طيب اللّحن، وهو يقرأ بالألحان وذلك أنه إذا قرأ كذلك أزال الشيء عن جهته الصحيحة بالزيادة والنقصان في ترنّمه، ومنه

(1) ينظر صبح الأعشى: أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي (ت377هـ)، تحقيق يوسف علي طویل، 1987م، ط(1)، دار الفكر دمشق: 151/3.

(2) نفسه: 160/3.

(3) ينظر وفيات الأعيان: ابن خلكان (ت681هـ)، نشره معي الدين عبد الحميد، 1367هـ، 1948م، القاهرة: 125/1.

(4) ينظر طبقات النحويين واللغويين: الزبيدي (أبو بكر محمد بن الحسن)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، 1984م، ط(2)، دار المعارف، مصر:

29.

(5) ينظر القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية، المصدر السابق: 266 - 267.

(6) معاني القرآن: أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء (ت207هـ)، تحقيق أحمد يوسف نجاتي ومحمد علي النجار، د.ط، د.ت: 1/1.

(7) نفسه: 2/1.

(8) الفصول الخمسون، السابق: 149.

أيضاً "اللحن" فحوى الكلام ومعناه، قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ محمد: 30، وهذا هو الكلام المورى به المزال عن جهة الاستقامة والظهور⁽¹⁾.

وما توافر لي من الأدلة على استعمال مصطلح (اللحن) للتعبير عن هذا العلم - وهي قليلة ومتردة - منها تلك الرواية المنقولة عن عمر بن الخطاب: "تعلموا الفرائض والسنة واللحن كما تتعلمون القرآن"⁽²⁾. وما قاله أبو بكر الأنباري (ت328هـ): وحدث يزيد بن هارون بهذا الحديث، فقيل له: "ما اللحن؟ قال: النحو"⁽³⁾.

مصطلح النحو

ذكرت للنحو لغة المعاني التالية:

القصد: يقال: نحوت نحوك، أي: قصدت قصدك. ونحوت الشيء، إذا أمتته. والصرف: يقال: نحوت بصري إليه، أي: صرفت. والمثل: تقول: مررت برجل نحوك، أي: مثلك. والمقدار: تقول: له عندي نحو ألف، أي: مقدار ألف. والجهة أو الناحية: تقول: سرت نحو البيت، أي: جهته. والنوع أو القسم: تقول: هذا على سبعة أنحاء، أي: أنواع. والبعض: تقول: أكلت نحو السمكة، أي: بعضها. والتحريف، يقال: نحا الشيء ينحاه وينحوه إذا حرّفه⁽⁴⁾. ومنه سمي النحو نحوياً لأنه يحرف الكلام إلى وجوه الإعراب.

ويلاحظ أنّ النحاة لم يذكروا المعنى الثالث، ولذا عدوا المعاني اللغوية سبعة نظماً الداودي شعراً بقوله:

للنحو سبع معان قد أتت لغة * * جمعتها ضمن بيت مفرد كملا

قصد ومثل ومقدار وناحية * * نوع وبعض وحرف فاحفظ المثلثا⁽⁵⁾

وهو في أصل منبته يعني القصد والطريق⁽⁶⁾.

والسبب في تسمية هذا العلم بالنحو يعود إلى ما أثبتته بعض النصوص التي تتحدث عن بدايات هذا العلم، منها ما ذكره الزجاجي (ت337هـ) أنّ أبا الأسود (ت69هـ) حين وضع كتاباً فيه جمل العربية، قال للناس: "انحوا هذا النحو"⁽⁷⁾. أي: اقصده. والنحو: القصد. وفي رواية أخرى أنّ علي بن أبي طالب سلم أبا الأسود الصحيفة النحوية وقال له: "انح هذا النحو"⁽⁸⁾. فأطلقت كلمة "النحو" للدلالة على هذا العلم. وهذه الرواية ترجح أيضاً الزمن الذي

(1) مقاييس اللغة: أحمد بن فارس، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت (د.ت)، ج5/239.

(2) المصطلح النحوي، السابق: 10.

(3) المصطلح النحوي: نشأته وتطوره حتى أواخر القرن الثالث الهجري، القوزي عوض حمد، 1981م، عمادة شؤون المكتبات، الرياض: 9.

(4) ينظر لسان العرب، المصدر السابق: مادة (نحا).

(5) ينظر شرح المفصل: ابن يعيش النحوي (ت643هـ)، عالم الكتب، بيروت، مكتبة المتنبّي القاهرة، (د.ت): 10/1.

(6) ينظر لسان العرب، المصدر السابق: مادة (نحا).

(7) الإيضاح في علل النحو: الزجاجي، تحقيق مازن المبارك: 89. و ينظر نزهة الألباب في طبقات الأدباء: ابن الأنباري، تحقيق إبراهيم السامرائي، 1970م، ط2، مكتبة الأندلس، بغداد: 18.

(8) وفيات الأعيان، السابق: 2/316.

استعمل فيه لأول مرة هذا المصطلح، بعد أن تعددت فيه الروايات. منها ما ترجعه إلى القرن الأول للهجرة قبل عصر ابن أبي إسحاق الحضرمي (ت117هـ) مع مصطلح "العربية"، وقيل: إن أول النحاة الذين استعملوا مصطلح النحو هو عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي⁽¹⁾.

وكان اللغويون يخصّون به فرعاً من فروع العربية، وما يعزّز هذا الرأي، ما نقل عن ابن سلام (ت232هـ) عن أبيه عن يونس بن حبيب (ت182هـ)، قال: "وقلت ليونس: هل سمعت من أبي إسحاق شيئاً؟ قال: نعم، قلت له: هل يقول أحد "الصويق"؟ يعني السّوق، قال: نعم، عمرو بن تميم تقولها، وما تريد إلى هذا عليك بباب في النحو يطرد وينقاس"⁽²⁾.

وتنسب بعض الروايات إلى الخليل بن أحمد (ت172هـ) أنّه سبق له وأن وقع بين يديه كتابين في النحو لعيسى بن عمر (ت149هـ)، فقال فيهما:

بطل النحو جميعاً كلّه ** غير ما أحدث عيسى بن عمر⁽³⁾

ومنهم من يرجع أقدم محاولة لتعيين هذا العلم بهذا المصطلح إلى ما ذكره ابن السراج (ت316هـ): "النحو إنّما أريد به أن ينحو المتكلم إذا تعلّم كلام العرب، وهو علم استخرجه المتقدمون فيه من استقراء كلام العرب، حتى وقفوا منه على الغرض الذي قصده المبتدئون بهذه اللغة"⁽⁴⁾.

ويبدو أنّ تسمية الإعراب بالنحو ليست بالمتأخرة، فهي تسمية قديمة، فعمر بن الخطاب رضي الله عنه استعمل المصطلحين للدلالة على علم واحد، فقد ذكر السيوطي (ت911هـ) رواية عنه أنّه استعمل كلمة "الإعراب" بمعنى "النحو" عندما قال: "وليعلم أبو الأسود أهل البصرة الإعراب"⁽⁵⁾. كما أنّه استعمل كلمة النحو بمعنى الإعراب في تلك الرواية التي شدّد فيها على تعلّمه: "تعلّموا النحو كما تتعلمون السنن والفرائض"⁽⁶⁾.

وورد عن الأزهري (ت509هـ) أنّه: "ثبت عن أهل اليونان فيما يذكر المترجمون العارفون بلسانهم ولغتهم، أنّهم يسمّون علم الألفاظ والعناية بالبحث عنه نحواً، فيقولون فلان من النحويين، ولذلك سمي الإسكندراني يحيى النحوي للذي كان جعل له من المعرفة بلغة اليونان"⁽⁷⁾.

(1) ينظر المصطلح النحوي، السابق: 19.

(2) طبقات فحول الشعراء، السابق: 15/1.

(3) المفصل في تاريخ النحو العربي، الجزء الأول قبل سيبويه، السابق: 14.

(4) الأصول في النحو، السابق: 35.

(5) السابق: ص20.

(6) البيان والتبيين، السابق: 219/2.

(7) لسان العرب، السابق: مادة (نحا).

واستعملت كلمة "نحو" بمعنى "مثل" إلى عهد ابن أبي إسحاق الحضرمي (ت117هـ)، فنقل عنه أبو عبيدة عن يونس بن حبيب (ت182هـ) قوله: "يزيدون في أوساط (فَعَلْ): افعل، وانفعل، واستفعل، ونحو هذا"⁽¹⁾. وشاع فيما بعد في مؤلفات اللغة. وبهذا وصلت كلمة "نحو" إلى مرحلة تؤدي فيها معنى اصطلاحي جديد للدلالة على ضرب من علوم اللّغة العربية.

وما دار في شأن هذه التسمية أيضا، هو أنّ المقرئين كانوا يستخدمون كلمة "نحو" ليدلّوا بها على الطريقة العربية في عبارة ما، كأن يقول بعضهم لبعض: العرب تنحو في هذا كذا، أو نحو العرب في هذا كذا، أو أن يسأل سائل: كيف تنحو العرب في هذا؟ أو أن يقولوا: فلان ينحو في كلامه نحو العرب⁽²⁾. ومن المحتمل أيضا أنّ المؤدّبين كانوا يستخدمونها - كلمة "نحو" - لتوضيح القاعدة وتقريب الفهم بالمثال الفصيح، فصار هذا المعنى المعجمي معنى اصطلاحيا من باب تسمية "الكل" باسم الجزء.

حدّ العلم باستخدام مصطلحي النّحو و الإعراب

الخلاصة:

آية ذلك كلّهُ أنّ الدّرس اللّغوي ارتبط في نشأته بالقرآن الكريم، وهي حقيقة تاريخية عن المعرفة العربية الإسلامية. والتّفكير النّحوي في لغة العرب بدأ في الثلاثينيات من القرن الأوّل على عهد الإمام علي - رضي الله عنه - حين تدارس هو وأبو الأسود الدؤلي أوضاع العربية، وحاجتها إلى الضبط بأصولها، لحمايتها من اللّحن. وما صنيع أبي الأسود الدؤلي المتمثّل في وضع النّقط الإعرابي للقرآن إلا أولى الوثبات في مسار علم العربية، ثمّ تناول تلامذته تلك المبادئ، ورعوها بالصقل، والتوليد، والتّفرع، واستلمها خلف من بعدهم لمتابعة الدرس بالبحث والتّعميق، فكانت مجالس علمية ومصنفات يسيرة، حملت بوادر الدّرس النّحوي، وجعلت له أصولا تعمّق فيها الخليل وسيبويه، فكانت قواعد ضابطة أوضحا معالمها بالتفسير والتعليل. وسنّت سنتهما عدة أجيال، إلى أن أصبح النّحو العربي يحتلّ في التراث مكانة متميّزة لحجمه الهائل، وكثرة العلماء الذين تعاطوا الدراسة والتأليف فيه، وكانت انطلاقة جهودهم من البحث الميداني الواسع النّطاق للظّفر بأكبر مدونة في تاريخ العلوم اللّغوية، فدوّنوا مفرداتها وتراكيبها وأمثالها وعباراتها، مطردها وشاذها، ثمّ وصفوا كلّ ذلك بدقّة متناهية، واستقرأوا القوانين العامة التي تخضع لها، وغير ذلك مما اعتمدت عليه العلوم العربية والإسلامية واللّسانيات الغربية الحديثة⁽³⁾.

فما من شكّ في أنّ التّراث النّحوي الذي تمّ استقراؤه، وأنّ الجهد الذي بُذل فيه خلال الفترات التّاريخية المتوالية يعدّ مرجعا للكثير من العلوم المختلفة قديما وحديثا. وإنّه ما زال يفتكّ من الباحثين العرب وغير العرب

(1) مجاز القرآن: أبو عبيدة معمر بن مثنى (ت210هـ)، تحقيق فؤاد سزكين، 1981م، ط(2)، مؤسسة الرسالة، بيروت: 316/1.

(2) ينظر المفصل في النحو العربي، الجزء الأول، قبل سيبويه، السابق: 15

(3) اللغة العربية بين المشافهة والتحرير: عبد الرحمن الحاج صالح، مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة.

الإعجاب و الاهتمام باعتباره نتاج عقلي عربي محض لما فيه من دقة في الملاحظة، ونشاط في جمع ما تفرق.⁽¹⁾ فدفع هذا الواقع المعرفي بالمستشرقين إلى الاعتراف بالجهود التي خصّها علماء العرب لغتهم من دون كلال، وبالتضحية الجديرة بالإعجاب، من أجل عرض اللغة الفصحى وتصويرها في جميع مظاهرها، من ناحية الأصوات، والصيغ، وتركيب الجمل، ومعاني المفردات على صورة شاملة، حتى بلغت كتب القواعد الأساسية عندهم مستوى من الكمال لا يسمح بزيادة لمستزيد⁽²⁾. وعن هذا الواقع أيضا "نشأت لدى العربي رؤية من القداسة تجاه لغته التوعوية، وتجاه علمنة اللغة"⁽³⁾.

والمتمفّق حوله أنّ علم النّحو، الذي يعدّ مقياس اللغة، والمدخل إلى العلوم العربية والإسلامية، استخدمت في تعيينه ثلاثة مصطلحات، وهي: النّحو، والعربية، والإعراب. ولا أدلّة كافية وشفافية على استعمال (اللّحن) للتعبير عن هذا العلم. وأمّا استعمال (الكلام) فإنه موضع خلاف وتردد. ولا شك في تأخر استعمال لفظ (الإعراب) عن كلّ من (النّحو)

و(العربية)، وإتّما الكلام في تحديد المتقدم من هذين الأخيرين.

والنحو لا يدرس أصوات الكلمات، ولا بنيتها، ولا دلالتها، وإتّما يدرسها من حيث هي عنصر هام في تكوين كلام تؤدّي فيه عملا معيّنا. والخطوة الهامة في التحليل النحوي هي تحديد الكلمة، وعلى إثر هذا التحديد يتحقّق فهم الجملة وصواب التّحليل. وتواكب عمليات التحليل النحوي استعمال المصطلحات المتواضع عليها من قبل النحاة.

المصادر والمراجع

- (1) أبو الأسود الدؤلي ونشأة النحو العربي: فتحي عبد الفتاح الدجني، 1974م، الكويت، وكالة المطبوعات.
- (2) إحصاء العلوم: الفارابي (محمد بن محمد أبو نصير، 339هـ)، تحقيق عثمان أمين، 1968م، ط3، مكتبة الإنجلو المصرية.
- (3) أخبار النحويين البصريين: السير في أبو سعيد، تحقيق طه محمد الزيني ومحمد عبد المنعم خفاجي، 1955م، ط(1).
- (4) الأسلوب: أحمد الشايب، 1976م، ط(1)، مطبعة السعادة، القاهرة.
- (5) الأشباه والنظائر: السيوطي، تحقيق عبد العال مكرم، 1985م، ط(1)، مؤسسة الرسالة، بيروت.

(1) النحو الوافي: عباس حسن، ط(9)، دار المعارف القاهرة: 3/1.

(2) ينظر العربية، دراسة في اللغة واللهجات والأساليب: يوهان فك، ترجمة عبد الحليم النجار، 1951م، طبعة الخانجي، القاهرة: 2.

(3) الفكر العربي والألسنية: عبد السلام المسدي، ورقة قدمت إلى اللسانيات واللغة العربية، 1987م، ندوة تونس الجامعة التونسية: 12.

- (6) إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب: ياقوت الحموي (ت626هـ)، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامية، 1993م، ط(1)، بيروت.
- (7) الأصول في النحو: ابن السراج (أبو بكر محمد، ت316هـ)، تحقيق عبد الحسين الفتلي، 1985م، ط(1)، مؤسسة الرسالة، بيروت: لبنان.
- (8) أصول النحو العربي: محمد خير الحلواني، 1979م، د ط2.
- (9) الإمتاع والمؤانسة: أبو حيان (علي بن محمد بن العباس ت حوالي 400هـ)، الليلة الثامنة، منشورات دار مكتبة الحياة بيروت.
- (10) أنباه الرواة على أنباه النحاة: القفطي جمال الدين، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم يحيى، 2004م، ط 1، يحيى، المكتبة العصرية.
- (11) الايضاح العضدي: أبو علي الفارسي، (أبو علي الحسن بن أحمد الفارسي ت377هـ)، تحقيق كاظم بحر المرجان، 1416هـ، 1996م، ط(2)، عالم الكتب .
- (12) الإيضاح في علل النحو: أبو القاسم الزجاجي، (ت 337هـ)، تحقيق الدكتور مازن المبارك، 1986م، ط(5)، دار النفائس.
- (13) إيضاح الوقف والابتداء في كتاب الله عز وجل: أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري (ت328هـ)، تحقيق محي الدين رمضان، 1390هـ، 1971م، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق.
- (14) البحث اللغوي عند العرب: أحمد مختار عمر، 1997م، عالم الكتب، القاهرة.
- (15) البداية والنهاية: ابن كثير (إسماعيل بن عمر الدمشقي، ت774هـ)، 1348هـ، القاهرة.
- (16) بنية العقل العربي: محمد عابد الجابري، 1990م، ط(3)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت.
- (17) البيان والتبيين: الجاحظ (أبو عثمان بن بحر محبوب الكناني، ت225هـ)، تحقيق عبد السلام هارون، 1368هـ، 1949م، القاهرة.
- (17) البيان والتبيين: الجاحظ، (أبو عثمان عمرو بن بحر، ت255هـ) تح: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، لبنان.
- (18) تاج العروس: المرتضى الزبيدي، 1969م، طبعة الكويت.
- (19) تاريخ آداب اللغة العربية: جرجي زيدان، 1978م، ط(2)، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت.
- (20) تاريخ العرب قبل الإسلام: سعد زغلول عبد الحميد، دار النهضة العربية.

- (21) التاريخ الكبير: محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله (المتوفى: 256هـ)، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد - الدكن، تحقيق محمد عبد المعيد خان.
- (22) تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد: ابن مالك، (محمد بن عبد الله بن مالك ت672هـ)، تحقيق محمد كامل بركات، 1387هـ، 1967م، دار الكتاب العربي، مصر.
- (23) التصريح على التوضيح: خالد الأزهرى (ت905هـ)، 1326هـ، القاهرة.
- (24) التطور اللغوي التاريخي: إبراهيم السمراي، 1983م، ط(3)، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت: لبنان.
- (25) التفسير الكبير، الرازي، 1983م، ط(2)، دار الفكر، بيروت: 52/1.
- (26) تهذيب اللغة: أبو منصور الأزهرى، تحقيق عبد السلام محمد هارون ومحمد علي النجار، 1964م، دار القومية العربية.
- (27) الجديد في الصرف والنحو، والقواعد الأساسية: عادل جابر صالح، 1990م، ط(1).
- (28) الجمل: الجرجاني (أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمان بن محمد ت471هـ)، تحقيق علي حيدر، 1392هـ، دمشق.
- (29) جمهرة اللغة: محمد بن الحسن بن دريد أبو بكر، تحقيق: رمزي منير بعلبكي، 1987م، دار العلم للملايين.
- (30) الحلقة المفقودة في تاريخ النحو العربي: عبد العال سالم مكرم، 1977م، مؤسسة الوحدة، الكويت.
- (31) الخصائص: ابن جني (أبو الفتح عثمان ت392هـ)، 1374م، تحقيق عبد الوهاب النجار، القاهرة.
- (32) سر صناعة الإعراب: ابن جني (أبو الفتح عثمان، ت392هـ) تحقيق السقا ورفاقه، مطبعة مصطفى الباجي الحلبي، 1954م، مصر.
- (33) سير أعلام النبلاء: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي (ت748هـ)، مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، ط(3)، 1405 هـ / 1985 م.
- (34) شرح جمل الزجاجي: ابن هشام (أبو الحسن علي بن محمد بن علي بن خروف الإشبيلي ت609هـ)، تحقيق سلوى محمد عمر، 1419هـ، معهد البحوث و إحياء التراث الإسلامي.
- (35) شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب: ابن هشام، دار الفكر، د.ت.
- (36) شرح المفصل: ابن يعيش النحوي (ت643هـ)، عالم الكتب، بيروت، (د.ت).
- (37) الشعر والشعراء: أبو العباس المبرد (أبو العباس محمد بن يزيد بن عبد الأكبر ت286هـ)، دار المعارف.

- (38) الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها: ابن فارس (ت 395 هـ)، 1964م، حققه وقدم له مصطفى الشويبي، مؤسسة بدران للطباعة والنشر، بيروت.
- (39) صبح الأعشى: أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي (ت 377هـ)، تحقيق يوسف علي طويل، 1987م، ط(1)، دار الفكر دمشق.
- (40) طبقات فحول الشعراء: ابن سلام (محمد بن سلام، ت 232هـ)، تحقيق محمود شاكر، 1952هـ، دار المعارف، القاهرة.
- (41) طبقات النحويين واللغويين: الزبيدي (أبو بكر محمد بن الحسن، ت 989هـ)، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، 1373هـ، 1954م، القاهرة.
- (42) طبقات النحويين واللغويين: الزبيدي (أبو بكر محمد بن الحسن)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، 1984م، ط(2)، دار المعارف، مصر.
- (43) ظاهرة الإعراب في النحو العربي: أحمد سليمان ياقوت، 1983م، ديوان المطبوعات الجامعية: الجزائر.
- (44) العربية، دراسة في اللغة واللهجات والأساليب: يوهان فك، ترجمة عبد الحليم النجار، 1951م، طبعة الخانجي، القاهرة.
- (45) العقد الفريد: ابن عبد ربه، 1956م، دار الكتاب العربي، بيروت.
- (46) غاية النهاية في طبقات القراء: ابن الجزري (ت 833هـ)، 1402هـ، 1982م، ط(3)، دار الكتب العلمية: بيروت.
- (47) فجر الإسلام: أحمد أمين، 1969م، ط(10)، دار الكتاب العربي، بيروت.
- (48) الفصول الخمسون: ابن معطي يحيى، تحقيق: محمود محمد الطناحي، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، الطبعة، دط، د.ت.
- (49) الفكر العربي والألسنية: عبد السلام المسدي، ورقة قدمت إلى اللسانيات واللغة العربية، 1987م، ندوة تونس الجامعة التونسية.
- (50) في اللهجات العربية: إبراهيم أنيس، 1952م، ط(2)، القاهرة: مطبعة لجان البيان العربي.
- (51) الكتاب: سيبويه (عمرو بن عثمان بن قنبر)، تحقيق عبد السلام هارون، 1988م، ط(3)، مكتبة الخانجي، القاهرة.
- (52) لحن العوام: أبو بكر الزبيدي (أبو بكر محمد بن الحسن بن عبد الله ت 989هـ)، تحقيق رمضان عبد التواب، 1964م، المطبعة الكمالية، القاهرة.

- (53) لسان العرب: ابن منظور الإفريقي (ت711هـ)، دار لسان العرب، بيروت.
- (54) لسان العرب: المصدر السابق مادة (عرب). تاج العروس: المرتضى الزبيدي، 1969م، طبعة الكويت
- (55) اللغة العربية بين المشافهة والتحرير: عبد الرحمن الحاج صالح، مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة.
- (56) اللّمع في العربية: ابن جني (ت392هـ) تحقيق: حامد المؤمن، 1982م، ط(1)، مطبعة العاني، بغداد.
- (57) اللهجات العربية نشأة وتطورا: عبد الغفار حامد هلال، 1418هـ، 1989م، دار الفكر العربي.
- (58) مجاز القرآن: أبو عبيدة معمر بن مثنى (ت210هـ)، تحقيق فؤاد سزكين، 1981م، ط(2)، مؤسسة الرسالة، بيروت.
- (59) مدرسة البصرة النحوية: عبد الرحمن السيد، 1968م، ط(1)، دار المعارف، القاهرة.
- (60) مسائل خلافية في النحو: العكبري، تحقيق محمد خير الحلواني، دمشق، دار المأمون للتراث.
- (61) المستتر في القرآت العشر: أبو الطاهر أحمد بن علي بن عبيد الله بن عمر بن سوار البغدادي (ت496هـ)، تحقيق ودراسة عمار أمين الردو، 1426هـ، 2005م، ط(1)، دار البحوث للدراسات الإسلامية و إحياء التراث.
- (62) المستدرک على الصحيحين: أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن النيسابوري المعروف بابن البيع (ت: 405هـ)، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا: دار الكتب العلمية - بيروت ط(1)، 1411 هـ - 1990م.
- (63) المزهر في علوم العربية و أنواعها: السيوطي (جلال الدين عبد الرحمان بن أبي بكر 911هـ)، تحقيق ج: جاد المولى وزميله، القاهرة، د.ت.
- (64) المصطلحات العلمية في اللغة العربية في القديم والحديث: الأمير مصطفى الشهابي، 1988م، مجمع اللغة العربية، دمشق.
- (65) المصطلحات اللغوية الحديثة في اللغة العربية: معجم عربي-أعجمي/أعجمي-عربي: محمد رشاد الحمزاوي، 1987م، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر.
- (66) المصطلح اللغوي في كتاب سيبويه: رسالة دكتوراه، للطالب: رقيق كمال، جامعة تلمسان، 2013/2012.
- (67) المصطلح النحوي، نشأته وتطوره حتى أواخر القرن الثالث الهجري: عوض محمد القوزي، 1981م، الرياض.
- (68) المصطلح النحوي: نشأته وتطوره حتى أواخر القرن الثالث الهجري، القوزي عوض حمد، 1981م، عمادة شؤون المكتبات، الرياض.
- (69) معاني القرآن: أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء (ت207هـ)، تحقيق أحمد يوسف نجاتي ومحمد علي النجار، د.ط، د.ت.

- (70) معجم الأدباء- إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب: ياقوت الحموي، (ت626هـ)، تحقيق إحسان عباس، 1414هـ، 1993م، دار العرب الإسلامي: بيروت.
- (71) المغرب والدخيل في اللغة العربية و آدابها: محمد أتنوخي، 1426هـ 2005 م، ط(1)، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع.
- (72) المفصل في تاريخ النحو العربي، الجزء الأول قبل سيويوه: محمد خير الحلواني، مؤسسة الرسالة، دط، دت.
- (73) مقاييس اللغة: أحمد بن فارس، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، دت.
- (74) المقدمة: ابن خلدون، تحقيق علي عبد الواحد وافي، 2004م، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة.
- (75) مكانة الخليل بن أحمد الفراهيدي في النحو العربي: جعفر عباينة، 1984م، ط(1)، دار الفكر، عمارة.
- (76) الموجز في النحو: محمد بن السراج، تحقيق مصطفى الشويبي، 1965م، مؤسسة بدران للطباعة والنشر، بيروت.
- (77) النحو التعليمي في التراث العربي: محمد إبراهيم عبادة، 1986م، منشأ المعارف بالإسكندرية.
- (78) النحو الوافي: عباس حسن، ط(9)، دار المعارف القاهرة.
- (79) نزهة الألباء في طبقات الأدباء: لابن الأنباري (أبو البركات عبد الرحمان بن محمد، ت577هـ)، تحقيق إبراهيم السامرائي، بيروت.
- (80) النقد اللغوي عند العرب حتى نهاية القرن السابع عشر للهجرة، 1978م، ط(1)، دار الحرية، بغداد.
- (81) وهمع الهوامع: تحقيق عبد العال سالم مكرم، دار البحوث العلمية، الكويت، دت .
- (82) الوسيط: إصدار مجمع اللغة العربية بالقاهر، ط(3)، 1998م.
- (83) وفيات الأعيان: ابن خلكان(ت681هـ)، نشره محي الدين عبد الحميد، 1367هـ، 1948م، القاهرة.

خطاب التبسيط العلمي : محاولة في التعريف - مسوغات إبستمولوجية

Towards scientific popularization discourse definition : an essay in epistemological considerations

د. يوسف مقران أستاذ التعليم العالي / جامعة مرسللي عبد الله . تيبازة

Dr. Youcef MOKRANE, *Professor* / University of Abdellah Morsli, Tipaza (Algeria)

ملخص:

تعرض هذه المحاولة المفهوم المطلق عليه بالفرنسية (vulgarisation scientifique) والذي يتعثر دون بزوغه . أو وضوحه . في الثقافة العربية (نسبة إلى اللغة). إن هذا الاتهام يَوْمٌ بحق إلى ركامٍ من الحقائق التي ستفصل فيها هذه المقالة: إذ تشرع أولاً في تبرير هذا الاتهام. فتعرج على بعض التعريفات الواهية. ثم تخلص إلى وضع جملة من مقترحات قابلة للنقاش والنقد. وعليه، تصحب هذه المحاولة نزعة تحليلية صارمة تستهدف إعادة تشكيلة التسميات والمفاهيم المتعلقة ضمناً أو الموثقة رسمياً ضمن سنن تعامل الثقافة المعنية بمجموع الخطابات الناتجة عنها بما فيها النمط الذي يخصنا ههنا.

كلمات مفاتيح / خطاب . تبسيط . علم . معرفة . إعلام . تعليمي . تكييف . نشر . ثقافة . تحسيس .

Abstract

This essay seeks to explore the concept known as "scientific vulgarization" which struggles to come into sight, if not to become clear, in the culture with an Arab tradition (with reference to language). It's made here all sorts of accusations: first, the article reviews the explanation of the assumed "accusation". A detour of floating definitions goes without saying. Then our essay will be assigned an upsurge of suggestions whose product is not going to be immune from criticism. So must go with the character of analysis and reconfiguration of denominations and concepts that are implicitly or formally cataloged in the rituals of discourse specific to the culture in question.

Keywords / Discourse - Popularization - Science - Knowledge - Media – Didactic(s) - Adaptation - Disseminating - Culture – Awareness.

مقدمة

تحاول هذه المقالة اختبار مفهوم فضفاضٍ لم يأخذ حَقَّهُ من الدِّراسة والمعالجة الجادَتَيْن على مستوى الفكر العربي. وهو ما سنطلق عليه أدناه "التبسيط العلمي التعميمي" كمقابل عربي لما شاع في الفرنسية. مثلاً. تحت تسمية (Vulgarisation scientifique). لقد همَّنا هذا المفهوم بعدما لاحظنا القفر الذي أصابه في الكتابات العربية: مقالاتٍ وكتباً ومعجماتٍ لغويَّةٍ أو مصطلحيَّةٍ أو مفهوميَّةٍ أو موسوعيَّةٍ.. الخ، ومن منطلق لفت الانتباه إلى أهميَّته؛ ولاسيما أنَّ المكتبات الحافظة للتراث المدوَّن والمسجَّل بالفرنسية والإنجليزية والإسبانية.. الخ، عامرة كلَّها بنصوص وخطابات ومراكز تبتُّ أنماطاً متنوِّعة من هذا الوسيط وهي تنبض حياةً. كما أولينا اهتماماً لهذا الموضوع في سياق تفكيرنا حول *الخطاب التعليمي*. وأيِّ مفارقة كتلك التي مؤدَّاها أنَّ الدارسين لهذا الأخير قلَّت إشاراتهم إلى التَّمط الذي يعيننا في هذه المحاولة ؟

ربَّما تندرج هذه التعمية ضمن طبيعة الثقافة العربيَّة التي يعاني فيها التَّمط الأخر من *الخطاب العلمي*. هذه المرَّة. أنواعاً من التهميش، فما بالك بما ينزل منزلة *الخطاب المبسِّط لهذا الأخير والمعقِّم له*. من هنا نستطلع مسوغات الإجابة الاستيمولوجيَّة التي نريد التركيز عليها خلال العرض والتَّحليل. لعلَّ القارئ يدرك حينئذ أنَّ تلك الثقافة (العربية) لا تزال في عهد لَمَّ شتات الموضوع لإنشاء تعريفٍ يمكن تبنيِّه على الأقلَّ لدى الباحثين الذين يتلقَّون المحاولة بحفاوة النِّقد والاسترسال في الرِّد.

وللوهلة الأولى يبدو أنه بعدما يتمَّ هذا التحديد، سيعلم القارئ بعض مبرِّرات ما يساورنا من القلق إزاء هذه الوضعية المتردية. ولكن، في الحقيقة، يجب الاصطلاح بدايةً على أيِّ تبسيطٍ يتعلَّق الأمر به، وقبله: على أيِّ علمٍ ننشده في حدود هذه الثقافة التي إن تجرَّأ النَّفس على جسِّ نبضها، فقد تتحرَّج بما تسوِّله من عتابٍ وينازعها من تنديدٍ بعد وضعها حقَّ موضعها.

1 تعريف "التبسيط العلمي"

1.1 في التسمية المحلَّلة المعلَّلة وإيحاءاتها السَّليبيَّة

1.1.1 من ناحية المعجم

يُسمَّى *التبسيط العلمي* بالإنجليزية (Scientific Vulgarization / Popularizing Science)، ويُدعى بالفرنسيَّة (Divulgation, popularisation, vulgarisation de la science / Vulgarisation scientifique)، ويُطلق عليه بالإسبانية (La divulgación científica / Divulgación de la ciencia) وبالإيطالية (Divulgazione scientifica / Divulgazione della scienza)¹. وكذلك تُسنَد إليه في العربيَّة. علاوةً على تسميَّة (التبسيط العلمي)

¹ يُنظر: Joël de Rosnay, *L'écologie et la vulgarisation scientifique : de l'égocitoyen à l'écocitoyen*, Ed. Fides / Musée de la civilisation, Montréal, 1994, p.08.

. سمة التثقيف العلمي نسبةً إلى (الثقافة العلمية) و(الثقافة العلمية الشعبية)؛ وهو ما يمكن وسمه أيضاً بالتعميم العلمي. وهناك من ينعى (المعرفة) بكونها عالمة¹ وهي ما يتكفل بها الخطاب العلمي؛ وثمة من يصفها بكونها تعليمية² ويشرف عليها كلٌّ من الخطاب التعليمي. في شقها المؤسّساتي الرّسمي، والخطاب التبسيطي. في شقها الآخر الذي يمكن توصيفه بالجماهيري (الشعبي).

وإلى المعنى الأخير تنصرف جميع التأثيلات اللفظية التي أحلنا إليها في اللغات المذكورة أعلاه والمشتقة من أصلين هما: (-) populus و(-) vulgus) بوضوح صلة (Populirisation) بعموم الشعب والجمهور الواسع. وليس هذا فحسب، بل حتى الكلمة (vulgarisation) المؤصلة لاتينياً (vulgus) حيث تندرج الدلالة السلبية كدأب اللغة في احتمالها لحمولات إيديولوجية³، كانت تدلّ على حشدٍ من السواد الأعظم من الرعيّة في مقابل الشعب السيّد الذي يستأثر بالإدلاء بصوته ويملك حق الانتخاب.. ومع اقتفاء تفرعاتها يطفو هذا المعنى بالطبيعة حتى لتكاد

¹ هو مقابل عربي لـ (Savoir savant) المصاغ على مقاس (culture cultivée) أي (الثقافة العارفة) التي هي الأدب والموسيقى والفنّ التشكيلي، الخ، أي كافة ما يمكن أن يُجمَع، منذ التقليد الذي أساه بيير بورديو Pierre Bourdieu، تحت تسمية culture cultivée لكن الثقافة تشمل كذلك طرق المعيشة وأنماط السلوك كلّها، التي تُحشّر في اسم الثقافة الانثروبولوجية culture anthropologique. كما توجي كلمته الداعية إلى إسناد لعلم الاجتماع مهمة التمكين بالعدة (السلاح) بدل أن يُصدح بدروسه التي قليلاً ما تبلغ الأذان فما بالك بأن يؤتمر بها أو يُنتهى؛ P. Bourdieu, *Questions de sociologie*, Ed. Cérès, Tunis, 1993, p.95. ويسمي (جاليسون) النوع الثاني (Culture courante) أيضاً أو (Culture partagée) ويصفها « بالثقافة المشتركة التي طالما ميّزها التسرّر، وأخذت اليوم تتبدى ويُسفر عنها وتكتسح حيزاً شاسعاً في أرضية التعليمات ». ويطلق على النوع الأول اسم (Culture savante)، التي يصفها بأنها « أرستقراطية ولا تزال تتفياً باللّغة ». نحيل هنا على مداخلة له ألقاها بمناسبة ملتقى حول « استعمالات التكنولوجيات الحديثة في تعليم اللّغات الأجنبية » في 30.28 مارس 2002، حيث يعود إلى هذه المصطلحات: Robert Galisson, *Regards croisés sur l'usage des technologies pour l'éducation : La disciplinarité (partie 1), ELA, n° 134 (Usage des nouvelles technologies dans l'enseignement des langues étrangères : Colloque UNTELE de l'Université de Technologie de Compiègne, les 28-30 mars 2002)*, Ed. Klincksieck, Paris, Avril-juin 2004, (p.137-150), p.143.

² ذلك أنّ المعرفة العلمية السابقة على المعرفة التعليمية تُسهّم في بناء المتعلّم ثقافياً وعلمياً ومع ذلك فهناك قيوداً لازمة مهما يكن قصد الاستجلاب التعليمي كوجود فجوة تقتضي تكيف المتعلّم مع المعرفة التعليمية قبل المعرفة العلمية وهو ما تکرّسه العولمة بطابعها الشمولي. ما يعني في المقام الأول ظهور مفاهيم فوق محلية وأشكال جديدة من الثقافة تكاد تكون عالمية. فمن وجهة نظر العولمة هذه فلا شيء يمكن أن يكون أكثر تخصيصاً وحميمية ولاسيما في مجال المعرفة. فبالتالي لا يمكن التغاضي عن السبل التي تعتمد العولمة في نشر كلّ ما يمكن نشره بدءاً من العلامات التجارية التي وعلى الرغم من التفاني في عولمتها فلا يمكن حصر العولمة فيها لوحدها، مروراً بمحاولات توحيد الاقتصاد العالمي مع الإقرار بالقدرة التنافسية للمؤسسات، وصولاً إلى ما يُروّج له من الأنظمة التعليمية العالمية، وكذا عولمة جميع جوانب الحياة الاجتماعية والحركات الاجتماعية، ولكن يظلّ جوهر المسألة التي نتناولها. مهما نستطرد في الموضوع. ممثلاً في اعتبار التعليم قناة من قنوات نشر الأفكار العولمية ونزید على ذلك فكرة الاستجلاب المعرفي التعليمي لكي لا يذوب الفرد المتعلّم ولا يستهلك مجرد استهلاك، هذا ليقيننا بأنّ التربية تستهدف في المقام الأول بناء الشخصية الصاعدة وتكوين الفرد وتمكينه من مواجهة الصعاب بكلّ أشكالها.

³ ينظر: Yves Jeanneret, *Écrire la science : formes et enjeux de la vulgarisation*, Ed. PUF (Coll. Science, histoire & société), Paris, 1994, p.14. وهو يرى أنّ هذه الدلالة لصقت بهذا الخطاب فعزّ اعتبره نمطاً علمياً خالصاً ولا أدبياً خالصاً حتى ظلّ يعاني أنواعاً من الاستهجان ولم يُشرف على مراتب العرفان ولم يتشرف ببلوغ منزلة الحكامة.

تتعرّز الفكرة في اللغة العربيّة ولاسيّما إذا أسقطنا المفهوم على الثنائية (الرسي - الفصيح / الشعبي - العامي) أو ثنائيّة (المثقفين / الجماهير)¹.

وكذلك أصبحنا نعتاد اقتران تسمية التبسيط العلمي سياقياً وتركيبياً. معجماً أو صرفاً أو دلالةً. بمصطلحات من قبيل (مجتمع الثقافة) و(مجتمع المعرفة) و(اقتصاد المعرفة)، حرصاً على بناء جسور بين العلماء والمجتمع بفضل التبسيط العلمي. وكذلك ترتبط التسمية بكلٍ من (التحرير العلمي) و(التوثيق العلمي) و(تعليمية العلوم) و(الإعلام العلمي) و(الخيال العلمي) بل أحياناً (الثقافة الشعبيّة / العرفيّة)؛ وأكثر من ذلك، نُلفي إضافات ذات صلة تدلّ بالزيادة على الطموح كمركب (دمقرطة الثقافة) من باب توسيع آفاق التبسيط العلمي وتشريع أبوابه أمام جمهور فسيح ومتنوع.

ومن جهةٍ أخرى نسجّل إرداف متواليّة " التبسيط العلمي " ببعض أحكامٍ سلبية تتخلّل الحديث عن التسميات في ظروف تقديمها أو صفاً توحى بالحرص أكثر ممّا يمكن تبريرها منهجياً. ومن هذا القبيل ما يطلق له العنان في مجال اللسانيات بالفرنسيّة . مثلاً . في سياق الإنباء بمعضلات التضخّم والتضخيم التي تشهدها بعض النصوص التبسيطية ولكن بشيءٍ من الاستخفاف، فنقرأ: *« dans la « littérature » linguistique », أي: في فلسفات أو في أدبيات اللسانيات .. فتعليقات من جنس عبارات: phraséologie linguistique أو littérature linguistique أو nouvel avatar de terminologie linguistique لا تشرف أياً من الفرقاء العاكفين على إقامة صرح العلوم الإنسانيّة والاجتماعية واللغويّة التي تعاني مثل هذه النظرة الدونيّة²؛ أليس هكذا يُساء إلى الفلسفة والأدب واللسانيات، ربّما من حيث لا يدري الواحد؛ والغريب أن تصدر الإساءة من أبناء وبنات الاختصاص³ ؟*

¹ وبأبي هم التفصيل إلا أن أحين هذا التقابل ضمن السياق الآتي حيث يقول بروس مازليش (Bruce mazlish) مثلاً. متحدثاً عن الحضارة: « كان يُنظر إلى الحضارة، حتى ضمن المثقفين، فضلاً عن " الجماهير "، على أنّها كلّها خيرٌ لا يرقى إليه الشكّ وإنجازٌ أوروبي ». يُنظر: بروس مازليش، الحضارة ومضامينها، ترجمة عبد النور خراقي، سلسلة عالم المعرفة (412)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، مايو 2014، ص.81. التسطير من وضعنا.

² يُنظر للاستزادة من الشواهد: يوسف مقران، الخطاب اللساني وتفرعاته المفهومية والمصطلحية، حوليات جامعة الجزائر، ع.30، 2، ديسمبر 2016، (ص.263-306)، ص.269-273.

³ لاحظ هذه العينة التي اقتبسناها من موسوعة Encarta الإلكترونية: « *la « littérature »* Outre embrayeurs, on peut rencontrer dans la « littérature » Mot-clé : embrayeurs, indices, pour désigner les éléments dont il est ici question » indicateurs, linguistique les termes déictiques, Aurélien Sauvageot, Section : terminologie, in Encarta © 2006. © 1993-2005 Microsoft Corporation. « Toute une littérature a été déjà publiée sur la: (وهو لساني): définition du mot et il ne saurait être question de revenir ici sur ce problème autrement que pour établir quelques constatations de portée générale »: A. Sauvageot, Du mot, in *La structure du langage*, Ed. Publications de l'Université de Provence, Aix-en- Provence, « Le discours: (Parole) بمصطلح (Discours) مستبدال مصطلح (Discours) على إجحاح البعض حول إجحاح البعض على إجحاح البعض (وهو لساني): (وهو لساني): n'y est pas autre chose qu'un nouvel avatar de la (parole) »: Michel Pêcheux et Catherine Fuchs, Mises au point et perspectives à propos de l'analyse automatique du discours, *Langages*, n° 37, CNL, Ed. Larousse/Armand Colin, Paris, 1975, (p. 7-80), p.79.

وعليه، فغالباً ما يُنتَقَص من الاستعمال الشائع عبر لفظ "خطاب تعميم العلوم"، على اعتبار هذا الأخير من صميم لغة القاصرين من "الجهال" والخاملين من "ضعاف التفكير". ولكن تجاهل أساسيات هذا التبسيط وفنونه. باسم التخصص الدقيق وتحت دواعٍ أخرى. وكذا عدم ألفته رغم شيوعه، هو ما من شأنه أن يخلف الظنّ بعجزه وابتداله بدل تصوّره وسيطاً تواصلياً معرفياً منصفاً للنهى المتدبّرة بما يُفِظنّ العقل ويثري الفكر ويُفيد التّواصل ويُحيي اللغة معاً. ولتوطيد الاعتقاد المضادّ لهذه الفكرة الشائعة والباطلة في آن، يحسن مقاربتها كمفارقة مبطنّة أي بصفتها من الموضوعات السائدة قديماً مع جوانب الطّرافة الخفيّة التي يهّمنا استكشافها إحقاقاً لحقّ النّسق البديل المذكور ههنا خطأً. وكذا لأجل التّحقّق من أنّ آلية التبسيط لغرض التّعميم تعدّ من أرقى وأرحب إنجازٍ يقوم به منتج الخطاب بعيداً. شيئاً ما. عن دائرة المفاهيم المفعمة بالإبهام والتي تحيط ببعض الخطابات والنصوص العلميّة، وقريباً بما يستطاع من الجمهور الذي يفكر في إفادته على قدر اكتشافه بموضوع خطابه التبسيطي المتخلّل لكلّ سياقيّ تواصلٍ يحدث: فيكفّ عن مسaire عقدة الزعامة الفكرية لصالح المشاركة الثقافيّة ويخرج من منطق الجحود بفضائل خدمة البشريّة قاطبة، بما يكثّفه من جهودٍ في سبيل تقريب تلك المفاهيم التي كثيراً ما تُبتلى بأنواع الغموض، فتبدو مستعصية في بعض أشكالها المتراكمة والمنصهرة في العلميّة والمحمولة بلغة المنطق المتقيّف وبرموزٍ رياضيّة وجداول ورسوم صمّاء إلى حدّ الاستثقال.

هذا ومع مساعي التّعليل المحلّلة في هذا المطّلب، فقد يهّم إثارة. لاحقاً. ما لاحظناه ههنا من بعض العواقب المستفحلة. بل المساوي. الناتجة عن آفة تحصيل مقولة "انطباق الاسم على المسمّى". ولكن آن أوان اضمحلال العقبات والصّعاب بتطبيق الجملة الاعتراضيّة "لا مُشاحّة في الاصطلاح" ولا تشديد. ومن ثمّ نمضي إلى المطّلب الثّاني عملاً بحكمة: إنّما يُخرج من التّيه والحيرة. لا محالة. التّعرّض للمفهوم من بابه الواسع بعد بؤابة التسمية الضيقة²، وبعبور عتبة التحليل الصّرفي للمصطلح المكرّس في العربيّة من وجهة نظرٍ خاصّة معلّلة ومبرّرة علمياً وعملياً (مع الحاجة إلى الشّيع الفعلي³).

¹ كقضيّة الرّفص الذي نعود إليه والذي مني به التبسيط نظراً لابتداله وانعكاساته السلبية على النّمّو الذهني والفكري للمتشبّثين به بحسب ما سنعرّضه من حجج أصحاب هذا الرّأي ونناقشه منها.

² وهذا من شأنه أن يحيلنا إلى المقاربتين اللفظيّة والمفهوميّة وأثرهما في مقامات التبسيط. كما سنرجع إلى ذلك أدناه.

³ وذلك تزكيةً لمبدأ أحقية الشّيع على غيره وشرعيّته في باب الاصطلاح وشرعيّته في منطق الدّكر على الألسنة. ولا أتنبئ المقولة الشائعة المميّعة للفكر البشري قاطبة: «خطأ شائع أفضل من صواب مهجور» ولا أدعو إليها رغم شيوعها؛ لأنّ الصواب (مع نسبيّته) لا يُهجّر إلّا إذا لم يعدّ صواباً. أمّا ما دام داخلاً أو مُدخلاً في باب الصّواب فليس أ صوب من إحيائه ولفت الانتباه إليه وجعله بديلاً لما يبدو أنّه حكيم عليه بأنّه خطأ شائع (أم أنّ الكلمات تقول. وتُقول. ما لا يوجي بالحقيقة ولا يعكس الواقع ولا يدعو إلى "كلمة" حق). ذلك أنّ الأنساق إنّما تُعتمد في ضوء التسميات التي لا يراد بها باطلٌ إلّا وأبطل، وتتولّد هذه مع مجاري تيار وضع الأنساق (paradigme) ومجاريته. ثمّ إنّ مقولة "لا مشاحّة في الاصطلاح" المستند إليها أعلاه تتعارض مع ادّعاء تقديم الخطأ على الصواب مهما تكن نسبة شيوعه والتشّيع به. فالأحرى أن تراجع العبارة بالتصحيح "ما يبدو أنّه خطأ وهو شائع أفضل مما يبدو أنّه صواب وهو يبدو مهجوراً. فإعمال هذه المتتالية تقدّم حلولاً ضمنيّة قدرهما عظيم في حال التّصوّر في الأقلّ.

2.1.1 من ناحية الصِّرف (مصطلحاً)

رُبَّ مشكلاتٍ واقعةٍ . لا مفرَّ . على مستوى الاستعمال اللغوي، يمكن تفاديها أخذاً بمقترح تسمية المفهوم المقصود . خلال عرضنا هذا . بـ (التبسيط العلمي التعميمي)، بمعنيّة ما يقدّمه من بدائل الاستعمال المتأقلمة في مختلف السياقات، وهي المختصرات المضبوطة في هذا التسلسل العقدي:

▶ خطاب التبسيط العلمي التعميمي ⇐ الخطاب التبسيطي التعميمي ⇐

▶ الخطاب التبسيطي ~ الخطاب التعميمي

⇒ التبسيط العلمي ~ التعميم العلمي.

⇒ (التبسيط) / (التعميم)

وتترأى لنا حسنات هذا المقترح في ما يأتي: 1. يخلّصنا من وطأة العطف الذي يشبّت المصطلح (خطاب التبسيط والتعميمي). 2. يختزل موضوع التبسيط . أولاً . وهو العلم / المعرفة / البيانات / النظريات / التطبيقات = مفعولاً به مضافاً إليه كمقولاتين نحويتين (صرفيتين تركيبيتين) هامة في مسألة العمل النحوي التي تعتمد عليها الإضافة أو تلغيمها (ظاهرة الإلغاء في النحو العربي). 3. يسبق بمسار التبسيط الذي يدلّ عليه مصدر فعل بسّط المزيد الدالّ كما رأينا على البسط / النّشر (العلاقة الرياضيّة المنشودة ثنائياً تقابليّة تحمل قيماً مفهوميّة غزيرة وعزيزة على حيث العامل المشترك هو المفعّل وليس القاسم الفاصل = علاقة التناظر). من أمثلة المشكلات اللغوية التواصلية التركيبية المخلّة بالنّظام المعرفي والتي يحلّها هذا المقترح: أ. مشكلة الإضافة مع الاحتفاظ على العطف. في العربية = خطاب التبسيط والتعميم. ب. مشكلة. وعلى الرغم من كلّ ما سبق، فإنّ المقترح لا يخلو من بعض العيوب وعلى رأسها كون التسمية مركّباً إضافي نعني يتكوّن من ثلاثة لفظات (مونيمات). أمّا التعقيب على هذه السمة السلبية، فبالذّكر أنّ المصطلح بسيط ومركّب في العربية. حسبنا اعتياده لكي نتقبّله. ولا نعدم التراجع عن مقترحنا هذا في حال عثورنا على استعمالٍ أنجع.

2.1 في المفهوم ورواجه الدّراعي

بعد هذه الوقفة في محراب التسمية نستخلص نفحاتٍ لصالح المفهوم. وفي مستهلّ هذا التعريف . ولتفادي مشكلاتٍ مرتقبة على مستوى الاستعمال اللغوي . التركيبي خاصة¹، نقترح تسميته (التبسيط العلمي التعميمي)

¹ ونرى حسنات هذا المقترح في ما يأتي: 1. يخلّصنا من وطأة العطف (خطاب التبسيط والتعميمي). 2. يختزل موضوع التبسيط أولاً وهو العلم / المعرفة / البيانات / النظريات / التطبيقات = مفعولاً به كمقولة تركيبية هامة في مسألة العمل النحوي التي تعتمد عليها الإضافة أو تلغيمها (ظاهرة الإلغاء في النحو العربي). من أمثلة المشكلات اللغوية التواصلية التركيبية التي يحلّها هذا المقترح: أ. مشكلة الإضافة مع الاحتفاظ على العطف. في العربية = خطاب التبسيط والتعميم. ب. مشكلة. وعلى الرغم من كلّ ما سبق، فإنّ المقترح لا يخلو من بعض العيوب وعلى رأسها كون التسمية مركّباً إضافي نعني يتكوّن

عملاً بما جاء أعلاه (1.1). ولفائدة التبسيط ننتقل من التعريف الوارد في القاموس الفرنسي (*Le petit Robert*) الذي يعتبره « عملاً يقوم على تكييف معارف تقنية وعلمية بحيث تصبح في متناول القارئ العام »¹. ولكي نستبين معالم هذا التكييف أكثر ننتقل من بسط التعريف نحو نشره من ثلاثة مناظر منهجية: 1. منظور شركاء هذا التبسيط 2. غاياته 3. المستفيدون منه. وفق التفصيل الآتي.

1.2.1 من منظور شركاء التبسيط العلمي

يُقصد بالتبسيط العلمي التعميمي العملية التحسيسية التي يمارسها. بشكلٍ أو بآخر. كلٌّ من المعلمين في الصفوف المدرسية، والإعلاميين عبر وسائل الإعلام، والخبراء بما يصدر عنه من الكتب العلمية ويحررونه من المقالات التبسيطية التعميمية التي تضطلع بنشر المعرفة وتوعية الرأي العام حول الكم الهائل من نتائج العلم ومنجزات العلماء في شتى المجالات العلمية والتقنية. لهذا فلا تعد هذه العملية التحسيسية التوعوية المعتمدة هذه المصادر الثلاثة نوعاً من السلوك التعليمي أو. كما يسميها جويل دي روسني (Joël de Rosnay). « بيداغوجيا مكيفة لمختلف طبقات الجمهور الفسيح، تُستعمل فيها سجلات وأعراف مرتبطة بالمفاهيم العلمية المستهدفة بالتبسيط، وتُشغل وسائل متواشجة وتابعة لبعضها البعض، على غرار: وسيط الكتابة والتحرير، والسمعي البصري، والحاسوبيات التفاعلية، والنقاش والحوار. فالتبسيط بالنسبة إليّ [يواصل صاحب المقتبس] ترويض وشكل من التربية والبيداغوجيا »².

ذلك أنّ مكانة البيداغوجيا المدعّمة بسند التعليميّة هذه تُعزّزها حقيقة مفادها أنّ لكتابة العلوم بصيغة شارحة للغتها المتخصصة تستدعي من المتطلّبات ما تحدّد بها على أنّها عمليات تحويليّة وطرق ملتوية خاصّة في استخدامها للاتّصال والنّقاش المسخّر كلاهما من أجل توفير أكبر عددٍ ممكنٍ من المعلومات العلمية لفائدة الفرد أيّاً كان³، وإحالة هذا الأخير على مصادرها المختلفة إلى أن اقتضى الأمر تدوين موسوعاتٍ في موضوعاتٍ علميّة شتى وتنصيب متاحف وتشييد مكتبات وفتح مدارس وبناء جامعات؛ غرضها إحداث الاستئناس بين القراء والمفاهيم العلميّة، من غير الإغفال عن حقيقة أخرى مؤدّاه أنّ « المهارات المطلوبة لأداء معظم المهن والأعمال إنّما تُكتسب في ميادين العمل الفعلي »⁴. لهذا فإنّ ثقافة الشركاء العاملين في ميدان التبسيط العلمي تتوقّع رصداً لغويّاً جسيماً وموثوقاً فيه ليدعم مسار رصدهم للمعرفة العلميّة بنزعة استقصائية وبجانب من الانتقائية التي

من ثلاثة لفظاتٍ (مونيمات). أمّا التعقيب على هذه السمة السلبية، فيالذّكر أنّ المصطلح بسيط ومركّب في العربية. حسبنا اعتياده لكي نقبله. ولا نعدم التراجع عن مقترحنا هذا في حال عثورنا على استعمالٍ أنجع.

¹ Le Petit dictionnaire *Le Robert* de la Langue Française: dictionnaire alphabétique et analogique de la langue française. Ed. Dictionnaires le Robert, Paris, 2004, p.2812.

² Joël de Rosnay, Op. cit. p.08.

³ يُنظر: Pierre Lerat, Langue de spécialité, Ed. PUF, Paris, 1995.

⁴ جيروم كيغان، الثقافات الثلاث: العلوم الطبيعيّة والاجتماعيّة والإنسانيّات، ترجمة صديق محمد جوهري، سلسلة عالم المعرفة (408). المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب (الكويت) بالتعاون مع المركز القومي للترجمة (القاهرة)، يناير 2014، ص.326.

سنحسبها أدناه، أي بما يتلاءم ومستوى التقدم العلمي وينسجم وروح العصر. من جهة، وبما يؤهلون به في سبيل تفكيك شفرات العلماء وتقريب ألغازهم وربطانهم إلى السواد الأعم من مختلف الطبقات الاجتماعية في طبق التناول المستساغ. من جهة ثانية.

2.2.1 من منظور غايات التبسيط العلمي

من المعلوم أنّ معظم الوسائط والمناسبات المشار إليها أعلاه تُسدَى خصيصاً إلى عيّنات منتقاة سلفاً¹ على غرار مثلاً. فئة الأطفال والشباب الذين يعزّ التخصّص الدقيق في مثل أعمارهم، وكذلك يتعدّر عليهم متابعة الدراسات المرتبطة بالعلوم الوعرة دروؤها في مثل هذه المرحلة الحرجة بدون الابتداء بتلقين الأبجديات الأساسية المتعلقة بالفنّ المستهدف: وهو من اختصاص التبسيط العلمي (المستعصي) بامتياز؛ ولاسيّما في حال انتفاء سبل التّكييف اللّغوي ذي المستوى المطلوب من حيث المرونة والبساطة والعمق في أن. ناهيك عن كون التلقّي العلمي بمثابة عمل جماعي واجتماعي يلعب التفاعل فيه دوراً لا يقلّ أهميّة، بالإضافة إلى ضرورة نسج العلاقات التي تتقابل وتتفاضل المعرفة المنعكسة في مراهاها العاكسة. وهو ما توقّره هذه الوسائط الطّبيّعة، وتكرّسه المناسبات الترفهية الحيّة والمحيّنة للنصوص والحوارات العلميّة والمتزامنة مع ما يُستجدّ في باب العلوم². بل بالكاد تتحوّل " العروض " العلميّة إلى مقامات الفرجة والاستعراض، ما يدعوننا إلى التأمّل في جلسات المناقشات التي تُعقد حول الأطروحات الأكاديمية، وكذا ما يقدّم من المداخلات العلميّة في الملتقيات تحت أجواء التصفيقات العجيبة علامة على " الإعجاب " الانفعالي طبعاً؛ وذلك نظراً أيضاً إلى الفضل الذي يغطّيه استيعاب المفاهيم الجوهرية للعلوم والفنون والتّقانة في إنماء الدّافعية نحو التآلق الذي يرنو إلى الحدّ من التخلّف والفقر والانزواء والعطالة والبطالة، وعلى سبيل تمكين المواطنين من الإسهام بصورة فعّالة في خلق فرص النّجاح وافتعال عمليات التّنمية الاقتصادية. ما حدا إلى تكريس هذا الهدف التّبيل في المناقشات والقرارات المتّخذة والمتعلّقة بميدان العلوم.

مع أنّ هذا الاستيعاب مشدود إلى تذليل الصّعب التي قد يُتوهّم أنّ المتسبّب فيها حشدٌ من المصطلحات التي. ومع ذلك. ليست طبيعتها في آخر المطاف سوى لغوية: ما يعني أنّها لا بدّ كانت. ولا تزال. مجرد كلمات أو أدلّة لغوية لا تزيد عن كونها ذكّرت فقط بوظيفتها المرجعية والموجوديّة الزّائدة على باقي معجم اللغة³. « وقد انتشرت هذه الكلمات بطبيعة الحال على هذا النطاق الواسع بفضل تقدّم وسائل الإعلام والاتصال التي ساعدت على سهولة التدقّق المعلوماتي. وبعد أن كانت هذه المصطلحات والمعلومات حكرًا على فئة متميّزة من العلماء والأكاديميين المتخصّصين في المجتمعات المتقدّمة علميًّا، وتكنولوجياً، شاعت حتى في المجتمعات القبلية المتخلّفة، التي كانت

¹ أي تنطلق من فرضيّة مؤداها أنّها قد تجد تجاوباً وإقبالاً كما يمكن أن تصادم بعزوف ونفور، ما يحدها إلى بذل الجهود على مستوى شدّ الانتباه والإعجاب والإمتاع والإثارة.. الخ.

² حتّى أنّ في الجزائر هناك مناسبة رائعة اسمها يوم العِلْم (16 أفريل)، لولا أنّ الأوصياء والأولياء يعرفون قيمة هذا اليوم..

³ وهما وظيفتان عزيزتان على المصطلحيات. يُنظر: يوسف مرقان، في تعدّد أبعاد المصطلح، مجلّة اللّغة العربيّة، ع. 29، المجلس الأعلى للّغة العربيّة، الجزائر، 2012، (ص. 35. 76)

حتى عهدٍ غير بعيد تستمدّ كلّ معارفها ومعلوماتها من الكبار عن طريق الرواية الشفهية إلى أن عرفت طريقها إلى الراديو ثمّ التليفزيون ومن بعدهما الفيديو. وظهر نتيجة لذلك ما يمكن اعتباره لغة مشتركة بين معظم مجتمعات العالم من ناحية، ومختلف قطاعات وشرائح المجتمع الواحد من ناحية أخرى¹. بحيث يتوسّم في هذه اللغة المشتركة دور المدخل إلى المفهوم المستقدّم والمرجع الذي نشأت من صلبه كلُّ التنوعات والاشتقاقات التابعة. وكذلك من خلال تقدير وضعيّة الوساطة بين العلماء والتقنيّين من جهة والمتطلّعين إلى المعرفة من المتعلّمين وعامة النّاس المستعملين والمستهلكين والفضوليين. من جهة أخرى. وخاصّةً إذا عرفنا أنّ هناك من لا يزال يعتبر العلميين والعلماء والفنّيّين والتقنيّين لا يُتقنون التواصل بمفهومه المغرض أي لا يحسنون إيصال رسائلهم العلميّة إلى الجمهور الواسع، بل يحدث التّضيق التخصّصي في مجال تبادلاتهم اللفظيّة وغير اللفظيّة². ولعلّ ذلك يرجع إلى نأيمهم القليل أو الكثير عن ممارساتهم الخطابية التي كادت أن تنقطع عن الجمهور الواسع. وهذا بحسب التّحديد الذي قدّمه ميشال فوكو (Michel Foucault) لمفهوم الممارسة الخطابية وهو يحصره في مجموعة من القواعد الخفيّة والتاريخية التي تتحدّد دائماً في الزمان والمكان، والتي تعيّن، في فترة معينة، ولرقة اجتماعية واقتصادية وجغرافية أو لسانية معيّنة، شروط ممارسة الوظيفة التّواصلية³. وهي لا تنأى من هذه الناحية عن مفهومي التعاقد التواصل والوضعيّة التّواصلية اللّذين سنأتي على عرضهما أدناه.

3.2.1 من منظور المستفيدين من التبسيط العلمي

هكذا، مع العلم أنّ المستفيدين من التبسيط العلمي. كما سبقنا ببعض الإشارات. شريحة عريضة من الجمهور الذي يقلّ فيه عدد حاملي الشهادات، غير أنّهم من المتوقّع أن يكونوا قد اكتسبوا في الصّف. أو عصامياً. بعض المبادئ المفيدة في كفيّة قراءة نصّ بسيطٍ على الأقلّ، وكذا نزرٍ قليلٍ من فنيات تناوله وفهمه ولو سطحياً.

كما يندرج في خانة المستفيدين جميع الأفراد الذين يغيب عنهم الشيء الموصوف علمياً بما تتعدّر عليهم مسالك التجريب مما يمكن لهم أن يُعاينوه منها وما لا يعيّنهم من شأنها. وفي هذا الإطار يعدّ كلّ من عزّ عليه خوض غمار التجربة والاختبار جزءاً من هذا الجمهور العريض. على الرّغم من إمكان تخرّج بعضهم من الجامعات والمعاهد والمدارس العليا برصيد من معرفة لا بأس به وبما حصّده من قبيل تكوين علمي قد لا يكفي ليكفل لهم سبل الرقي إلى مصاف الرّاسخين في العلم.

ويجدر التّنويه هنا بما يكتسبه الأدب. هو الآخر. من حقّ في التبسيط العلمي وفضله في حذقه لفنون نشر العلم. كما يأتي أدناه. من باب تجسيد صور الواقع، وتيسير الولوج إلى عالم المصطلحات والمفاهيم العلميّة. وذلك بفضل

¹ أحمد أبوزيد، هل تقوم لغة عالميّة واحدة؟، ضمن المعرفة وصناعة المستقبل، سلسلة كتاب العربيّ (61)، وزارة الإعلام (مجلة العربيّ)، الكويت، 15 يوليو 2005، (ص. 14. 23)، ص. 14.

² يُنظر: يوسف مقران، في سبيل تكريس الملكة التّواصلية، دوريّة الممارسات اللّغويّة، ع. 11، مخبر الممارسات اللّغوية، جامعة مولود معمري، تيزي. وزو، 2012.

³ يُنظر: Michel Foucault, *Archéologie du savoir*, Ed. Gallimard, Paris, 1968, p.153.

السرد العلمي الذي يتصرف به كاتب النصوص الأدبية، فُتْشِرِعَ عن طريقه أبواب الخصوصية أمام فضاءات عمومية تنتشر فيها المعرفة وتذاع في المشاهد التي يصفها، وبطول وعرض لوحات البطولات التي يُسندها إلى روادها الفاعلين وذوي الآثار في الحقول العلمية المتشعبة. وذلك كله في غياب الشيء والموضوع الواقعيين تحت مجهر الفحص العلمي الدقيق وبعيداً عن الرقابة الخبيرة المشهود عليها بالتقرير المحرر والمتناهي في العلمية والمستفيض في المعطيات¹.

وتمتد في النصوص الأدبية التي تخوض في الموضوعات العلمية آفاق الاستجلاء العلمي مما يرخّص للتأويل من سبل الإفاضة في زخم العلامات والسمات المنتجة للمعاني والدلالات والمفاهيم الملتفّ بها حول العالم والملفتة إلى الكون بأسره. لهذا التفتت بعض الدراسات إلى البعد السيميائي للنص التبسيطي الذي ينوّع فيه بين الحرف والشكل البياني والصورة واللون. مثله في ذلك ما يقوم عليه الخطاب الإشهاري حيث أضحى فيض كأس الإبداع في مساحاته الواسعة أمراً مشروعاً يؤكّده الجمهور نفسه. ونجد مثله أيضاً فيما يعيننا هنا من تسخير الأدب في التبسيط العلمي المائل فيما ينطوي عليه من المجازات والتشبيهات والاستعارات وفنون القول المراد بها تجسيد الظواهر العلمية وتقريبها إلى العقول باللغة التي تألفها هذه العقول الجماهيرية التي سعة كلّ مفردٍ منها لا يزال العلماء في حيرةٍ من أمرهم بسببها. وكلّما أفل رأيٌ حولها لقدمه ظهر آخرٌ في حديث يدهش أكثر مما يقنع.

ثم ليس يجهل المستمع فضل اللغة الموحية في تدعيم الفكر ولاسيما بما تمليه عليه من الصور وما تتركه في النفس من الانطباعات. والصور التي يتكرّم بها الأدباء تنبض حياةً بحيث لا يمكن الإغفاء من مطالبها بقدر ما يعترينا الملل من مطالعة الصور النمطية الجوفاء. وذلك لكون الأولى مشوّقة وممتعة بما يُضفي عليها من طابعٍ فنيٍ نغمي جمالي يتوافق مع روحانية بني آدم وأشواقه.

بالتالي فمن مساوئ التصرف التقصير في النصّ الأدبي وخطابه كقناة أصيلة برهنت نجوعها منذ قرون. بل يجب أن يُقرَّ بطابعهما القانوني كوسيط تبسيطيٍّ علميٍّ مخصّص لهواة الإبداع الأدبي الذين لا تستسيغ ذائقتهم نصوصاً ولا خطابات غيرها ولو في مقام التشبع العلمي. من هنا يبدو لنا المهرجانات والهدايا التي تمنح بخصوص تشجيع الإنتاج الأدبي أصبح من المؤلف أن يخصّص منها جزءاً معتبر لما يستحقّ تسمية "لإبداعات الأدبية العلمية" من المسرح والرواية وحتى الشعر بدون أيّ خجل بما أنّها ذات أغراض علمية نبيلة ثمّ نظراً لجمهورها المكون أساساً من فئتي الأطفال والشباب. وتستمرّ التظاهرات في هذا الشأن حتى أوشك أن تتحوّل إلى مهرجانات خاوية بفعل الموضة القاتلة التي قد تحوّلها إلى مهرجانات تترك المرء كمن اطّلع على حديقته خاوية على عروشها².

¹ يُنظَر: Roland Barthes, L'effet de réel, *Communications*, n° 11 (Recherches sémiologiques le vraisemblable), Paris, 1968, (p.84-89).

² ولكن كما يقول رولان بارت فالموضة إذا امتنع تبيهاً بالكامل نظراً لبعض أكاذيبها التي تعتمها جماليتها فلا تُدع كلّها لأنّها تحمل آيات صدقها وقد ينتفع الناس بها بل تنح سبل البحث في التاريخ والحفريات المتوغّلة في التراث والثقافة، كشأن البحث في تواريخ ظهور الأظرفة والألبسة. يُنظَر هذا التأكيد:

Olivier Burgelin, Barthes et le vêtement, *Communications*, n° 63 (Parcours de Barthes), Paris, 1996, (p.81-100), p.86.

بالطبع إنّ هذا الرأي قابل للمناقشة إلى حدّ طغيان الاعتقاد في صرامة المعرفة العلميّة . من جهة، ومجازيّة اللغة الأدبيّة . من جهة ثانية. ولا بدّ أن يشكّل هذا وجهاً من التعارض الذي لا يمكن مجانبته إلاّ عن عنجبيّة. غير أنّ الردّ على هذه المعارضة المتوقّعة هو بتذكير كلّ من اختار التوقّع في زاويتها الحادّة بضرورة مراعاة السياق الذي يعتدّ فيه بالأدب في سبيل نشر العلم . نكرّر ذلك للفائدة رغم أنف مقولة التكرار فن الحمار. وهو سياق التعلّم والتعليم الذي يتّسع للشّرح وتدقيق التفاصيل ويتمّ عادةً بمعيرة مورد بشري عاقل وعالم قبل تبوئه مكانة الأنبياء بالتشبيه.

وعليه، نكون قد تصفّحنا بعض الأسباب التي يقوم لوجودها واجب الارتكاز على المعلّمين والأساتذة والمكوّنين في إمدادهم بمراجع تساعد على تكوين ذخيرة علميّة يستمدّون منها مادّتهم العلميّة والمعرفيّة تسخّر في أداء واجباتهم المهنيّة فيما يخصّ تكوين تلامذتهم وطلبتهم وتوجيههم وتيسّر عليهم مهامّ التحقّق من سريان المعلومات وتتبع تطوّرات العلوم والفنون. وهذا ليس بيسير مقارنةً مع وضعٍ تندر فيها المراجع نظراً لقلّة العناية بفعل التبسيط العلمي الذي نعتبره من هذا المنطلق فعلاً ثقافياً بامتياز وعلامة على التقدّم الحضاري الذي تتحلّى به أيّ ثقافةٍ تضطلع بشؤونها.

2 التّبسيط العلمي بين التّحقير والتّبرير والوسطيّة والتأديب

1.2 عظمة الرهان العلمي وحقارة التبسيط العلمي

إذن نستنتج من التحليل السابق أنّ الرّهان ليس بالهين ولا يرضى بإمهال رفعه. لعلّ هذا - وعلى الرّغم ممّا تقدّم من الإيحاء - ما حدا ببعض الدّارسين إلى التأكيد على أنّه لا يستقيم التّبسيط ولا يمكن له أن يكون ناجعاً إلاّ إذا أسند إلى العلماء ذوي التخصص الدقيق بصفة خاصّة وحصريّة وبرهاناً حياً على أدائهم المنفردة: إمّا بوصف إنجازاتهم بأنفسهم أو بالحديث عن الإنتاجات والكتابات العلميّة لغيرهم من الأقران المعاصرين، والزلاء الغابرين من العلماء والأساتذة¹، سواء في سياقات التكوين أو في مقامات الإعلان عن نتائج بحوثهم المثمرة أو في صدد إجاباتهم عن أسئلة الإعلاميين في المقابلات الصحافيّة أو في العديد من المناسبات التي يُلتصقون فيها ويُستقدمون ويُستفتون، وحيث يحقّ لهم أن يطمحوا إلى أسى التّرقّيات بحصولهم على براءات الاختراع وأوسمة التفوّق العلمي الجزيئي والاستثنائي. وإتّما كان ذلك كذلك - بحسب رأي أولئك الدّارسين دائماً - بسبب خبرات هؤلاء الأخصائيين الأفاضل ونجاحاتهم في مجالاتهم المختلفة، وتحكّمهم في لغة العلم بشكلٍ أفضل وأعقل من غيرهم، وبدافع سعة

¹ ومعنا مثال عن هذا الصّنف ما ذكرنا به أحد الباحثين المصريين من فضلٍ للعالم أحمد زكي في نشره لما أسماه "الثقافة العلميّة" عربياً. وهو يذهب إلى أنّ فلاحه في هذا الشّأن إنّما تحقّق بفضل تخصصه ونبوغه علمياً مع تعاطيه للكتابة الأدبية التي ألهمته كتابة علميّة. يُنظر: محمد المخزنجي، فنون الأدب في مقال الثقافة العلمية: هل يسمر تأثير الدكتور أحمد زكي، ص. 330.

آفاقهم الخيالية ورحابة صدورهم الاستكشافية ورهافة حسّهم الإبداعي والتّقدي معاً، وباسم الملكية الفكرية في النهاية¹.

والحال أنّ هذا الرّأي ضعيف الحجّة رغم عدم تورّع أصحابه في توزيع هذه الأخيرة توزيعاً لانهائياً. وذلك . كما سنكشف لاحقاً. فإنّ قضية التبسيط العلمي من قبيل الشغل متعدّد ومتداخل التخصصات، ويقع في ملتقى طرق العديد من الأخصائيين الشركاء والمتعاضدين (منهم الاستيمولوجيون والإعلاميون والمعلّمون وعلماء الاجتماع والبيداغوجيون .. الخ، المدعّمون كلّهم بوصفات وخبرات المتخصّصين في المجال المعني بالتبسيط). وكشأن كلّ ميدان ذي بعدٍ متعدّد التخصصات والرهانات تنزل في رحابه اتّجاهات عديدة ديدانها التّكامل كما حرص على ذلك أشهر المقعّدين لنظرية المعرفة وهما كلّ من إدغار موران و².³ وإلّا كيف يتسنى للمتأخّفين العلمة والمعارض، وما يقام من المحافل والمهرجانات، وما يُنظّم من المسابقات (العلمية الشعبية) أن تضطلع نزاهةً وجدارةً بدور التبسيط العلمي؟ وكذلك فما شأن كآفة ما يُنصّب من المعسكرات الموضوعاتية ويُعصّر من المقولات والنظريات التي يُستخلص منها ما لا نهاية من التطبيقات الميدانية العظيمة بمختلف النوازع والاتّجاهات والأذواق، وما يُنصّب في بوتقة الخيال العلمي المحوّل إلى إسقاطات واقعية، وما يُلفت من الملتصقات الشبّقة، ويُنشر من المجالات العلمية التبسيطية الهائلة والمريحة، ويُبثّ من الحصص العلمية التلفزيونية والإذاعية في حلقات مروّحة، ويخصّص من الجوائز في سبيل تحسين المستوى العلمي تحت شعار ومبدأ التثقيف العلمي الممتع في أوساط جماهيرية متنوّعة. وعلى الرغم من عدم تجانسها بالفعل؟

وذلك إذا اكتفينا بمناقشة هذا الرّأي الذي ليس وحيداً في دائرة الآراء التي تنبذ "التبسيط العلمي" وتضعه في قفص الاتهام. ذلك أنّ هناك رأياً أكثر تطرفاً يمكن التعرّيج عليه لكونه يتنكّر لمسعى هذا التبسيط بعليّ واهية بالملق، على غرار ما يُزعم من تكريس التبسيط العلمي لحرمان عامّة الناس. وحتى المتعلّمين منهم. من المعرفة التي لا تصلح في صيغتها التبسيطية وبالتالي إبقائهم تحت سيطرة ممتلكي المعرفة ومحتكريها من الطبقة الأرستقراطية ذات النّفوذ والمراتب العليا ومحترفيها من الأساتذة أصحاب الأيدي الطولى؛ ذلك أنّ العلم ذو طابع طبّقي ونخبوي. كما سبق لبيار بورديو أن أفاض في هذه المسألة من منظور علم الاجتماع ولكن من غير أن يستنتج ما يدّعيه رواد فكرة رفض "التبسيط العلمي"، وهم يستشهدون بأرائه حول التفاوت الطبقي الذي تكرّسه المدرسة اجتماعياً بمداومة الرصيد الثقافي المتوارث جيلاً عن جيل. بحيث يستلّون هذه المقولة قسراً من سياقها لغرض تزكية موقفهم المضللّ من ظاهرة التبسيط العلمي فأخضعها لأهوائهم. وهو موقفٌ نلّفه متناثراً في كتابات

¹ يُنظر مسوّغات هذا الرّأي: Paul Caro, *La vulgarisation scientifique est-elle possible ?*, Ed. Presses Universitaires de Nancy (Coll. Les Entretien de Brabois), 1990, p.29.

² يُنظر: Béatrice Fleury et Jacques Walter, « Interdisciplinarité, interdisciplinarités », *Questions de communication* [En ligne], 18 | 2010, mis en ligne le 01 décembre 2012, consulté le 03 mars 2017. URL : <http://questionsdecommunication.revues.org/409>.

³ يُنظر: Patrick Charaudeau, Pour une interdisciplinarité "focalisée" dans les sciences humaines et sociales, in *Questions de Communication*, n°21, 2012,

عديدة. ذلك أنه إذا سايرنا بريق هذا المنطق، فحينما يعجز قارئ ما عن فهم نصّ علمي ما. بالتّالي. يلجأ إلى الخطاب التبسيطي متوسّطاً به ومتوسّلاً، بعد علمه أنّ هذا الأخير يشكّل مفتاح بعض ما استغلق من ذلك النصّ، أيّعي ذلك. إذن. أنّه انحطّ إلى أسفل السافلين في مستواه أم تحرّى التدرّج الذي يعدّ مساراً تعلّميّاً سليماً، بل ربّما قد يرجع ذلك الغموض الذي يكون قد اعترى النصّ العلمي إلى أنّ صاحبه لم يأخذ بهذا المبدأ التعليمي الأساس الذي يعتبر من أبجديات التعليميات وبالخصوص تعليميّة العلوم والرياضيات.

2.2 التبسيط العلمي والمبّرر الاستيمولوجي

وإذا رغبتنا في استحضار التبرير الاستيمولوجي نقول إنّه ليس يسلم من الأخطاء مناقشة المضامين المعرفيّة والنظريّات العلميّة والموادّ الفكرية بنفس اللّغة التي كُتبت بها أول مرّة. أو بتعبير أصحّ. بنفس الخطاب التبسيطي لا يستهدف الذي أنتجها في صفاء وكثافة وتركيز وبروح علميّة وثقة وثبات وبداهةً وبإثباتٍ مبرهن أو نفيٍ معلّل. فكما يقول موريس ميرلو بونتي (Maurice Merleau-Ponty):

« إنّ الطّريقة الوحيدة للتّفكير بالتّفكير هي أولاً أن نفكّر بشيء ما [وهو ما يحمله الخطاب العلمي كمضمون يختلف عنه]، ويصبح جوهريةً لهذا التّفكير أن لا يأخذ ذاته كموضوع [لهذا فالخطاب التبسيطي لا يستهدف الشيء بقدر ما يستهدف الخطاب العلمي فيبسّطه وينشره من باب التعريف والتثقيف والإحاطة والإفادة والإنارة في أن]¹. بل هناك من ذهب. تدعيماً لضرورة الفصل بين النّمطين من التّفكير. إلى أنّ المعرفة بما أنّها تنتج أنساقاً ومفاهيم في تجدد مستمر، فهي تنطوي على سلطة تقدّرها على إنتاج لغة موازية لهذه الأنساق².

وعليه، فهذا الشّروط فقط يمكن تحاشي تعكير الأفكار الذي يوشك أن يتسبّب فيه اختلاط لبوسها العلمي بزّيها التبسيطي، ولاسيما على إثر التّدخل في الصّلاحيات، وهو ما قد يزيد غموضاً في الوقت الذي يتوقّع أن يُكسبها سلاسةً ووضوحاً كرونق المياه (Limpides) بتحديد الحالتين مع إمكان الجمع بينهما أو التناوب في اعتماد هذه أو تلك. إذ لا يختلف الوجهان المتناظران نسبياً إلّا من ناحية ما يتطلّبه الخطاب العلمي من استقرار عوده ونمطيّته والإجماع المعقود حوله، ومن جهة المتلقّي الذي يتوافق على النّمط الثاني من حيث انفتاحه وكونه سديماً لا يمكن تمييزه إلّا بموجب ما يتوسّمه صاحب الخطاب التبسيطي من آيات الإقبال وعلامات التجاوب، فيقرّر حول طبيعة أسلوبه وعدد تعاريفه ودرجات تعقيد. أو تبسيط. مصطلحاته وأنواع التدرّج الممكنة في الشّروح والحوصلات والتطابقات والصياغات والترادفات والمجازات والتمثيلات والإحالات التي تستهدف كافّتها المفاهيم العلميّة المراد تقريبها إلى الجماهير بمختلف تنوّعاتها وتوجّهاته ومشاربها³.

¹ يُنظر: Maurice Merleau-Ponty, *La phénoménologie de la perception*, Paris, Ed. Gallimard (Coll. NRF / Bibliothèque des idées), Paris, 1945, p.453.

² يُنظر: Nicolas Adel, *Anthropologie des savoirs*, Ed. Armand Colin (Coll. U / Sciences Humaines & Sociales), Paris, 2011, p.193.

³ وهي ما سنضبطها أدناه.

وسيراً دائماً في اتجاه التبرير واستناداً أيضاً إلى صحّة قيام لغة خاصّة بالعلم، نستعين بوظيفة من وظائف اللغة وهي ما يمكن تلخيصها في " تفسير اللغة الطّبيعيّة لغيرها من أنظمة التبليغ"¹. إذ ننطلق من اعتبار العلم نظاماً من أدلّة مشفّرة فيها ما يعود الفضل فيه إلى تلكم اللّغة الطّبيعيّة في نسبتها الكبيرة، وفيها ما يعدّ من جنس ما يمكن وسمه بالتقابل مع هذه اللّغة الطّبيعيّة باللّغة الاصطناعيّة. فلا يضطلع بتفسير هذه اللّغة وتفكيك شفراتها سوى لغة أخرى تختلف عن هذه الأولى، فلتكن الخطاب التبسيطي².

3.2 الحذر والوسطيّة والتعليميّة في رفع تحدّي التبسيط العلمي

ولكن قبل طيّ هذا الموضوع المختلّف فيه نشير إلى أنّه هناك حتّى من كبار الفلاسفة من شكّك في جدوى التّبسيط العلمي بسبب باب الاستسهال والتسكّع الذي يفتحه أمام المترفين كما يؤثّر عن فولتير (Voltaire) نفسه إبطاله للتبسيط المفرط. على الرغم من تعاطيه النسبي له. وأخذ يقيّد نفسه بالحذر والتحقّظ حينما تصدّى لمناقشة كلّ من ديكارت (René Descartes) ونيوتن (Isaac Newton) وباسكال (Blaise Pascal) حول آرائهم العلميّة الفيزيائية والرياضية. بل الفلسفيّة. في موضوع " المادّة " وغيره. فعبر عن ذلك بأسلوبٍ فيه من السلاسة ما يغري ومن الصرامة ما قد ينفر. ومن ثمّ علّل ذلك بإقراره أنّ حدث التبسيط قد يؤدّي إلى وصف نفس الظواهر بفرنسا وإنجلترا ولكن بإطلاق حقائق مختلفة باختلاف المواطنين. وهذا بالطّبع تزييف وضلالة ناجمّين عن ابتذال المعرفة بفعل التعميم السطحي الذي اتّخذ منه موقف التحقّظ وكذلك لابتعادها شيئاً فشيئاً. تحت تأثير النقول التبسيطية. عن مصدرها وشرعتها السليمة³.

ويمكن ذكر من المفكرين المحدثين جورج ستاينر (Georges Steiner) وما عُرف به من موقف الحذر تجاه التبسيط المقيّد عنده بشروط أوضحها في كتاب مشترك مع سيسيل لاجالي (Cécile Ladjali)، محتفظاً على موقفه المضاد لابتذال المعرفة بفعل التعميم السطحي ذلك وناقش بإسهاب الآثار الناجمة عن الفتنازية والضلالة المصاحبتين. لا محالة. لحدث التبسيط⁴.

¹ فهكذا لا يمكن تعليم قانون المرور إلا عبر اللغة الطّبيعيّة التي هي أمرن وأكثر طواعيّة من قانون المرور نفسه الذي يعدّ لغة يتواصل بها السائقون فيما بينهم وبين هؤلاء والمأزّين، ولكن لا يضطلع بأكثر من التبليغ عن بعد وفق قناة متعدّدة الأبعاد (الحرف / الصّوت اللغوي وغيره / اللّون / الاتّجاه / الأشكال / الضّوء / الخ. وهو قابل للتطوّر والتعديل (خاصية الثبات أو نقيضها عند دي سوسير)، ولكن العلاقة فيه بين الدال والمدلول معلّلة في أكثر الحالات ولا تعد الاعتباريّة.

² يُنظر: يوسف مقران، مدخل في اللسانيات التعليميّة، كنوز الحكمة، الجزائر، 2013، ص.153.

³ يُنظر هذا الموقف الشائك ما عرض جزئياً في: Alain Niderst, Les Lettres anglaises de Voltaire : une vulgarisation méthodique et imprudente, *Revue d'histoire des sciences*, T.44 / n°3-4, Ed. PUF, Paris, 1991. (p.313-323), p.318-320.

⁴ يُنظر: Georges Steiner et Cécile Ladjali, *Eloge de la transmission : Le maître et l'élève*, Ed. Albin Michel (Bibliothèque Idées), Paris, 2003.

لهذا فقد عرف ديدرو¹ (Denis Diderot) بموقفه الميَّال إلى تحريي الكتابة العلميَّة المبسَّطة للمفاهيم الأكثر إغراقاً في التعقيد بحذرٍ حصيف، حتى جرى اسمه على الألسنة الشاهدة والدَّالة على فضله في نشر المعرفة والبيانات التي جمعها ووثَّقها وهو يترأس تحرير مواد موسوعة أطلق عليها "موسوعة العلوم والفنون والحرف"²؛ حيث انكبَّ على استبقاء مآثر عصره وتحصيل مفاخره بحماس شديد ومهارة نادرة المثال. ونشر من المقالات التبسيطية التي غمرها بتحليل مستفيض وبأسلوبٍ أكاديميٍّ هادئ. وعلى الرِّغم من غزارة ما تفرَّغ له من التبسيط فهو لم ينفصل ألبتَّة عما جمعه من آراء ومعارف وحقائق تنصبَّ كلها في قالب قضايا متفرِّعة من أوليَّات العلم وما انتهى إليه من أسباب ثقته به ومما هو خليق بأن يوصف بالصحة على الأقلِّ إلى حين عصره الذي استقرَّ قراره يومئذٍ من سند أخبار الكتب السالفة ذات النسب وثيق الإسناد.

هكذا وحيثما ورد ذكرٌ لفعل "نشر المعرفة". أو بالأحرى حوصلة البحث العلمي. تطفو قناة "الكتابة العلميَّة" بجدارةٍ إنباءً بهمَّ التعميم المرغَّب فيه دون إسهابٍ ولا تسيُّب. ولكن يبدو أنَّ تمرکز الكتابة العلميَّة هذه في دائرة كمشة من الأخصائيِّين من شأنه أن يحدِّ من آفاق ذلك النَّشر فيُقتضى على مجال التعميم قبل انبساط إمكاناته وتيسير وسائله. وهو ما لا يُلقى له تفسيرٌ سوى الإصرار على الرِّغبة في الحصر بدافع أنانيَّة الاحتكار. من جهة، واستثقال خوض الغمار. من جهة ثانية. ومن غير الإيهام بأكثر ما يحتمله هذا الحكم نرى أنَّ ما انزاحت إليه تلك الكتابة من أنواع التسميات التي تنمَّ. من جهة ثالثة. عن وعيِّ في الممارسات الخطابية والنصيَّة لأسرة العلماء، على غرار: التحرير العلمي والتوثيق العلمي، وحتى الترجمة العلميَّة، قد لا يكفي لتبرير قناعة توفَّر جوِّ من التعميم والتبسيط العلميِّين.

ويتَّصل التوثيق العلمي بما يعرف بـ "البحث الوثائقي" الذي يتناول التحريي السياقي والتناسي في كتابات ذات طابع تخصصي أي ترتبط بمجالات متخصصة ودقيقة. كما يضطلع الباحث الموثق بمهمة مراجعة المقالات العلميَّة والخطاب التبسيطي والوثائق التي يحررها أهل الاختصاص. وهو ما يهدف إلى استيعاب محتوى الموضوع المعالج والاستئناس بأساليب الأخصائيِّين وخطاباتهم، وبمجرد الاحتكاك بمقامات تخاطبهم. علماً أنَّه من شأن هذا الضرب من البحوث المكتبيَّة والميدانيَّة التسجيليَّة. في أن. أن يسهِّل على المتعلِّم النَّاشئ. مثلاً. اكتساب رطانة التخصص علاوة على معرفة طرق إيجاد المصطلحات المتداولة في المجال المطروق وكيفيَّة استخراجها من مضانها. وكذلك هو حرِّيُّ بأن يحميه من شركاء المعجمات المزدوجة التي يُكتفى فيها بإقامة تقابلات خارج السياق وبعيداً عن مقام التواصل العلمي. كما يظهر فضل التدوين والتوثيق فيما ييسِّره في اعتماد آلية البحث النصي والسياسي

¹ وهو فيلسوف وكاتب وموسوعي فرنسي (1713. 1784). وهو أيضاً مسرحي وكاتب مقالة، من قادة حركة التنوير.

² وهي الموسوعة الفرنسيَّة المنشورة من 1751 إلى 1772 تحت إدارة ديدرو والأمير (Alembert) تحت تسمية *L'Encyclopédie ou Dictionnaire raisonné des sciences, des arts et des métiers*

والتناسي (نسبةً إلى النص الرابط / Hypertexte). وهو ما يتجلى أيضاً وأكثر عندما يتعلق الأمر بمصطلحات يبدو أنها غير مدونة في المعجمات المصطلحية والمفهومية والموسوعيّة.

4.2 التبسيط العلمي حلقة وصل بين الأدب والعلم

إنّ الأدب وعاءٌ وفكرًا وموهبةً وفناً وتصورًا لا يعدم المعطيات العلميّة حتى اتّخذ منه إطاراً للتأمّلات الفكرية بكلّ منازعها، وقاد دعوات التّحديث والحداثة في أعزّ أمجاده وفي أكحلّ أزمانه، واستعيرت من نصوصه ألوانٌ وأشكالٌ من فنون التعبير. فهو منذ الإبداعات الأولى التي خرجت من مدرسته أبدى الاستعداد لأن يأخذ على عاتقه مهمة نشر العلم ومواكبة مسيرته الطويلة في إرهاباته وفي جميع أحقابه الخامدة والنّاضجة. وللتاريخ أن يشهد ولو بنزرٍ قليل على نبوغه في هذا الدور الذي أدّاه بوصفه من سواعد المبتكرين الحقيقيين من العلماء.

بيد أنّ ما حدث في القرن التاسع عشر طريف وغريب في آنٍ؛ إذ ذهب بعضهم في أوروبا¹ إلى القول إنّ الطفرة العلميّة التي أخذ يشهدها مع بدايته، من شأنها أنّ تدفع الأدباء في المستقبل القريب. إلى احتراف العلم المنتصر والتبرؤ من مواهبهم إلى حدّ مغادرة نشاطهم الأدبي. ولكن سرعان ما تبين لهم بطلان هذا الادّعاء وسخافته أضغاث أحلامٍ عاقرة، بل حدث تطوّر معاكس. شيئاً ما. لذلك الاتّجاه، بحيث صار الأدب هو الذي يُسخّر في خدمة العلم بقلمه المهتدي بنور العقل والمتقى بحكمة من ضلال الخيال المفرط. وليس أدلّ على ذلك من معاينة ما توقّره قرائح الأدباء من الاستعمالات المجازيّة وتولّده من الكلمات ذات الإيحاءات الخاصّة وتنحته أفكارهم من تصوّراتٍ عن الوجود هي من أرومة التفكير البشري وتعدّ أدلّة حيّة على عبقرية أصحابها الذين ليسوا سوى مبدعين عرفوا المجد ثمّ كادوا أن ينزلوا إلى الحضيض تماماً تحت انبهارهم المعنوي الشّديد بإنجازات العلوم التي كادت أن تُسكتهم بينما حالفت روادها في تحقيق أمجادهم². حتى صار هؤلاء يستعرون منهم أشكال السرد والشرح العلمي الذي تطوّر إلى شكلٍ كتابيٍّ ما فتى يحظى بأنواعٍ من التفرّيع.

ثمّ وقعت المصاهرة بين المجالين المتكاملين. مرّةً أخرى. في ظلّ ما عرفه التّقد الأدبي من استقطاب المناهج العلميّة في دراسته للأعمال الأدبيّة وتحليلها وتقييمها. فظهر في ضوء هذا التّفاعل أسلوبٌ جديدٌ متّحّه خطباء التّبسيط العلمي بهمّ التّعامل معه باستقراء أوجه استعمالاته في ثنايا التّعبير الشفاهي وفي صلب التّعبير الكتابي. واليوم نشهد تحوّل وسائط التّبسيط العلمي إلى قبلة للعلماء أنفسهم يتولّونها لأغراض النّشر فيها والتعريف بأعمالهم حتى عمد البعض إلى تأسيس مواقع إلكترونية يبيّثون فيها إنتاجاتهم الفكرية بذلك الأسلوب العلمي المتأدّب الذي يستأثر به منطق التّبسيط العلمي في كلّ اللغات التي لم تحجم عن التّعاطي معه.

¹ وهم المدعوون (Les Saint-Simoniens).

² يُنظر: Yves Jeanneret, Le choc des mots : pensée métaphorique et vulgarisation scientifique, *Communication et langages*, n°93, CELSA Paris-Sorbonne, juillet-septembre, 1992, p. 99-113.

3 خطاب " التبسيط العلمي " و(التعاقد¹ التواصلي)

يقول باتريك شارودو² (Patrick Charaudeau):

« لا يمكن تمييز خطاب " التبسيط العلمي " بهذه الصّفة سوى من حيث صلته بما يمكن أن يُحدّد على أنّه خطابٌ علميٌّ (DS). وبالتالي يُنطرح .ههنا .سؤالٌ أوّليٌّ من أجل معرفة إذا ما يمكن اعتبار خطاب التبسيط بمثابة ترجمة، أو إعادة صياغة، أو إعادة تشكيل الخطاب القاعدي الذي ليس سوى خطابٍ علميٍّ³ .

ولمّا قام التّبسيط العلمي . وهو يتكفّل بنشر المعارف في وجه جمهورٍ واسعٍ جداً . ليظهر خارج جماعة المتخصّصين التي نعلم أنّ المصطلح العلمي يستعصي على الفهم . نوعاً ما . إلّا في دائرتها، فهو بالتالي من شأنه أن يتجلى . وفق قيده التعريفي . ضمن وضعيّة تواصل متميّزة عن تلك التي يظهر فيها الخطاب العلمي، وإلّا فما الغاية من تبسيط هذا الأخير ؟ وهو السؤال الذي يُصّر باتريك شارودو على طرحه؛ بحيث يمكن اقتباسه في هذا السياق لمعرفة خاصيات الوضعيات التي تظهر فيها الخطابات العلميّة وخطابات التّبسيط العلمي.

ويمكن الإجابة عليه . من جهتنا . أوّلاً برفع لبس التعارض بين التّمطين (الخطاب العلمي في مقابل الخطاب التبسيطي). وذلك بالتذكير بداءة بأنّ فعل الاصطلاح . ومع سيطرة الآليات المنوّه بعضها أعلاه⁴ . لا يُستبعد بالكلّ لحساب ما يُعتقّد من واجبات التّبسيط العلمي. وهذا يعود إلى ما أشرنا إليه أعلاه⁵ وما يمكن الإفصاح عنه بدافع " حاجة الإنسان إلى المصطلحات لتسمية الأشياء والمفاهيم"⁶ . وقد شرع هذا الأخير في حدث التسمية بدءاً مما وضعه من أدواتٍ عمليّة انطلاقاً من أبسطها إلى الأجهزة الضخمة والدقيقة، والمعقّدة في تركيباتها، والمحكمة في أنظمتها، والمحدّدة وظائفها، وذلك على إثر ما أملت عليه الظروف الطّبيعيّة القاسية التي سخرها في وجهها معبداً لنفسه الطريق نحو التّقدّم العلمي والتّطور التّقني، وقد بدأ يهتدي إليها بينما كان في صراعٍ مع هذه الطّبيعة التي ما انفكّ يحاول التّحكّم فيها، فوضع يده على بعضٍ سننها واكتشف مصادر الطّاقة، وتعاقت الاختراعات العجيبة، فعرف بذلك تحسّنا في معيشته، وتنامت متطلّباته على قدر ذلك التّحسّن أو أزيد، كما تعمّقت تصوّراته للحياة

¹ نفضّل لفظة (التّعاقد) على (العقد) لأنّ في الصّيغة الأولى دلالة على « المشاركة والتبادل » الحادثين بين أطرافٍ ما. وينجم ذلك التعاقد ذاته عن ذئيك (أي المشاركة والتّبادل).

² وهو باحث وأستاذ جامعي فرنسي؛ متخصّص في مجال تحليل الخطاب الإعلامي والسيميائيات والتعليميات، واللسانيات قبل كلّ شيء. له منجزاتٌ علميّة ثريّة في هذا الصدد. نحيل القارئ إلى مرجعيّته المجموعة في صفحات موقع إلكتروني هذا رابطته: <http://www.patrick-charaudeau.com/>

³ يُنظر: P. Charaudeau, Le contrat de communication dans une perspective langagière: contraintes psychosociales et contraintes discursives, in *Psychologie sociale et communication* (dir. M. Bromberg et A. Trognon), Ed. Dunod, Paris, 2004, Consulté le 16 mars 2017 sur le site de Patrick Charaudeau - Livres, articles, publications, URL: <http://www.patrick-charaudeau.com/Le-contrat-de-communication-dans,89.html>.

⁴ أي: ترجمة، أو إعادة صياغة، أو إعادة تشكيل الخطاب القاعدي .. الخ، وسيأتي إيضاحها أدناه.

⁵ ينظر: 2.2.1 من منظور غايات التبسيط العلمي.

⁶ ينظر: Robert Dubuc, Manuel pratique de terminologie, Linguatex (Montréal Québec, I)/ CILF (Paris), 1980, p.13.

والعالم والإنسان ذاته، وأصبح يتفلسف في معتقداته وإيمانه بالله وبوجودٍ آخر، فنتج عن ذلك كلّه ضرورة العمل على تكييف لغته مع كثافة الرّصيد المعرفي، وتكاثر الموجودات. فأمعن في التخصّص والتفرّع الذي أحدث نوعاً من التعقيد في التواصل بين نخبة تتحكّم في مقاليد التخصّص وفئة أخرى أمرها يحتاج إلى التيسير والتبسيط والتعميم حتى اقتضى الاحتكام إلى ما يدعى التعاقد التواصلي الذي يدعونا باتريك شارودو إلى تسخيرهِ قائلاً:

« فإذا صحّت تبعيّة خطاب التبسيط العلمي، نظراً لخاصياته التوعّية، لشروط الوضعيّة التواصليّة التي يندمج فيها، فالسؤال يُطرح لأجل تبين صحّة قيام ضرب واحد من الوضعيّة، أو العديد من الوضعيات، ومن ثمّ لتبيين - إذن - مدى قيام نمط واحد أو أكثر من الخطابات الموكول إليها مهمّة التبسيط العلمي. للإجابة على هذه الأسئلة، سنعمد نموذج "التعاقد التواصلي"، الذي يخضع هو بالذات للكيفيّة التي يمكن للوضعيّة التواصليّة أن يتمّ تصوّرها بمعنيّة كافّة العناصر العضويّة المتّصلة بها»¹.

1.3 عند مفهوم التعاقد التواصلي

يعرّف باتريك شارودو (التعاقد التواصلي) على أنّه « مجموع الظروف والشروط التي يتحقّق فيها كلّ حدثٍ تواصليٍّ (مهما يكن شكله: شفاهي أو كتابي أو أحادي التلقّظ "مناجاة" أو متبادل التلقّظ "حوار"). وهو ما يسمح للشركاء في عملية التخاطب بأن يتحدّوا. كلّ في مقابل الآخر. باعتماد ملامح شبيهة ببعضها البعض بحيث تحدّدهم على أنّهم فاعلي هذا الحدث التواصلي (الهويّة). كما تخوّل لهم التعرّف على أهداف هذا الحدث الذي يحددهم بدقّة متناهية (الغاية)، ويسعفهم على التفاهم حول ما يشكّل موضوع التخاطب (الحديث) وعلى اعتبار وجهة المقتضيات المادية التي تحدد هذا الحدث (الظروف)»².

فهكذا يبرّز الوضعان المتلازمان المتمثّلان في الوضعيّة التواصليّة والتعاقد التواصلي على أنّهما شيءٌ واحد. وذلك بسبب ما يفهم من تسميّة (التعاقد التواصلي) على أنّها تشير إلى جملة العوامل المتواترة، والتي تظهر - حتماً وعادةً وبالاعتیاد - في مظاهر تسمّى شروطاً أو ظروفًا هي التي تميّز أيّ وضعيّة تواصليّة على حدة.

وبينما يُعيّن اصطلاح (الوضعيّة التواصليّة). خلاصَةً لما بلوره باتريك شارودو. جميع ما تتشكّل منه شروط التبادلات اللفظية وغير اللفظيّة التي ستنتج لاحقاً ما يتسمّى "التعاقد التواصلي" المنتوج عن ذلك الاعتياد والتواتر؛ ويتدخّل في تركيبها كلّ من الشّركاء المتبادلين والأمكنة والأزمنة عامّةً، وما يرتبط بموضوع التواصل وهدفه وكيفياته اللغويّة وغير اللغويّة المتنوّعة على وجه الخصوص، وهي الشّروط التي تستخلص. بصورة منتظمة دائماً³. من عمليات التواصل المتواترة في مقامات معيّة ثمّ يُعتدّ بها على أساس أنّها تشكّل ما يمثّل نوعاً من قواعد

¹ P. Charaudeau, Le contrat de communication dans une perspective langagière: contraintes psychosociales et contraintes discursives, Op. cit.

² P. Charaudeau, Ibid.,.

³ وهذا من مميّزات أيّ عُرفٍ تواصليٍّ ومن شأن ما يرشّ أن يستوي على كرسي النّظاميّة في ملاحق تطوّراته.

ومبادئ تنهض بتأطير ذلك التّمط التّواصلِي المسمّى نسبةً إليها كأن يقال التّواصل العلمي والتّواصل الإعلامِي والتّواصل التّعليمِي.

وعليه فليس الأمران سيان على وثاقّة الصّلة بينهما. وفي سبيل تزكية التمايز بينهما نتساءل. تجنّباً للتكرار: ما هو الدّور الخِطابي التّخاطبي¹ الذي يضطلع به كلٌّ من المعلّم والإعلامِي والعالم (المتوسّط / همزة وصل)²، بوصفهم. كما سنرى. حجرَ زاوية " التّبسيط العلمي " والحبل الوريد النّاقِل للمعرفة بشتى نواتج قذائفها المتفجّرة بركاناً فوّاراً ونشيطاً ؟

وبعد، نجيب بالقول: إنّه يُتحرى في وصف الثّوابت التي تُشكّل وضعيّة التّواصل الخاصّة بمطلب " التّبسيط العلمي "، تمييزاً له كإطارٍ مُفعِلٍ ومُعَيّنٍ للمقتضيات النّفسية والاجتماعية والمعرفية التي تتعلّق بتلك الوضعيّة، شريطةً مداومة هذه الأخيرة بحيث تتطلّع إلى التّعالِي حتى تلج باب التّرسّخ في تقاليد التّعامل التي يستجلبها ذلك المطلب من أجل تسويغ مقامه الاستيمولوجي (العلمي الفني العملي)³. يجري الحديث هنا عن تلك الوضعيّة التي يجب على شركاء التبادل اللّفظي أن يأخذوها بالاعتبار على أكمل وجهٍ ممكن. وإذا تعطلّت حتميّة الأخذ بها فيتقرّب استحالة التّفاهم المخمّن فيه على هؤلاء الشّركاء الذين يطالبون بتحسين الأداء التّواصلِي في كلّ مقامٍ يقام لفائدة التّبسيط العلمي خصيصاً، وأن يتحسّسوا تلك المقتضيات القسريّة التي ما هي بقواعد ولا معايير نهائية⁴. وإنّما هي مجموع الاصطلاحات الضرورية التي على الرغم من ذلك فهي غير كافية ولا تقوم بوحدها. لا تتمّ هذه الهيكلية والبنية (Structuration) المشتركة والمتبادلة بطريقة عشوائية. وإنّما يُعمد إليها ضمن وضعيّات مألها الاستقرار والتّنميط (أي: إلى غاية حدوث قولبتها في أشكالٍ قارّة)، وذلك بفعل التواتر؛ مشكّلةً عدداً من المقتضيات وكماً من المعلامات لصالح الشّركاء المندمجين في نسقها التّبادلي المتحرى.

فكذلك يُسهم التّعاقد التّواصلِي في بنية وضعيّة تبادل لفظي تبعاً لشروط تحقّق أفعال الكلام، بحيث تتماشى ومقصديّة الفرد المتكلم وإمكانات الفرد المتلقّي والمؤوّل على أن يؤوّلها. نتواجد هنا إزاء إشكاليّة التّواضع والتّعارف: أي حتميّة انطواء الشّركاء على مشترك من المعطيات المعرفيّة، ليس بالنسبة لأفكار ما فحسب، ولكن بالنسبة لمقتضيات علائقيّة تمكّنهم من التّعريف على السياق الذي يلتزمون التبادل في إطاره. إنّ تبين التّعاقد هو

¹ إنّ هذا الاستعمال ليس بدعة. فقد، ويمكن استمداده من. يُنظر: عبد الرحمن الحاج صالح، الخطاب والتّخاطب في نظرية الوضع والاستعمال العربيّة، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2012.

² أسميناه هذه التسمية نسبةً إلى وظيفة الوساطة التي يضطلع بها العالم بين ما يحمله من العلم ويُنتجه من الفكر والجمهور الواسع الذي يغرف من نبعه. ويمكن أن يتطابق هذا القيد التعريفي مع مفهوم المستوى العلمي الذي نعرف أنّه يتنامى بالاحتكاك بالبحث ويتضاءل بمقتضى التجايف الذي يحدث بين العالم وعالم البحث.

³ يُنظر مفهوم الاستجلاب المعرفي التّعليمي أو النّقلة التّعليمية (Transposition didactique): يوسف مقران، أثر النّقلة التّعليمية في إصلاحات التّعليم العالي: نظام (ل م د)، ضمن إصلاحات التّعليم العالي والتّعليم العام: الرّاهن والتّوقع (أعمال اليوم الدراسي المنعقد في جامعة البويرة بالشراكة مع مخبر الممارسات اللغوية في الجزائر، يوم 22 أفريل 2013)، مجلة الممارسات اللغوية في الجزائر، جامعة مولود معمري، تيزي-وزو، 2013، (ص.37-52).

⁴ وذلك على الرّغم من رميها إلى التّقييد والمُعيرة في نهاية المطاف.

ما يمنح القدرة على الربط بين النص والسياق، بين القول والقول وسياق القول (المقام)، بحيث يصبح واجب التبيين لا يشغل المعطيات المعرفية وفن القول فحسب، بل إرادة القول والقدرة على القول.

فالتعاقد إذن. يقول باتريك شارودو: « هو ما يتكلم قبل أن يكون أحدٌ قد تكلم، هو ما يتمّ فهمه قبل أن يسبق أحدٌ إلى قراءة شيء. وبتعبير آخر، فإن منظومة التعارف المتبادل بين مُنتج أفعال الكلام ومتلقّيها، تلك التي تنبثق عن التعاقد تجعل النصّ المنتوج يدلّ أولاً بوساطة شروطه التواصلية: فحينما نلمح لوحة إظهارية في الشارع، نكون قد أبصرنا معنى كل ما يتعلّق بالخطاب الإظهارية، قبل أن نشرع في قراءة خصوصيات اللوحة المعنوية؛ وعندما نسمع بيان رجل سياسة في شاشة التلفاز، نكون قد استشرّفنا فهم ما يحيل على الخطاب السياسي الخاصّ بمرشّح للانتخابات، قبل الإمعان في تلقّي ما يكون هذا المرشّح في صدد التصريح به على وجه الخصوص؛ وكذلك حال الأستاذ الذي يشرع في إلقاء درسه في المدرّج ويكون الطلبة قد استبقوا إلى ترسيخ في أذهانهم المعطيات التي يرتبط بها مثل هذا التعاقد التعليمي؛ وفي سياق استلام رسالة ما، فبموجب المؤشّرات التابعة لهذه الأخيرة والتي ترتسم على صفحات الطّرف (أو أعلى الصفحة) يتمّ استحضار التعاقد الخاصّ بالرسالة الإدارية، والضريبية والمهنية، أو الحميمية. فقسّم من المعنى يكون قد تمّ بناؤه قبل الولوج في خصوصيات النصّ، وهو ما يُنجزه التعاقد التوالي، بحيث يتمّ من خلاله تحديد فاعلي التبادل تحديداً مبالغاً فيه نوعاً ما¹.

2.3 الوضعية والتعاقد التواصلي الخاص بخطاب التواصل التبسيطي

إذا أخذنا في تأمل مشهد الخطابات العلمية التبسيطية من زاوية مطلب إنتاجها، فيمكن الحكم مسبقاً بأنّ الخاصيات الخطابية المتعلّقة بالنصوص التي تنتجها إنّما تخضع، في جانب كبير، لكيفية تمثّلها لإكراهات الوضعية التواصلية التي تتواجد فيها. وعليه، أليس من الضروري، قبل تحديد هذا النمط من الخطاب، استعراض الوضعيات التي لها صلة ما بهذا الأخير، تلك التي تتعلّق بالخطاب العلمي والخطاب التعليمي والخطاب الإعلامي؟

1.2.3 وضعية التّواصل الخاصّة بالخطاب العلمي

إنّ غاية الخطاب العلمي تنطبع بوجهة البرهنة، أي عزيمة إقامة الحجّة الدامغة التي تستلزم نشاطاً حجاجياً يؤسّس لنمط ما من التفكير العقلاني (بناءً على مصادر وقواعد)، وكفيل بأن ينتقي الحجج التي بالإمكان إحلالها محلّ الشواهد. من هنا سينبلج خطابٌ وفق تنظيم ثلاثي الأطراف: الشكّنة (جرد جملة من أسئلة)، الموضحة (التزام الفرد بالحجاج حول موقف معتنق)، الإقناع (تحضير استراتيجيات الشواهد)، بمقتضى مقارنة افتراضية استنتاجية.

¹ P. Charaudeau, Le contrat de communication dans une perspective langagière, Op. cit.

هوية الشركاء هي هوية الأقران، أي الأفراد الذين يفترض أن يقوموا على مرجعيات مماثلة من المعرفة المتخصصة، وأن يشتركوا في موقف الحيايد الإيديولوجي الواحد. هكذا، حتى يمكن لمطلب إنتاج الخطاب العلمي الاستغناء عن بعض الشروح والامتناع عن استهلاك معجم متخصص يفرض إدراكه من قبل مطلب التلقي الملح. هذا، مع العلم أن الفرد العالم، بينما يعبر شفاهة أو كتابةً، يعي بأنه يتوجه لمتلقيين على اختلاف أنواعهم، على الرغم من تموقع هؤلاء ضمن نفس المجموعة العاملة، أو مجتمع المعرفة. بالطبع، هم أنفسهم صور لمواقف متنوعة معززة عن طريق نظريات مختلفة، فبالتالي على الفرد المضطلع بالخطاب العلمي أن يأخذ في الحسبان هذا التنوع في التموقعات، ما يحمله على الرد مسبقاً على بعض الاعتراضات التي يمكن أن تواجهه. وهو ما يسفر عن ضرورة أعمال توافق بين الطابع الاستشهادي وهم المعارضة.

إنّ فحوى الخطاب العلمي، إذا أمكن القول، يظلّ دوماً ضحية الاستهداف، إذ يُسجّل في إطار تيمة كبرى مكونة من موضوع الدراسة ومن المادة العلمية التي تتصدى له بالدراسة، والتي تشكّل تركيبها ما يمكن تسميته السؤال. فمثال التيمة الكبرى الموسومة « الإنجاب » يمكن دراستها من قبل اختصاص الكيمياء الحيوية، فيزياء الجزيئات أو من قبل اختصاص تابع للعلوم الإنسانية والاجتماعية (علم النفس، علم الاجتماع .. الخ)؛ في خلال كلّ حالة من هذه الحالات، ستخصّص تلك التيمة إلى تنوع موضوعاتي.

أما فيما يخصّ الظروف المادية المحيطة بفعل الإنتاج، فهي ذات طابع الحديث الأحادي الطرف حينما تقوم على النقل (الشفاهي أو الكتابي) بوساطة محاضرة أو مقالات يتم نشرها في دوريات متخصصة (أو عبر النيت)، أو ذات طابع المناقشة الثنائية (ولكن نادرة جداً) لما يقع تبادل النقاش في الملتقيات أو بمناسبة لقاءات الباحثين.

2.2.3. وضعية التواصل الخاصة بالخطاب التعليمي¹

تختصّ غاية الوضعية التعليمية، منظوراً إليها من زاوية الفرد الذي يتولّى مهمة التعليم، بوجهة ثلاثية الحدود: فهي إعلامية وتنميطية وتقويمية². تقوم الواجهة الأولى على نقل المعرفة (علماً أنّ هذه الأخيرة يمكن أن تمثل معطيات علمية أو مهارة)، وذلك بهدف جعل المتعلم ينتقل من وضع الجاهل (غياب المعرفة) إلى مقام ذي علم. فالمعلم يسجّل حضوره، وفق هذه الغاية، على أنه وسيط بين المعرفة بما يتوقّر عليه من مرجعياتها، وبين التلميذ، قائماً على دوره موجّهاً. والمعرفة التي يراد نقلها تأخذ طابع موضوعي ممثّل للحقيقة (مهما يكن تحديدها)، فهي صالحة للإنسان (والألم تكن أهلاً للتعليم). تقوم الواجهة الثانية على مواجهة العراقيل التي قد تعترض مسار التعليم

¹ تشمل النزعة التعليمية المقصودة هنا كلاً من السياق المدرسي وغيره من السياقات التي يُحتكّم فيه إلى هذه النزعة من باب همّ الإخبار والإفهام والتحسيس والتوعية .. الخ؛ فليس من الضروري أن يكون تعليمياً (مدرسياً) خالصاً؛ ولكن من الأحسن أن يصدر عن مورد بشري يقوم مقام المعلم أو المكوّن أو الأستاذ .. الخ.

² يُنظر: Patrick Charaudeau, Le contrat de communication dans la situation classe, in *Inter-Actions*, J.F. Halté, Université de Metz, 1993, consulté le 17 mars 2017 sur le site de Patrick Charaudeau - Livres, articles, publications. URL: <http://www.patrick-charaudeau.com/Le-contrat-de-communication-dans.html>.

والتعلّم التي توشك أن تصدر عن التلميذ الذي لا يرغب في التعلّم (الرفض، النسيان، شرود الذهن، الملل.. الخ)، أو جراء عدم استطاعة هذا الأخير (العجز العقلي والنفسي المشخّص من قبل الشركاء المنضويين في المنظومة التربويّة). فيجب إذن على المعلّم أن يحتكم إلى استراتيجيات لغرض إثارة اهتمام المعلّم بل رغبته في التعلّم. أمّا الوجهة الثالّثة فهي تقوم على مراقبة مكتسبات المتعلّم فيما يخصّ المعرفة والمهارات، وهي التي يتمّ تجسيدها عن طريق علامات أو ملاحظات تقييميّة. بينما يسجّل التلميذ حضوره في شكل العمل الذي يؤديه وهو يبادر إلى تطبيق تعليمات المعلّم (فالتعاقد يسقط في حال تبين أنّ التلميذ يرفض الانصياع والعمل).

فهو يشكّك الشركاء، كما تسطرّها هذه الغاية، هي تدخل في علاقة عدم تناظر. إذ أنّ المعلّم، من جهة، هو مكرّس بمقتضى سلطة مؤسّساتيّة، كما يراد منه أن يمتلك ملكة معرفية وأخرى مهاريّة ذات علاقة بغاية التعاقد المعني (أي ينطوي على معرفة كفيّلة بالنقل ويعرف كيف ينقلها). فبالتالي على التلميذ أن يأخذ على الكلام الذي يصدر عن المعلّم ويعتدّ به على أنّه يمثّل الحقيقة. ذلك أنّ التلميذ موكل إلى تلك المكانة من قبل المؤسسة الاجتماعية باعتباره بمنزلة عديم المعرفة، ولكنّه صاحب همّة وعزيمة ورغبة في التعلّم (بحيث يبرز مشكل كلّما كفّ هذا الأخير عن إظهار علامات الرّغبة، أي لا يعتمد إلى تقدير التعاقد التعليمي).

إنّ فحوى الخطاب التعليمي يرضخ لطبيعة المادة التعليمية التي تخضع هي في ذاتها لتمفصّلٍ حتميٍّ عبر المنهاج. وهو ما يمثّل إلى حدٍّ ما «موضوعات الحقيقة» التي يندب تعليمها.

أمّا الظّروف الماديّة فهي متنوّعة، بما أنّه يمكن التعليم في مختلف الوضعيات وبوساطة مختلف السندات التي ينطوي كلّ منها على نوعيّة معيّنة من المطالب ذات الأثار على كفيّة التعليم: وضعيّة الصف في جوٍّ من التفاعل بين المعلّم والمتعلّم، الكتاب المدرسي المرفق أو المعوّض، الدروس عن طريق المراسلة، السندات التكنولوجية المتنوّعة.. الخ.

1.3.3 الخطاب الإعلامي وأهميته في التبسيط العلمي

لقد شرعت فكرة التبسيط العلمي تقترن بوسائل الاتّصال والإعلام قاطبةً منذ أواسط القرن التّاسع عشر مع صدور حشد من الجرائد التبسيطيّة وانتشار مجلّات تعميميّة وظهور سلسلات علميّة ونزول موسوعات علميّة إلى السوق بدءاً من موسوعة ديدرو الشهيرة. فانطلق شعار "وضع العلم في متناول الجميع" وأخذ عامّة الناس يقتنون كتباً ومجلّات تعالج موضوعات ذات صلة بالمفاهيم العلميّة التي راجت قبل القرن وأناه، بعدما كان العلم حكراً على الخاصّة وخاصّة الخاصّة.

ثمّ لا ننسى أنّ الثورة الصناعيّة التي عرفتها أوروبا خلال هذا القرن قد لعبت دوراً فعّالاً في استقطاب جمهور القراء من مختلف الفئات الاجتماعيّة، كما كان لصراع الطبقات دور في إذكاء الاهتمام بالعلم لدى الطبقة المتوسّطة التي ظلّت ترتقب فرص سانحة لتوّي مراتب عالية في المجتمعات الأوروبيّة التي ما انفكت تحاول التخلّص من التبعية والنزوع نحو الحرّيّة وهو المبدأ الذي اتّخذ عدّة مظاهر فتجلّى في الأدب والفلسفة والتاريخ وعلم

الاجتماع ولاسيما في المذهب الرومانسي تياراً جارفاً ترك آثاره على المنحى التبسيطي والتعميمي الذي ناشده العصر حينئذ على جميع المستويات بما فيها العلم.

ومع هذا الولوج الحاشد للتبسيط في عالم الإعلام الذي ما انفك يتزايد، فقد لاحظ باتريك شارودو أنّ الغاية تختصّ في الخطاب الإعلامي التبسيطي عموماً بازدواجيّة المنحى: منحى الإخبار ومنحى الإثارة¹. يقوم منحى الإخبار على حمل المعرفة إلى الغير، أي المواطن الذي يُفرض أنّه لا يمتلك تلك المعرفة سابقاً. بيد أنّ هذا المنحى غير موحى إليه بتمليك المعرفة، كما هي حال وضعيّة التعليم، بقدر ما هو مسدّد لغرض حيازة المتلقّي على فرصة تكوين فكرة معيّنة. ولتعليل هذا الفعل، وجب اختصاص تلك المعرفة بملاح الصحة والصدق. فهمّ الإعلام يُرغم على «وصف الحقيقة وقول الحق»، ليس الحقّ الذي يزعم أنّه الحقيقة الوحيدة، ولكن الحقّ الذي يطابق هذه الحقيقة. وعليه، تعتمزم أجهزة الإعلام على مجابهة مشكل المصادقيّة وحلّه. ما يضطرها إلى تسخير استراتيجيات في سبيل تأصيل الأحداث وإثباتها بشهادات ووثائق، ومكاشفات عن طريق مقابلات، وتحريات ومناقشات وسجلات، وتحاليل وتعليقات، تغطّي أسباب الأحداث وكيفياتها.

أما همّ الإثارة، فهي من قبيل وضعيّة التنافس الاقتصادي الذي تتعايش معه أجهزة الإعلام: تحت دواعي الضغوط المالية تحاول جاهدة على بلوغ أرقام قياسية من حيث استقطاب القراء، والمستمعين والمتفرّجين. ولحذق هذا المنحى، تتوسّل بإجراءات الإخراج الخطابي التي تميل إلى تضخيم الأحداث ومسرحتها، معتمدةً عامل المعتقد الديني والشعبي وباللعب على العواطف الجماهيرية والتغّي بها². نلاحظ أنّ غاية التواصل الإعلامي، مع منحاه المزدوج (الإخبار والإثارة)، مضموسّ بمنطق ثلاثي الأوجه: الوجه الديمقراطي، والوجه التجاري، والوجه التحريضي.

4 تفاوت صور التبسيط العلمي وتشكيلاته الخاصة

نستخلص مما سبق من العرض المتعلّق بوضعيات التبسيط العلمي أنّ الصورة التي تصل من هذا التبسيط عبر الإعلام تختلف عن تلك التي يتولاها المعلمون. وتختلف كليهما عن نسخة العلماء. ولكن لا يكون الاختلاف شاسعاً إلى درجة تمييع المعلومات العلميّة وتشويهها وتضيقها، أو تعقيدها وتحجيرها، أو تضخيمها، أو حتى تحجيمها والاستخفاف منها: وهي أبعد ما تكون من مقاصد تحجيرها. كما أنّ الوضعيات الخطابيّة - بحسب باتريك شارودو - تلعب أدواراً مختلفة وفق المجموعات الثلاث، وهي الحاسمة في طرائق التبسيط وأشكاله ودواعيه وأهدافه.

¹ يُنظر: Patrick Charaudeau, *Le Discours d'information médiatique: la construction du miroir social*, Ed. Nathan (Coll. Médias-recherches), Paris, 1997, p.74.

² في هذا الصدد، لنعيد إلى الدّائرة الطريقة التي عالجت بها الأوساط الإعلامية كلاً من وفاة أميرة الغال (la princesse de Galles) وحروب البوسنة والكوسوفو؛ ينظر: P. Charaudeau, *La télévision et la guerre*, Louvain-la-Neuve, Ina-De Boeck, 2001.

1.4 تشكيلة التبسيط العلمي بحسب التعليم

فالمعلمون لكونهم ينقلون صورة المعرفة العلمية بشكلٍ رسميٍّ فهم مطالبون بتنفيذ تعليمات المناهج، ويعملون تحت ضغوط أخلاقيات المهنة، ووفق بيداغوجيا تسلّم بضرورة التدرّج قبل الخلود إلى التكوين العلمي النهائي، ويتمون بنواهي وزارات التربية ويأتمرون بأوامرها ويعملون في حدود النقلة التعليمية (Transposition didactique) التي تركزها كلّ تعليمية لأيّ مادة مدرسية كانت؛ ويُضجعون المتعلمين لأنواع التقويم قبل بلوغ مرحلة التكليل بالتحصيل العلمي الختامي. فينتقل هؤلاء حينئذٍ إلى مستوى طلبة العلم ويتخرجون من الجامعات بعدما كانوا طلبةً للعلم فيشتغل بعضهم في وظائف بحسب التخصص الذي يتدربون في رحابه بالتنوع بين التدقيق والتعميم دائماً. وهم يتلقون التعاليم مبسّطة مع تطوّر العلم بما يوحي إليهم بأنهم يخرجون كلّ مرّة من عنق زجاجة الجهل إلى فضاء العلم ولو في صورته المبسّطة، إلى حيث يتمّ اجتياز بعضهم لعقبة التخصص واعتلاء آخرين مرتبة العلماء. فصناعة هؤلاء وقولبتهم يمرّ حتماً عبر المدرسة على الرغم من توقّرها لعوامل التبسيط هي الأخرى، ويستثنى بعض العصاميّين النجباء الذي كثيراً ما يحتفل بهم الإعلام. كما سنرى. بيد أنّ التعلم ليس وقفاً على نخبة ولا حصراً على سنّ. فعلاوة على مبدأ الديمقراطية فقد عرفت البشرية توسيع دائرة التعلّم بتسخير وسائل البثّ العلمي الممكنة كالتعلّم عن بعد.

ومن العوامل التي تقضي بالسّهْر على التّبْسِيط العلمي حتى في السياق المدرسي نذكر عجز الكتاب المدرسي عن تغطية حاجة المتعلمين من التلاميذ والطلبة. ثمّ إنّ هؤلاء كثيراً ما يعولون على ذلك الكتاب القاصر شكلياً فحسب؛ وفي حال حدوث إقدامهم على قراءته فتحت سلطة المعلم - والأستاذ - الذي يعي هو الآخر محدوديته، وبإيعازٍ من ضغوطٍ أخرى كقدر الاختبارات التقويمية المحتوم. وكذلك أمام تعقّد بعض المفاهيم واستعصائها. وفي ظلّ كلّ المقاربات التي تخوّل لهم استقلالية التعلّم¹. يحسّ المتعلمون أنفسهم ضائعين كأنّ لا أحد يهتمّ بهم.

وعليه يبرز الإلحاح على ضرورة تدخّل المورد البشري المساعد والحريص على إنتاج نصّ مبسّط كفيلاً برعايتهم كرفيق لعلّه يوئد لديهم الرغبة في القراءة. وهو المورد الذي مع ارتكاسه إلى دور ثانويٍّ فمن شأنه أن يحزّهم من بعض القيود والمخاوف التي تعطلّ عادةً ميولهم نحو المطالعة المستمرة؛ فيزوّدهم بدعامة محبّة الاطلاع، ويحقّز فيهم الرغبة في القراءة، ويستثير عندهم فضول الاستكشاف وحسّ توسيع الأفاق الفكرية.

وهو الأمر الذي يستدعي منا العود على فكرة سبق لنا أن ساندناها²، وهي ضرورة إسناد وظيفة الإيحاء والإيعاز للكتاب المدرسي علاوةً على وظائفه الأخرى المعروفة عالمياً. وتعبير آخر، نطالب من هذا السياق السعي إلى ضرورة

¹ وذلك على غرار المقاربة بالكفاءات، وكذا نظام (مد) .. الخ.

² يُنظر: يوسف مقران، النصّ الأدبي سنّدٌ ممتازٌ لتعلّم اللغة وتملّك الثقافة، مجلة العربية، ع. 4 / ج. 1، مخبر علم تعليم العربية، المدرسة العليا للأساتذة. بوزريعة، 2011، (ص. 107، 131). رقم الإيداع القانوني: 1134-2011 رقم الإيداع الدولي: 1112-9557. نصّ مداخله أُلقيت في الملتقى الوطني الرابع في موضوع: السندات التعليمية للغة العربية في المنظومة التربوية الجزائرية؛ المدرسة العليا للأساتذة. بوزريعة؛ أيام 18 و19 ماي 2011.

جعل من الكتاب المدرسي حاوياً على النصوص التي من شأنها أن تكون إيحائية أكثر من كونها مضمونية، أي تستوي على معلمات الإيعاز والحثّ وتعبيد الطرق أمام المتعلمين تؤدّي إلى عناوين لكتاب وعلماء وسير الأعلام أكثر من استهدافها للمعلومات، وأفضل من اعتبارها مجرد خزّان تُستنفد إمكاناته بسهولة، ويقرأ برتابة لا معنى لها سوى شهادتها على إمكانية تجاوزها زمانياً على الخصوص. كما يليق بالكتاب المدرسي أن يحوي نظرات إلى العالم والكون والإنسان.. الخ، تساوق الثقافة التي توطّر المتعلّم منذ نعومة الأظفر.

وعلى الرّغم من الوثوق في فكرة أنّ المعلّم يعمل كلّ ما في وسعه لاقتسام رصيده المعرفي مع المتعلّمين الذين ينتظرون منه أقصى ما يمكن من العطاء الفكري والأداء التربوي، فإنّ الخطاب التعليمي الذي يمارسه لا ينزل دائماً عند رغبات هؤلاء وعلى قدر إلحاح نزواتهم. فهو يستجيب لنوع من نمطية لا تيسّر عليه مهمة مراقبة مدى بلوغ المعلومات إلى الأذهان بله عن التحققّ من تحوّلها إلى شكلٍ من المعرفة التي تتميز عن مجرد المعلومة؛ « ذلك أنّ المعلومة إن كانت أداة للمعرفة، فهي ليست معرفة بالرّغم من ذلك. المعرفة معطى خام. إنّها المادة الأولية لبناء المعرفة»¹.

وقد سبق لكلّ من بيار بورديو (P. Bourdieu) وباسيرون (J.-C. Passeron) أن تبنا هذه الفكرة في مؤلّفهما المشترك (إعادة الإنتاج / La reproduction) حيث وضع درس المحاضرة الذي يعتمد على الأساتذة موضع الشكّ لكونه يستدعي فروقاً وفوارق في الوسط الطلابي وهو الراجع إلى اختلاف المرجعيات بين هؤلاء والحال أنّ الأستاذ يتبنّى خطاباً كثيراً ما يُسقط عليه ثقافته الشخصية ما يساعد على توسيع هوة تلك الفروق الشخصية والفوارق الاجتماعية².

2.4 تشكيلة التبسيط العلمي بحسب الإعلام

أما الإعلاميون فهم ليسوا ملزمين بعرض الثقافة العلمية باتباع حلقات برامج حرفياً. بيد أنّ عنصر الإثارة الذي تحتكم إليه أجهزة الإعلام هو ما يعدّ المحرّك الأساس بدون منازع ولكن. أيضاً. بدون إعدام روح المبادرة والشفقة وحبّ خدمة المصلحة العامة. ويتفاوت الإعلام من الصحافة المكتوبة والإعلام المرئي، وما يتمّ في رحاب الورشات والمنتديات والمقاهي العلمية والأدبية والفلسفية التي تقام في رحاب المكتبات والحصص التلفزيونية والإذاعية، وما يبثّ على الانترنت من الفيديوهات وما يكتب على صفحاته من مواد التبسيط العلمي على غرار اليوتيوب، وبعض المسودات والألواح والكاشفات المسموعات الإعلامية التبسيطية كموسوعة الويكيبيديا. علاوة

وكذلك: كفايات تكييف الكتاب المدرسي لمستجدّات العصر، الملتقى المغربي الأول حول "تقييم فاعلية الكتاب المدرسي في التحصيل اللغوي لتعليم اللغة العربية بالدول المغاربية"، مخبر علم تعليم العربية، المدرسة العليا للأساتذة. بوزريعة (الجزائر) أيام 14/15/16 ماي 2013.

¹ عبد السلام بنعيد العالي، المعرفة والمدرسة، نزوى، ع.73، مؤسسة عُمان للصحافة والنشر والإعلان، مسقط (سلطنة عُمان)، يوليو 2012، (ص.256-258).

² يُنظر: P. Bourdieu et J.-C. Passeron, *La Reproduction*, Ed. Minuit, 1970.

على ما يقام من عروض مسرحية للأطفال غرضها التعليم بالترفيه. وكذلك يُسخر فن الرواية لهم نقل المعرفة. ما يكفل الاتساع النسبي لحضور الأدب في الخطاب التبسيطي.

والحال أنه ليس كلّ الإعلاميين مؤهلين على إيصال الثقافة العلميّة إلى عامة الناس. لذلك يلاحظ إقبال القراء أو عزوفهم بناءً على نوعيّة الخدمات التي يقدّمها الإعلام التبسيطي. وعلى الرغم من ذلك فإنّ المؤشّرات تشير إلى أنّ معدّل القراء المقبلين على التبسيط العلمي الإعلامي أكثر بكثير من ذلك الخاص بالمتعاطين مع التبسيط العلمي الذي يتولاه العلماء إلى درجة أنّ في الجامعات يعاني المشرفون على المذكّرات بشقّي أنواعها وكذا يشكو المناقشون من إفراط استعمال الإعلام والانترنت كمصدر المعلومات العلميّة وكمراجع يستشهد به. ولا نقصد من ذلك ما يكتبه العلماء الباحثون من مقالات ويتم نشرها في الانترنت حيث تحجز ولصعوباتها وعلوّ مستواها فإنّ الباحثين الناشئين لا يعرفون حتى كيفيات التوصل إليها بل لا تجد عند كثيرٍ منهم إماماً باستخدامات SNDL. في الجزائر. يعانون من مشكلة قوامها صعوبة المصطلحات وعدم توحيدها. لهذا ينصرف الكثير إلى مثل هذا الوسيط بدل ، ويضيّعون الوقت والمال بحثاً على المعلومة بالمقارنة الحصيصة بين المصطلحات.

وحينما يُمعن النَّظر في منجزات الإعلام ولاسيما في باب الصحافة المكتوبة فليس لأحدنا إلا أن يقع ضحيّة الافتتان بانتصارات الكتابة بكلّ ثرائها وتعقيدها. وقد أوجد هذا التفنّن. بما تزخر به اللغة من طرائف ضمنيّة وما تتيحه من سبل ومظاهر وظواهر على مستوى التبسيط العلمي. أرصدة أخذت تُستخلص منها الدروس. مجدّداً. وظلّت وحيّاً للعديد من الحكم والفرائد والفوائد، كحال كثيرٍ من المواقع الإلكترونيّة التي استُحدثت لأغراض التبسيط العلمي والتي ما فتئت تُسخر. مثلاً. من أجل حماية الطّبيعة من المخاطر المحدقة بها على غرار: الكوارث البشريّة من " التلوّث "، واستنزاف ثرواتها باسم الاستثمار، والتمادي في سوء الاستغلال بدون التفكير في البدائل¹.

وكذلك نُلفي منها ما هو مخصّص للحفاظ على سلامة الصّحة البشريّة والتهديّة من روع أنصار الحروب المشتعلة نيرانها ولا تزال غير خامدة في بعض جهات العالم المتوتّرة. وتسخيّراً دائماً للبعد التعليمي الذي ما فتئ يلازم التبسيط العلمي فقد تعدّدت مواقع الانترنت وتشعبت في شأن التّعليم عن بعد وهي تحمل طابع التثقيف والتبسيط أكثر من التخصّص والتبريز بالشّهادات. وقد ابتكرت في هذا الإطار مجالات ذات غرض التوعيّة والتحسيس كشأن مجلّة (Distances et savoirs) الصّادرة بالشّراكة مع المركز الوطني للتعليم عن بعد أي (CNED)². ولا ننسى ما لعبته مجلّة (العلم والحياة / Science & vie) وتعدّد سلسلة (عالم العرفة) من أجود الكتب التي تعنى بالعلوم والثقافة والفنون والترجمة وكذلك العربي العلمي. في فرنسا هناك إعلام مكتوب ومرئيّ متخصّص

¹ ينزل مثلاً على: <http://www.reseau-canope.fr/docsciences/Maitriser-l-energie-informer-et-convaincre.html> وهو موقع تحت عنوان مستعار (DocSciences Junior). ويعنى بكلّ فئات من الصغار حتّى الشيوخ. يتصفّح مثلاً هذه الصفحة الخاصّة بفئة القاصرين: <http://www.reseau-canope.fr/docsciences/Junior/accueil> > Les numéros Junior > DocSciences Junior n°3 : L'énergie De nouveaux horizons

² <http://webo.refad.ca> (cliquer sur : le Centre National d'Enseignement à Distance حيث تجد هذا الرابطة معمولاً لتوجيه المتصفّحين : amorcer la recherche. Type de publication : revue)

في التبسيط نذكر على غرار المجلة المذكورة أنفاً متخصصة في بث حصص تحسيسية يطغى عليها طابع التبسيط العلمي على غرار (*France Culture, Sciences Humaines, Libération, Médiapart, Le Million, Science et Vie, Toute la science, Tout l'Univers, Vous saurez tout, Je sais tout, Clefs des connaissances, Alpha, Spoutnik, Constellation, Sciences et Avenir, Atomes, etc.*)

ذلك أنّ الصحافة ليست مجرد إخبار ولكنها تقوم بتوجيه الأفراد لالتماس برّ النجاة من الطوفان. وعليه، فلا مانع إن وجدت ضالتها في التبسيط العلمي، لأنّ الإنسان يقتنع بالعلم أشدّ اقتناع وبنقّة عمياء. بيد أنّ هذا العلم بدون تبسيطه وهو واقع في أيدي نخبة من الناس لا يؤدّي وظيفته العمليّة العميقة. بالتالي، فعلى هذه الصحافة التّيرة أن تقوم بدور الإعلام والتثقيف في آن، بتكثيف منشوراتها التّبسيطية ومباشرة الاستثمار حتى في الإشهار الذي أطال البعد التّبسطي هو الآخر.

3.4 تشكيلة التبسيط العلمي بحسب العلماء

أما مجموعة العلماء الذين يمارسون التبسيط والتعميم وشيئاً من التوعيّة للصالح العام، فهم أولئك الذين يقفون بالمرصاد إزاء التطوّر العلمي ليصبحوه بمنشورات تبسيطية تكييفية استجابةً لسياسات واقتصاديات البلاد التي ينتمي إليها كلّ فريق منهم، لأنّ المعرفة كرز واقتصاد ورصيد وقوّة؛ ودمقرطة الثقافة والعلم والمعرفة من الشرائع التي نصّت عليها القوانين الشرعية التي تسيّر البشريّة وليس اليونيسكو بدعاً في هذا الخصوص. بل لهذا الأمر أنشئ البحث العلمي في الجامعات والمراكز والوحدات العلميّة. وفي سنة 1944 تمّ التنصيب على حرّيّة التعبير في البحث العلمي منصرفاً في قواعد حكيمة وإطلاقاً لأعنة الاكتشاف والاستكشاف وهمم الإبداع والاختراع، وتكسيراً لبعض القيود التي كانت تسلّم مصير العلوم إلى أقلية ولضغوط لا يستجيب لها سوى كمشة من العقول، بل كانت تزفّ به في أيدي المترصّدين من المستغلّين له في المصالح الضيقة جداً. وصموداً أمام معاملات الحرمان التي تمارسها نخبة صغيرة من بعض المتواطئين من العلماء والخبراء والعملاء الاقتصاديّين والسياسيّين.

وعليه، فما هناك شكٌّ في بصمات العلماء فيما يخصّ إعادة تشكيلة المعرفة بينما هي في طفرة متزايدة، وبينما هم عاكفون على نشرها مبسّطة مخفّفة. وبالمقابل هناك من الخدمات التي يُسدها التبسيط العلمي التّعميبي للعلماء أنفسهم ما يمكن تلخيصه في عضدهم في عمليّة التخيل المعبّأة على المستوى اللّغوي التّواصلية وفي شأن وضع التسميات وتبسيطها. وهي العمليّة التي يفتقر إليها هؤلاء بسبب ضيق أوقاتهم المخصّصة أكثر للعمل الإبداعي الذي لا يعدم التخيل مهما يكن من نوعٍ خاصٍ سبق لكثير من الاستيمولوجيين أن وصفوه بامتياز. إذ بينما تُشغّل الأوقات لدى العلماء وتُكرّس للبحث العلمي لا يمكن لهم أن يعنوا بنفس الدّرجة التي يعنى بها من يهب حياته كلّها. وقد يكون من فئة العلماء¹. لشأن التبسيط. وكنتيجة لهذه الحالة فقد لاحظ محلّو خطاب العلماء (الخطاب

¹ هذا، على الرّغم من أنّ فئة المبسّطين المعّمين فئة غالباً ما تكتسي بالضبابية إلى درجة اعتبارها مفهوماً فضفاضاً. إنّ هذا المسألة قد سبق لنا أعلاه أن قدّمنا رأينا في شأنها.

العلمي) المتأثر بنزعة التوعية والتحسيس المستجلبية عن مطالب خطاب المبسطين (تعبت)¹ لطائف لغوية تنم عن العبقريّة.

ولا يسعنا في هذا المضمّار إلا أن نذكر إسهاماً عربياً ذا فضلٍ كبيرٍ على تشكّل القريحة العلميّة بالعربيّة وهو العالم المصريّ الجليل علي مصطفى باشا مشرفه (1898-1950) الملقّب بأينشتاين العرب والذي يعدّ أوّل عربي نال درجة دكتوراه في العلوم (Phd)، والسباق إلى تأليف كتب في التبسيط العلمي يمكن الإشارة إلى بعض عناوينها، وهي الثلاثة الآتية: مطالعات علمية (1943)، والعلم والحياة (1946)، ونحن والعلم (1945). كما أقع الإذاعة المصريّة بأن تقدّم برامج (أحاديث علميّة) تخاطب الجماهير العامّة بحيث سجّل بين سنتيّ 1939 إلى غاية 1942 حصصاً إذاعيّة تناولت شتى نواحي الحياة مركّزة على علاقة العلم بالمجتمع، ونشرت تحت عنوان سلسلة أحاديث كلية العلوم².

خاتمة

ومما تقدم يجدر علينا وضع حساب لأهميّة التبسيط العلمي وتعميم الثقافة العلمية في الأقطار العربيّة من قبل مختلف الشركاء: العلماء والمعلّمين والإعلاميين الذين يعدّون باحثين وناقلين وحاملين لتلك الثقافة. وذلك بعد تحكّمهم في شؤون المعرفة والابتكار والاستكشاف المتجدّرة في كافة الممارسات الحياتية والعملية الثقافية الاجتماعية، وعنايتهم بأشكال تقديمها وعرضها وإيصالها إلى النّاس عامّة عبر إتقان الممارسات الخطابية الناجعة لهذا المسعى. ولكن دون أن يؤثر ذلك سلباً على مسار البحث العلمي والاختباري والتجريبي والتخميني ولا يمسّ جوهر الفلسفة التي تتحكّم في تقدمه ولا منطق النقد الميسّر لاستمراره. مع العلم أنّ تقدم الأمصار لا يرتبط بعدد باحثيها في مجالات العلم المتشعبه فحسب، بل يتعدّاه إلى عدد المنشورات من المقالات العلمية الوجيهة والوظيفية وما يُداع تبعاً في صيغة التبسيط العلمي التعميمي الذي يمهد الطريق لأجيالٍ من الباحثين الذين يحملون مشعل التقدم العلمي لاحقاً ومن جديد. وذلك علاوةً على تفعيل التوعية الموجهة صوب عامّة الناس والمرتكزة على تقديم شروح حول كيفية الاستفادة من المعرفة تطبيقياً بتسخير قاطرة التبسيط العلمي التعميمي دائماً، وذلك لإثارة الاهتمام بالعلم وتعلّم اللغة المفكّرة بربطها بالواقع والمجتمع الذي يتلهّف نحو تلقّي العلم من عيونه وينهله من مصدر التبسيط العلمي أيضاً -

¹ إنّ التعبير بتسخير المختصرات كثيراً ما استبعد من الحرف العربي. وهذا خطأ فادح. فكان علينا أن نقنّدي بالحروف الأولى التي تبتدئ بها بعض السور القرآنية. فلو اعتمد هذا لكتب له الانتشار؛ وذلك كما أفدنا في سياق حديثنا عن التعاقد التواصلي.

² اطّلعتنا على هذه المعلومات من خلال حصّة بثّت في قناة الجزيرة القطريّة، يُنصت لفيديو رابطته: <https://www.youtube.com/watch?v=5qZnZrbjwcv>

- قائمة المراجع /

▶ بالعربية (كتب ومقالات)

1. أبوزيد (أحمد)، هل تقوم لغة عالميّة واجدة؟، ضمن المعرفة وصناعة المستقبل، سلسلة كتاب العربيّ (61)، وزارة الإعلام (مجلة العربيّ)، الكويت، 15 يوليو 2005، (ص.14.23).
2. بنعبد العالي (عبد السلام)، المعرفة والمدرسة، نزوى، ع.73، مؤسسة عُمان للصحافة والنشر والإعلان، مسقط (سُلطنة عمّان)، يوليو 2012، (ص.256.258).
3. الحاج صالح (عبد الرحمن)، الخطاب والتّخاطب في نظريّة الوضع والاستعمال العربيّة، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2012.
4. كيغان (جيروم)، الثّقافات الثّلاث: العلوم الطّبيعيّة والاجتماعيّة والإنسانيّات، ترجمة صديق محمد جوهر، سلسلة عالم المعرفة (408). المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب (الكويت) بالتعاون مع المركز القومي للترجمة (القاهرة)، يناير 2014.
5. مازليش (بروس)، الحضارة ومضامينها، ترجمة عبد النور خراقي، سلسلة عالم المعرفة (412)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، مايو 2014.
6. المخزنجي (محمد)، فنون الأدب في مقال الثقافة العلمية: هل يسمر تأثير الدكتور أحمد زكي. مقران (يوسف)،
7. أثر النّقلة التعليميّة في إصلاحات التعليم العالي: نظام (ل م د)، ضمن إصلاحات التعليم العالي والتعليم العام: الرّاهن والتّوقع (أعمال اليوم الدراسي المنعقد في جامعة البويرة بالشراكة مع مخبر الممارسات اللغوية في الجزائر، يوم 22 أفريل 2013)، مجلة الممارسات اللغوية في الجزائر، جامعة مولود معمري، تيزي-وزو، 2013، (ص.37.52).
8. الخطاب اللّساني وتفرّيعاته المفهوميّة والمصطلحيّة، حوليات جامعة الجزائر، ع.30.2، ديسمبر 2016، (ص.263.306).
9. في تعدّد أبعاد المصطلح، مجلة اللّغة العربيّة، ع.29، المجلس الأعلى للّغة العربيّة، الجزائر، 2012، (ص.35.76).
10. في سبيل تكريس الملكة التّواصلية، دوريّة الممارسات اللغويّة، ع.11، مخبر الممارسات اللّغوية، جامعة مولود معمري، تيزي-وزو، 2012.
11. كيفيات تكييف الكتاب المدرسي لمستجدّات العصر، الملتقى المغاربيّ الأول حول " تقييم فاعلية الكتاب المدرسي في التحصيل اللغوي لتعليم اللغة العربيّة بالدول المغاربيّة"، مخبر علم تعليم العربيّة، المدرسة العليا للأساتذة-بوزريعة (الجزائر) أيام 14/15/16 ماي 2013.

12. النصّ الأدبي سندٌ ممتازٌ لتعلّم اللغة وتملّك الثقافة، مجلة العربية، ع.4 / ج.1، مخبر علم تعليم العربية، المدرسة العليا للأساتذة - بوزريعة، 2011، (ص.107 - 131). رقم الإيداع القانوني: 2011-1134 رقم الإيداع الدولي: 9557-1112. نص مداخلة أقيمت في الملتقى الوطني الرابع في موضوع: السندات التعليمية للغة العربية في المنظومة التربوية الجزائرية: المدرسة العليا للأساتذة - بوزريعة: أيام 18 و19 ماي 2011.
13. مدخل في اللسانيات التعليمية، كنوز الحكمة، الجزائر، 2013.

► بالفرنسية (كتب ومقالات)

14. **Adel** (Nicolas), *Anthropologie des savoirs*, Ed. Armand Colin (Coll. U / Sciences Humaines & Sociales), Paris, 2011. **Michel Foucault**, *Archéologie du savoir*, Ed. Gallimard, Paris, 1968.
15. **Barthes** (Roland), *L'effet de réel*, *Communications*, n° 11 (Recherches sémiologiques le vraisemblable), Paris, 1968, (p.84-89).
16. **Bourdieu** (Pierre), *Questions de sociologie*, Ed. Cérès, Tunis, 1993.
17. **Caro** (Paul), *La vulgarisation scientifique est-elle possible ?*, Ed. Presses Universitaires de Nancy (Coll. Les Entretiens de Brabois), 1990.

Charaudeau (Patrick),

18. *Le contrat de communication dans la situation classe*, in *Inter-Actions*, J.F. Halté, Université de Metz, 1993, consulté le 17 mars 2017 sur le site de *Patrick Charaudeau - Livres, articles, publications*. URL: <http://www.patrick-charaudeau.com/Le-contrat-de-communication-dans.html>.
19. *La télévision et la guerre*, Louvain-la-Neuve, Ina-De Boeck, 2001.
20. *Le contrat de communication dans une perspective langagière: contraintes psychosociales et contraintes discursives*, in *Psychologie sociale et communication* (dir. M. Bromberg et A. Trognon), Ed. Dunod, Paris, 2004. consulté le 16 mars 2017 sur le site de *Patrick Charaudeau - Livres, articles, publications*, URL: <http://www.patrick-charaudeau.com/Le-contrat-de-communication-dans,89.html>.

21. **Le Discours d'information médiatique: la construction du miroir social**, Ed. Nathan (Coll. Médias-recherches), Paris, 1997.
 22. Pour une interdisciplinarité "focalisée" dans les sciences humaines et sociales, in Questions de Communication, n°21, 2012.
 23. **Dubuc** (Robert), Manuel pratique de terminologie, Linguattech (Montréal Québec, I)/ CILF (Paris), 1980.
 24. **Encarta**, Mot-clé : embrayeurs, Section : terminologie, in © 2006. © 1993-2005 Microsoft Corporation.
 25. **Fleury** (Béatrice) et Walter (Jacques), « Interdisciplinarité, interdisciplinarités », *Questions de communication* [En ligne], 18 | 2010, mis en ligne le 01 décembre 2012, consulté le 03 mars 2017. URL : <http://questionsdecommunication.revues.org/409>.
 26. **Galisson** (Robert), Regards croisés sur l'usage des technologies pour l'éducation : La disciplinarité (partie 1), ELA, n° 134 (Usage des nouvelles technologies dans l'enseignement des langues étrangères : Colloque UNTELE de l'Université de Technologie de Compiègne, les 28-30 mars 2002), Ed. Klincksieck, Paris, Avril-juin 2004, (p.137-150).
- Jeanneret** (Yves),
27. *Écrire la science : formes et enjeux de la vulgarisation*, Ed. PUF (Coll. Science, histoire & société), Paris, 1994, p.14. P. Bourdieu et J.-C. Passeron, *La Reproduction*, Ed. Minuit, 1970.
 28. Le choc des mots : pensée métaphorique et vulgarisation scientifique, *Communication et langages*, n°93, CELSA Paris-Sorbonne, juillet-septembre, 1992.
 29. **Lerat** (Pierre), **Langue de spécialité**, Ed. PUF, Paris, 1995.
 30. **Niderst** (Alain), Les Lettres anglaises de Voltaire : une vulgarisation méthodique et imprudente, *Revue d'histoire des sciences*, T.44 / n°3-4, Ed. PUF, Paris, 1991. (p.313-323).
 31. **Le Robert**, Le Petit dictionnaire de la Langue Française : dictionnaire alphabétique et analogique de la langue française. Ed. Dictionnaires le Robert, Paris, 2004.

32. **Steiner** (Georges) et **Ladjali** (Cécile), *Eloge de la transmission : Le maître et l'élève*, Ed. Albin Michel (Bibliothèque Idées), Paris, 2003.
33. **Merleau-Ponty** (Maurice), *La phénoménologie de la perception*, Paris, Ed. Gallimard (Coll. NRF / Bibliothèque des idées), Paris, 1945.
34. **Burgelin** (Olivier), *Barthes et le vêtement*, *Communications*, n° 63 (Parcours de Barthes), Paris, 1996, (p.81-100).
35. Sauvageot, *Du mot*, in *La structure du langage*, Ed. Publications de l'Université de Provence, Aix-en-Provence, 1992, (p. 127-135), p.127.
36. **Pêcheux** (Michel) et **Fuchs** (Catherine), *Mises au point et perspectives à propos de l'analyse automatique du discours*, *Langages*, n° 37, CNL, Ed. Larousse/Armand Colin, Paris, 1975, (p. 7-80).
37. **Rosnay** (Joël de -), *L'écologie et la vulgarisation scientifique : de l'égocitoyen à l'écocitoyen*, Ed. Fides / Musée de la civilisation, Montréal, 1994.
38. <http://www.reseau-canope.fr/docsciences/Maitriser-l-energie-informer-et-convaincre.html>
39. Accueil > Les numéros Junior > DocSciences Junior n°3 : L'énergie De nouveaux horizons
40. <http://webo.refad.ca> (cliquer sur : amorcer la recherche. Type de publication : revue)
41. <https://www.youtube.com/watch?v=5qZnZrbjwcw>
42. <http://www.patrick-charaudeau.com/>

أثر المعنى في توجيه الإعراب

The Influence of Meaning in Guiding Parsing

إعداد: سندس فائق بارودي طالبة دراسات عليا (ماجستير) في جامعة البعث-قسم اللغة العربية-الشعبة اللغوية إشراف: أ. د سمير معلوف.

Prepared by: **SNDOS FAEQ BAROUDI**, an (MA) student at Al-Baath University, Department of Arabic, Section of Linguistics. Supervised by: **Dr. SAMIR MAALOUF**

Abstract

Meaning holds a high place in grammar lessons, whereas words are only an expression of meaning. This research attempts to highlight the effectiveness of meaning in guiding linguistic Parsing, (syntax analysis, or syntactic analysis), especially when Poly-parsing (multiple Parsing aspects) occurs, depending on linguistic interest, and completing and clarifying meaning which are the main purposes of the research in the Grammar lesson.

As Parsing is the measure that distinguishes the correctness from wrongness of meaning, and without it the methods are similar and the meanings are twisted, so their aims and dimensions become misunderstood. Thus, it is necessary to highlight the importance of Parsing in clarifying the meaning and disclosure of what the speaker intended, and to emphasize the place of Parsing in language lessons as one of the clues that helps to explain the meaning and remove the confusion. Because Parsing is a branch of meaning, this confirms unquestionably that the syntactic industry and meaning were matched by the view of linguists in response to those who claimed otherwise.

This research shows the effect of meaning and its place in grammatical lessons, especially in directing the analysis and pointing at the desired face of the possible aspects of the name, which indicates that the grammatical thought has evolved to a stage of careful study about the many meanings of the word performed by the difference in sentence structure, and by the same structure of different analysis expressing those meanings.

Key words: meaning, Parsing, clues.

ملخص

يتبوأ المعنى مكانة عالية في الدرس النحوي، أمّا الألفاظ فليست إلاّ تعبيراً عن المعنى، يحاول البحث إبراز فاعلية المعنى في توجيه الإعراب ولاسيما عند تعدّد الأوجه الإعرابية؛ على أساس أنّ الفائدة وتمام المعنى وإيضاحه هي الغاية الأساسيّة للبحث في الدرس النحوي.

ولمّا كان الإعراب المقياس الذي يميّز صحّة المعنى من خطئه وبدونه تتشابه الأساليب، وتلتوي المعاني فلا تدرك مراميها وأبعادها؛ كان لابدّ من إبراز أهمية الإعراب في إيضاح المعنى والإفصاح عمّا يقصده المتكلّم والتأكيد على مكانة الإعراب في الدرس اللغوي باعتباره واحداً من القرائن التي تساعد على إيضاح المعنى وإزالة اللبس؛ فالإعراب فرع المعنى، وهذا يؤكّد بما لا يدع مجالاً للشك أنّ نظرة النُّحاة كانت توائم بين الصناعة النحويّة والمعنى رداً على من ادّعى خلاف ذلك.

خلص البحث إلى إبراز الأثر البيّن للمعنى ومكانته في الدرس النحوي ولاسيما في توجيه الإعراب، وبيان الوجه المراد من الأوجه التي يحتملها الاسم ممّا يدلّ على تطوّر الفكر النحوي تطوّراً ارتقى إلى مرحلة النّظر الدقيق في المعاني الكثيرة التي يؤدّيها الاختلاف في تركيب الجملة، والمعاني التي يؤدّيها التركيب الواحد باختلاف الأوجه الإعرابية المعبّرة عن تلك المعاني.

الكلمات المفتاحيّة: المعنى، الإعراب، القرائن.

المقدمة:

يتبوأ المعنى مكانة عالية في التفسير اللغوي، فكلّ قول يفيد معنىً، وهذا يفسّر اهتمام نحاة العربيّة بتفسير الألفاظ المفردة، وتوضيح المعنى المراد من الكلام العربي، ويمكن القول إنّ المعنى كان ماثلاً أمامهم منذ قيام أبي الأسود الدؤلي بنقط المصحف الشّريف، فقد جعل تلك النُّقطة دلالاتٍ على رفع الكلمة أو نصبها أو جرّها، وما يتبع ذلك من معانٍ وظيفيّة، وكان منهج أئمة اللغة في تدوين مصنّفاتهم للمرحلة الأولى من هذا العلم يراعي جانب المعنى ويجعله عنصراً أساسياً في تدوين قواعد اللغة، ويثبت ذلك قول أبي عمر الجرمي (ت225هـ): أنا منذ ثلاثين سنة أفتي النَّاسَ في الفقه من كتاب سيبويه، وتجد هذه العبارة صداها عند أبي إسحاق الشاطبي (ت790هـ) الذي يقول معقّباً: "كتاب سيبويه (ت180هـ) يُتعلّمُ منه النّظرُ والتفتيشُ، والمرادُ بذلك أنّ سيبويه وإن تكلم في النّحو، فقد نبّه في كلامه على مقاصد العرب وأنحاء تصرفاتها في ألفاظها ومعانيها، ولم يقتصر فيه على بيان أنّ الفاعل مرفوع، والمفعول منصوب، ونحو ذلك، بل هو يبيّن في كلّ باب ما يليق به حتّى إنّه احتوى على علم المعاني والبيان ووجوه

تصّرفات الألفاظ والمعاني، ومن هناك كان الجرمي على ما قال، وهو كلام يروى عنه في صدر كتاب سيبويه من غير إنكار¹.

وهذه الظاهرة واضحة في كتاب سيبويه، فأبواب الكتاب تنبئ عن الغرض الذي من أجله وُضِعَ الكتاب، فمن أبوابه مثلاً: (باب اللفظ للمعاني)، الذي يقول فيه: "اعلم أنّ من كلامهم: اختلاف اللفظين لاختلاف المعنيين واختلاف اللفظين والمعنى واحد، واتفاق اللفظين واختلاف المعنيين"² و(باب وقوع الأسماء ظرفاً وتصحيح اللفظ على المعنى)³.

ونمّّل لاهتمام سيبويه بالمعنى بما ذكره من عدم جواز مجيء اسم (كان) وخبرها نكرتين. يقول: "وإذا قلت: (كان رجلٌ ذاهباً) فليس في هذا شيءٌ تُعَلِّمُهُ كان جَهْلُهُ، ولو قلت: (كان رجلٌ من آل فلانٍ فارساً) حَسُنَ؛ لأنَّه قد يَحْتَاجُ إلى أن تُعَلِّمَهُ أنّ ذلك في آل فلان وقد يَجْهَلُهُ، ولو قلت: (كان رجلٌ في قومٍ عاقلاً) لم يَحْسُنَ؛ لأنَّه لا يُسْتَنَكِرُ أن يكون في الدنيا عاقلاً وأن يكون من قوم. فعلى هذا النَّحو يَحْسُنُ وَيَقْبَحُ⁴، بينما يردف المبرد (ت285هـ) قائلاً: "ألا ترى أنّك لو قلت: (كان رجلٌ قائماً) و(كان إنسانٌ ظريفاً) لم يُفد بهذا المعنى؛ لأنَّ هذا مما يعلم النَّاسُ أنّه قد كان وأنه مما يكون، وإنَّما وضع الخبرة للفائدة"⁵.

وتتابعت جهود العلماء في اهتمامهم بالمعنى وتجلّت على نحو خاص في بحوثهم اللغوية والنحوية، وفيما صنّفوه من كتب في معاني القرآن ومجازة وإعرابه، وفيما صنّفوه من معجمات لتفسير معاني الألفاظ وبيان وجوه معاني القراءات ودراسة الوجوه والنظائر⁶ وها هو ابن جني (ت392هـ) يؤكّد عناية العرب بالمعنى في خصائصه فقد عقد باباً بعنوان: (باب في الرّد على من ادّعى على العرب عنايتها بالألفاظ وإغفالها المعاني). يقول: "اعلم أنّ هذا الباب من أشرف فصول العربية وأكرمها، وأعلاها، وأنزهها، وإذا تأمّلتَه عرفت منه وبه ما يُؤنِّقُك، ويذهب في الاستحسان له كل مذهب بك، وذلك أنّ العرب كما تعنى بألفاظها فتُصَلِّحُها وتهذِّبُها وتراعمها، وتلاحظ أحكامها، ... فإنَّ المعاني أقوى عندها، وأكرم عليها، وأفخم قدراً في نفوسها ... فإذا رأيت العرب قد أصلحوا ألفاظها وحسّنها، وحمّوا حواشئها وهذّبوها ... فلا تَرَيْنَ أنّ العناية إذ ذاك إنّما هي بالألفاظ بل هي عندنا خدمةٌ منهم للمعاني، وتنويه بها وتشريف منها"⁷.

¹ الموافقات، أبو إسحاق الشاطبي، تج: بكر بن عبدالله أبو زيد، دار ابن عقّان، المملكة العربية السعودية، ط1، 1471-1997، 5/54.

² الكتاب، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، تج: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، د. ط، د. ت، 24/1.

³ نفسه، 216/1.

⁴ نفسه، 54/1.

⁵ المقتضب، أبو العباس المبرّد، تج: محمد عبد الخالق عزيمة، القاهرة، 1415-1994، 88.

⁶ ينظر الفهرست، محمد بن إسحاق النديم، تج: رضا تجدد، ص: 37 وما بعدها.

⁷ الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني، تج: محمد علي النجار، دار الكتب المصرية، د. ت، 215-217.

وتجلى اهتمام النحاة بالمعنى في طرائق تفكيرهم النحوي سواءً في بحثهم في الأفراد والتثنية والجمع، التأنيث والتذكير، وبحثهم في دلالات الأحوال الإعرابية المختلفة، وتمييزهم بين دلالات الجمل الاسميّة والفعلية وأساليب الكلام بما يشتمل عليه من معانٍ دقيقة تختصُّ بكلِّ منها.

وعناية النحويين واهتمامهم بالمعنى جعلهم يهتمون بدراسة الأدوات أو الرّوابط التي بين المفردات والجمل، ولم يكتفِ المتأخرون بتناول المتقدمين لها في بطون مصنّفاتهم من خلال أبواب النحو المختلفة، ولكنهم أفردوها بتصانيف خاصة¹ ويرجع اهتمام النحويين بدراسة هذه الأدوات إلى مالها من أهمية كبيرة في فهم أساليب اللغة وإدراك أسرارها وبيان روعتها وتوقّف المعنى عليها، يقول المرادي (ت 749هـ): "لما كانت مقاصد كلام العرب على اختلاف صنوفه مبنياً أكثرها على معاني حروفه صُرّفت الهمم إلى تحصيلها ومعرفة جملتها وتفصيلها وهي مع قلّتها وتيسّر الوقوف على جملتها قد كثرت دورها وبعُد غورُها، فعزّت على الأذهان معانيها، وأبّت الإذعان إلا لمن يعانها"² وهكذا بدا لنا جلياً ارتباط المعنى بالتفسير النحوي، الأمر الذي جعل ابن الشجري (ت 542هـ) يحلّه محلاً حسناً، فذكره في قائمة الوسائل التي يسلكها النحوي لتخريج تركيب ما³ وسيحاول البحث إبراز دور المعنى في توجيه الإعراب؛ لأنّ الفائدة وتمام المعنى وإيضاحه الغاية الأساسيّة للبحث في الدرس النحوي.

أولاً: الإعراب: هو الإفصاح والإبانة والإيضاح في اللغة، وهو الأثر الذي يجلبه العامل، وقد أصبح هذا الأثر من أبرز خصائص العربية، ووسيلة من وسائل إظهار المعنى، والنصوص التي تعلي من شأن الإعراب في الدلالة على المعاني في مصنّفات الأوائل كثيرة لا تحصر⁴، فالإعراب من أبرز خصائص العربية، بل هو سر جمالها، وقد أمست قوانينه وضوابطه هي العاصمة من الخطأ، وقصة الأعرابي الذي طلب إقراءه شيئاً من القرآن الكريم في عهد عمر بن الخطاب (ت 23هـ) تدلُّ على ذلك، فقد قرأ مقرئه قول الله تعالى: "أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ"⁵ بجرّ (رسوله) فقهم منها ذلك الأعرابي تبرؤ الله عزّ وجلّ من رسوله عليه الصلّاة والسّلام، فقال: إن كان الله قد تبرأ من

¹ ومن أشهرها: (معاني الحروف) للروماني، (كتاب اللامات) الزجاجة (337-هـ)، (الأهوية) للبهري، (رصف المباني في حروف المعاني) للمالقي (ت 702هـ)، (الجنى الداني) للمرادي (749-هـ)، (مغني اللبيب) لابن هشام (761هـ)

² الجنى الداني في حروف المعاني، الحسن بن قاسم المرادي، تح: فخر الدين قباوة، وآخرون، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط 1، 1413-1992، مقدمة الكتاب، ص: 19.

³ الإعراب والتركيب بين الشكل والنسبة، دراسة تفسيرية، محمود عبد السلام شرف الدين، دار مرجان القاهرة، ط 1، 1404-1984، ص: 22.

⁴ ينظر على سبيل المثال: الخصائص: 35/1، مشكل إعراب القرآن، مكي بن أبي طالب، تح: ياسين محمد السواس، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، 1394-1، 12/1974، الصاحبي في فقه اللغة العربية، أبي الحسن أحمد بن فارس الرازي، تح: عمر فاروق الطباع، مكتبة المعارف، بيروت، ط 1، 1414-1993، ص: 43، الإيضاح في علل النحو، أبو القاسم الزجاجة، تح: مازن المبارك، دار النفائس، بيروت، ط 3، 1399-1979، ص: 69-70.

⁵ سورة التوبة: 3.

رسوله فأنا أبرأ ممن برئ الله منه، وعندما قرئت له بالرفع¹ أدرك المعنى الصحيح²، فالفهم الصحيح لكلام العرب وما تحمله من معانٍ مختلفة لا يتم إلا من خلال الإعراب الذي يظهر المعنى ويكشف الستار عن أسرار التعبير وما يتضمّنه الكلام العربي من بلاغة الإيجاز وما هو ابن قتيبة (ت276هـ) يبرز مكانة الإعراب في العربية بقوله: "ولها الإعراب الذي جعله الله وشياً لكلامها وحليةً لنظامها وفارقاً في بعض الأحوال بين الكلامين المتكافئين، والمعنيين المختلفين كالفاعل والمفعول لا يُفرّق بينهما إذا تساوت حالهما في إمكان الفعل أن يكون لكل واحد منهما إلا الإعراب، ولو أنّ قائلًا قال: (هذا قاتلٌ أخي) بالتنوين، وقال آخر: (هذا قاتلٌ أخي) بالإضافة، لدلّ التنوين على أنّه لم يقتله، ودلّ حذف التنوين على أنّه قد قتله"³ فالألفاظ مغلقة على معانيها حتى يكون الإعراب هو الذي يفتحها ويستخرج الدرر الكامنة فيها، فلم يكن الإعراب مجرد علامات لفظية بل هو وسيلة لإيضاح المعنى والإفصاح عمّا يقصده المتكلم⁴. ويتضح تغيّر المعنى بتغيّر الإعراب من خلال قوله تعالى: "وَأْمُرْ أَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ"⁵ فقد قرئ لفظ (حَمَّالَةَ) بالرفع، والنصب مع الإضافة، ووردت قراءة بالنصب مع التنوين (حَمَّالَةَ للخطب)، فأما تفسير قوله (حَمَّالَةَ الخطب) على الرفع: فإنّ الله تعالى أخبر عن امرأة أبي لهب بهذا الوصف وهو حمل الخطب الذي فسّر على الحقيقة بحمل حزم الخطب والشوك الذي كانت ترميه في طريق النبي عليه أفضل الصلوة وأتمّ التسليم⁶ وفسّر على المجاز بالمشي بالنميمة ورمي الفتن بين الناس ويقوي هذا المعنى قول الشاعر⁷:

إِنَّ بَيْ الْأَرْذَمِ حَمَّالُو الْحَطَبِ هُمُ الْوَشَاةُ فِي الرِّضَا فِي الْغَضَبِ

وتفسير قوله تعالى (حَمَّالَةَ الخطب) على قراءة النَّصْب بغير تنوين أنّ هذه المرأة مذمومة بهذه الصفات التي اشتهرت بها فهي لا للإخبار عن صفاتها وإنما ذكرت لشتها وذمها فجاءت الصيغة للدّم لا للتخصيص كما ذكر القرطبي⁸، و(حَمَّالَةَ) مع التنوين تكون حالاً والمراد بها هنا الاستقبال لأنّه ورد في التفسير أنّها تحمل يوم القيامة

¹ وقراءة (رسوله) بالرفع، لأنها معطوفة على جملة والتقدير: إنّ الله بريء من المشركين ورسوله بريء من المشركين، وفي هذا إيضاح للمعنى مع بلاغة الإيجاز، بينما قراءة (رسوله) بالنصب عطفاً على لفظ اسم إنّ ونصبها الزمخشري على أنّها مفعول معه، وخُرِجَتْ قراءتها بالجرّ - وهي قراءة شاذة - بالعطف على الجوار، ينظر: البحر المحيط، محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي، تج: عادل أحمد عبد الموجود، وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 8/1993، 5-1413، والكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، جار الله أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري، تج: عادل أحمد عبد الموجود، وآخرون، مكتبة العبيكان، الرياض، ط1، 1-1418-1998، 11/3.

² ينظر: نزهة الألباء في طبقات الأدباء، أبي البركات الأنباري، تج: إبراهيم السامرائي، مكتبة المنار، الأردن، ط3، 3-1405-1985، ص19.

³ تأويل مشكل إعراب القرآن، ابن قتيبة، تج: السيد أحمد صقر، دار التراث، القاهرة، ط2، 2-1393-1973، ص14.

⁴ ينظر: دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تعليق، محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، د.ط، د.ت، ص28، الإنصاف في مسائل الخلاف، أبي البركات الأنباري، تج: محمد معي الدين عبد الحميد، منشورات جامعة البعث، د.ت، 20/1.

⁵ سورة المسد: 4.

⁶ ينظر: الجامع لأحكام القرآن، أبي عبيد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، تج: عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، ط1، 1-1427-2006، 552/22، البحر المحيط، 527/8، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، أحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي، تج: أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق، د.ط، د.ت، 11/145.

⁷ ينظر: جامع الأحكام، 550/22، البحر المحيط، 528/8.

⁸ ينظر: جامع الأحكام، 553/22.

حزمة من الحطب كما كانت تحمله في الدنيا¹ فإذا كان الإعراب وسيلة للإبانة عن المعنى، فالواضح أنّ الإعراب ذاته مفتقرٌ إلى المعنى، أي لا بدّ من اتخاذ المعنى وسيلة للوصول إلى الإعراب، إذ لا يمكن إعراب ألفاظ الجمل إلا عن طريق فهم العلاقات المعنويّة بين الألفاظ وهذا ما قادهم إلى القول: الإعراب فرع المعنى.

ثانياً: الحركة الإعرابية والمعنى:

ذُكر سابقاً أنّ الإعراب لا يستقيم إلّا بعد فهم المعنى، ولذلك استقرّ في الدرس التّحوي أنّ الإعراب فرع المعنى، والقول بأنّ حركات الإعراب دوالٌّ على المعاني هو قول أكثر النّحويين، يقول الزّجاجي (ت337هـ): "إنّ الأسماء لما كانت تعتورها المعاني فتكون فاعلاً ومفعولاً ومضافةً ومضافاً إليها ولم تكن في صُورها وأبنيتها أدلّةً على هذه المعاني بل كانت مشتركة جُعلت حركات الإعراب فيما تُنبئ عن هذه المعاني"². فالحركة الإعرابية علامة يميّز بها بين المعاني، كالتمييز بين الاستفهام والتعجب، وبين المضاف والمضاف إليه، وبين النّعت والمنعوت ولكّتها ليست القرينة الوحيدة للتمييز بين هذه المعاني، فالقرائن الأخرى كالسّياق والمطابقة والرّتبة والتنغيم تُسهم كذلك في التمييز بين هذه المعاني، ففي قوله تعالى: "إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ"³ دلّ المعنى على أنّ العلماء هم الذين يخافون الله عزّ وجلّ، فالعلماء الفاعل، ولفظ الجلالة المفعول به، فالضّمّة فرضها معنى الجملة وكذلك الفتحة فضلاً عن عامل الفاعليّة والمفعوليّة.

إلّا أنّ تركيز النّحاة على العلامة الإعرابية وعلى أثر العامل فيها من غير قرائن المعنى الأخرى لا يعني إهمالهم لها بل يعود إلى إدراك النّحاة أهمية الإعراب في توجيه دلالة التركيب باعتبار الإعراب السّمة البارزة في نظام العربيّة والحامل لهويتها⁴ والأدلة التي تؤكّد مراعاة النّحاة لهذه القرائن - وإن لم يُنصّ على ذلك صراحة - كثيرة، فهذه القرائن التي أهملها سيبويه - في التنظير لا في التطبيق - هي من الواضح الذي لا يحتاج إلى بيان، وكان لا بدّ بداهة من أن يترك ذكر القرائن المعلومة بالضرّورة: كالصّيغة والدّلالة المعجميّة والإسناد وبعض صور التّقديم والتّأخير وما إلى ذلك مع اعتداده عند التّحليل بجميع قرائن المعنى دون فرق، ففي قوله (هذا عبدُ الله منطلق) الذي ذكر فيه أربعة أوجه لرفع (منطلق)⁵. (وقد ذكر من قبل وجه نصبه على الحال)⁶ كان يراعي بالضرورة الصّيغة أي كون (منطلق) صفة مشبّهة باسم الفاعل كما كان يراعي الرّتبة والتنكير والمعنى المعجمي وتضامّ هذه الكلمة مع الكلمات الأخرى دون أن ينصّ على ذلك؛ لأنّه معلوم لدى القارئ، فإذا نثمة قرائن أخرى تتخذها اللغة ويتّضح من خلالها

¹ ينظر: الدر المصون، 11/ 145.

² الإيضاح في علل النحو، الزجاجي، ص: 69، ينظر: شرح المفصل، ابن يعيش، إدارة الطباعة المنيرية، مصر، 1/ 72.

³ سورة فاطر: 28.

⁴ ينظر: نظام الارتباط والربط في تركيب الجملة العربية، مصطفى حميدة، مكتبة لبنان ناشرون، الشركة المصرية العالمية للنشر لونغمان، ص: 21 وما بعدها، اللغة العربية معناها ومبناها، تمام حسان، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، 1994، ص: 232.

⁵ الكتاب، 2/ 83 - 86.

⁶ ينظر: الكتاب، 2/ 81.

المعنى، وهي واضحة في قول ابن جني: "فإن قلت: قد تقول: ضرب يحيى بشرى... فإذا اتفق ما هذه سبيله، ممّا يخفى في اللفظ حاله، ألزم الكلام من تقديم الفاعل وتأخير المفعول، ما يقوم مقام بيان الإعراب... فإن كان هناك دلالة أخرى من قبل المعنى وقع التصرف فيه بالتقديم والتأخير، نحو: أكل يحيى كمثرى، كذلك ضربت هذا هذه وكلّم هذه هذا، وكذلك إن وضح الغرض بالثنائية والجمع جاز لك التصرف؛ نحو قولك: أكرم اليحييين البشريين، وضرب البشريين اليحييون، وكذلك لو أومأت إلى رجل و فرس، فقلت كلّم هذا هذا فلم يجبه، لجعلت الفاعل والمفعول أيّهما شئت؛ لأنّ في الحال بياناً لما تعني، وكذلك قولك: ولدت هذه هذه من حيث كانت حال الأمّ معروفة¹ فقد ذكر ابن جني في نصّه السّابق خمساً من القرائن اللفظيّة والمعنويّة التي يتّضح من خلالها المعنى وهي:

1- قرينة الرتبة (ضرب يحيى بشرى).

2- قرينة المناسبة المعجميّة (أكل يحيى كمثرى).

3- قرينة المطابقة بين الفعل وفاعله في التذكير والتأنيث (ضربت هذا هذه وكلّم هذه هذا).

4- قرينة الإعراب: ألف المثني وياؤه، وواو الجمع (أكرم اليحييين البشريين، وضرب البشريين اليحييون).

5- قرينة الحال (الموقف): ولدت هذه هذه، فالأكبر سنّاً هي الأمّ والأصغر سنّاً هي البنت ومراعاة هذه القرائن والأخذ بها بعين الاعتبار يلمح في قول الزركشي (-794هـ): "على الناظر في كتاب الله الكاشف عن أسراره، النّظر في هيئة الكلمة وصيغتها ومحلّها، ككونها مبتدأ أو خبر أو فاعلة أو مفعولة أو في مبادئ الكلام أو في جوابٍ إلى غير ذلك من تعريف وتنكير أو جمع قلّة أو كثرة أو غير ذلك ويجب عليه مراعاة أمور أحدها - وهو أول واجب عليه - أن يفهم معنى ما يريد أن يعرّبه مفرداً كان أو مركّباً قبل الإعراب فإنّه فرع المعنى² ويستوقفنا قول الزركشي إذن صيغة الكلمة أو هيئتها - على حدّ تعبيره - ووظيفتها ورتبتها والمطابقة في الجملة وفي التعيين وفي العدد وفي المقام وهذه الأمور كلّها تؤخذ بعين الاعتبار قبل الإقدام على الإعراب؛ لأنّ الإعراب فرع المعنى الذي يراد به المعنى الوظيفي ولعلّ فيما ذكره ابن يعيش (ت 643هـ) بعد حديثه عن العلامة الإعرابيّة وأثرها في المعنى ما يؤكّد أنّ المعنى يتّضح بقرائن أخرى غير الإعراب، يقول: "فإن قيل: فأنت تقول: ضربت هذا هذا، وأكرم عيسى موسى، وتقتصر في البيان على المرتبة، قيل: هذا شيءٌ قادت إليه الضرورة هنا لتغدّر ظهور الإعراب فيهما، ولو ظهر الإعراب فيهما أو في أحدهما، أو وجدت قرينة معنويّة أو لفظيّة جاز الاتساع بالتّقديم والتّأخير³ فالإعراب يعطي المتكلّم سعة في التّعبير، وحرية في الكلام فيقدّم ويؤخّر من دون أن يؤثر على صحة المعنى وسلامته إذ يبقى الكلام مفهوماً، ومثل

¹ الخصائص، 1/ 35.

² البرهان في علوم القرآن، بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار التراث القاهرة، د. ت، 1/ 302.

³ شرح المفصل، ابن يعيش، 1/ 72.

هذه المرونة لا نجدتها في اللغات المبنية وكذلك في العربية فيما لا يتبن فيه إعراب وليس ثمة قرينة تدل على المعنى المقصود فلا بد هنا من مراعاة قرينة المعنى وإلا التبس الكلام¹.

ثالثاً: تعارض المعنى والإعراب:

وهذا المظهر من أهم مظاهر الإشكال في قضية الإعراب، وقد أشار إليه المتقدمون والمتأخرون، وبيّنوا السبيل إلى التخلص من هذا التعارض، وفاضلوا بين المعنى والإعراب، يقول ابن جني في باب تجاذب المعاني والإعراب: "إنك تجد في كثير من المنثور والمنظوم الإعراب والمعنى متجاذبين، هذا يدعوك إلى أمر، وهذا يمنعك منه، فمتى اعتورا كلاماً ما أمسكت بعروة المعنى وارتحت لتصحيح الإعراب"² والشاهد على ذلك ما جاء في قوله تعالى: "إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ* يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ"³ فالرجع - في القول الأظهر - هو البعث بعد الموت، والمعنى: إنّه على رجعه يوم تبلى السرائر لقادر، فيتعلق (يوم) ب(رجع) ولكن هذا المعنى والتقدير يعترضه مانع صناعي وهو الفصل بين الظرف وما تعلق به - وهو خبر إن (قادر) - ؛ ولذا قدرّوا متعلقاً آخر من لفظ (الرجع) وقالوا: إنّه على رجعه لقادر يرجعه يوم تبلى السرائر⁴، فإن قيل: لم لا يتعلق بقادر؟ فالجواب: إنّ في ذلك إشكالاً معنوياً، إذ إنّ قدرة الله على الرجع ليست محدّدة بيوم⁵ وقد علّقه مكي بن أبي طالب (ت 437هـ) ب(قادر)، وقال ابن عطية (ت 546هـ): وإذا توّمل المعنى وما يقتضيه فصيح كلام العرب جاز أن يكون العامل (قادر) وذلك أنّه قال: (إنّه على رجعه لقادر يوم تبلى السرائر) على الإطلاق أولاً وأخيراً وفي كلّ وقت، ثمّ ذكر الله تعالى وخصّص من الأوقات الوقت الأهمّ على الكفّار؛ لأنّه وقت الجزاء فتجتمع النفوس إلى حذره والخوف منه⁶، وقيل: يتعلق (يوم) ب(ناصر) في قوله تعالى: "فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ"⁷ أي فما للإنسان من قوة يردّ عن نفسه بها ولا ناصر ينصره يوم تبلى السرائر⁸ ورُدّ ذلك أيضاً بمانع صناعي فما بعد الفاء لا يعمل فيما قبلها⁹، وما ذكره ابن جني نجد له صدى عند ابن هشام (ت 761هـ) عندما تحدّث عن الجهات التي يُعترض على المعرب من جهتها وكانت الجهة الأولى والثانية منها في تعارض الإعراب والمعنى، فأما الجهة

¹ ينظر: الجملة العربية والمعنى، فاضل صالح السامرائي، دار ابن حزم، بيروت، ط1، 1421-2000، ص53.

² الخصائص، 255/3.

³ سورة الطارق: 8-9.

⁴ ينظر: الخصائص 256/3، الكشف 354/6، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبي محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، تح: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1422-466/5، البحر المحيط 450/8.

⁵ ينظر: المحرر الوجيز 466/5، الدر المصون 755/10، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، جمال الدين ابن هشام الأنصاري، تح: عبد اللطيف محمد الخطيب، دار التراث، الكويت، ط1، 1421-2000، 52/6.

⁶ المجتبى من مشكل إعراب القرآن الكريم، أحمد بن محمد الخراط، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المملكة العربية السعودية، 1426هـ، ص1442. والمحرر الوجيز 5/466.

⁷ سورة الطارق: 10.

⁸ ينظر: الدر المصون: 755/10.

⁹ ينظر البحر المحيط، 8/450.

الأولى منهما فأن يراعي المعرب ما يقتضيه ظاهر الصنعة ولا يراعي المعنى¹: ومثل هذا الاتجاه نجده عند البصريين وابن جني في ترجيح قراءة الرفع في قوله تعالى:

" إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ"² فقد قرأ أبو السَّمال (ت160هـ)³ بالرفع ورجَّح ابن جني قراءته قائلاً: "والرفع هنا أقوى من النَّصب وإن كانت الجماعة على النَّصب وذلك أنه من مواضع الابتداء، وهو مذهب سيبويه والجماعة، وذلك لأنها جملة وقعت في الأصل خبراً عن مبتدأ في قولك: نحن كلُّ شيء خلقناه بقدر، فهو كقولك: هند زيدٌ ضربها، ثمَّ تدخل (إنَّ) فتنصب الاسم، ويبقى الخبر على تركيبه الذي كان عليه من كونه جملة من مبتدأ وخبر⁴ فيرفع ابن جني (كل) هنا على الابتداء على لغة من رفع (عبدالله ضربته) وتكون جملة (خلقناه) خبرها وبقدر متعلق بمحذوف حال.

ويحتمل الرفع وجهاً آخر: فتكون (كلُّ) مبتدأ وجملة (خلقناه) صفة لـ (شيء)، و(بقدر) خبر (كل) ولا تتعلّق بـ (خلقناه) ويكون التقدير: كلُّ شيء مخلوق لنا بقدر، وهذا يقتضي الخصوص في المخلوقات فلا يفيد العموم⁵ ويكون المعنى المترتب على قراءة الرفع: إنَّ كل شيء مخلوق لنا بقدر فأفهم ذلك أنَّ مخلوقاً ما يضاف إلى غير الله تعالى ليس بقدر، وهذا المعنى ينسجم تماماً مع مذهب ابن جني الاعتزالي، ولعلَّ مذهبه هذا جعله يرجِّح قراءة الرفع؛ لأنَّ المعنى المترتب على قراءة النَّصب قاصم لأهل الاعتزال⁶.

أمَّا قراءة النَّصب: فهي قراءة الجمهور⁷ وقد رجَّح الكثيرون نصب (كل) لسببين:

السَّبب الأوَّل: لتلا يتوهم أنَّ الفعل المشتغل بالضمير صفة⁸.

¹ مغني اللبيب، 47-7/6، وقد فصل فيه ابن هشام الحديث عن هذا الموضوع وأغناه بالشواهد المناسبة التي تؤكد أهمية مراعاة المعنى والإعراب معاً. سورة القمر: 49.

² قعنب بن قعنب أبو السَّمال العدوي البصري، قال عنه ابن الجزري: (له اختيار في القراءة شاذ عن العامة) ينظر: غاية النهاية في طبقات القراء، ابن الجزري، طبعة مصححة اعتمدت على الطبعة الأولى للكتاب التي عني بنشرها سنة 1932م ج براجسترس، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 26/2.

³ المحتسب في تبين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، أبي الفتح عثمان بن جني، تح: علي النجدي ناصف وعبد الفتاح إسماعيل الشليبي، القاهرة، 1994-1412، 300/2، ينظر: مشكل إعراب القرآن، مكي بن أبي طالب القيسي، تح: ياسين محمد السواس، دار التراث، دمشق، ط2، 340/2.

⁴ ينظر: البيان في غريب إعراب القرآن، أبو البركات الأنباري، تح: طه عبد الحميد طه، مكتبة لسان العرب، د. ت، 406/2.

⁵ ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، د. ط، د. ت، 133/19.

⁶ البحر المحيط، 181/8، الدر المصون، 146/10.

⁷ يجوز في الاسم المنصوب على الاشتغال وجهان: الرفع على أنه مبتدأ والجملة الفعلية خبره، والوجه الثاني: النصب بفعل يفسره المذكور، وقد يعرض لهذا الاسم المنصوب على الاشتغال ما يوجب نصبه، وما يرجّحه، وما يستوي فيه الرفع والنصب، فمثلاً يختار النصب إذا وقع الاسم بعد حرف النفي وحرف الاستفهام وبعد إذا الشرطية وبعد الأمر والنهي وعند العطف على جملة فعلية وأخيراً - وهو مدار حديثنا - عند خوف لبس المفسّر أي إذا كان الفعل يتوهم فيه الوصف وأنَّ ما بعده يصلح للخبر، وكان المعنى على أن يكون الفعل هو الخبر اختير النصب في الاسم الأول حتى يتضح أنَّ الفعل ليس لوصف ومنه ما جاء في قوله تعالى "إنَّا كل شيء خلقناه بقدر" إذ قراءة الرفع تُخيّل أن الفعل وصف وأنَّ الخبر (بقدر) ينظر: شرح الرضي على الكافية،

والسبب الثاني: (إنّا) عند الكوفيين تطلب الفعل فهي أولى به¹.

ويكون التقدير في قراءة النَّصْب: إنّا خلقنا كلّ شيء خلقناه بقدر، (فخلقنا) تأكيد وتفسير لـ (خلقنا) المضمر النَّاصِب لـ (كل) وعند حذفه وإظهار الفعل الأوّل يصبح التقدير: (إنّا خلقنا كلّ شيء بقدر) وجملة (خلقناه) ليست صفة لـ (شيء)؛ لأنّ الصّفة والصّلة لا يعملان فيما قبل الموصوف ولا الموصول ولا يكونان تفسيراً لما يعمل فيما قبلها، وهكذا تكون جملة (خلقناه) تفسيراً للمضمر النَّاصِب في (كل) ويفيد بذلك معنى العموم² فلمّا أفادت قراءة النَّصْب عموم خلق الأشياء -خيرها وشرّها بقدر- كانت هذه الآية حجة على المعتزلة وكانت هذه الفائدة المعنويّة لا توازيها الفائدة اللفظيّة في قراءة الرّفْع عدلوا عن قراءة الرّفْع إلى النَّصْب لمجيء المعنى واضحاً، فلما اجتمع للكوفيين تقدّم عامل نصب اقتضى ذلك إضمار فعل مع إفادة معنى العموم والخروج عن الشّبّه كان النَّصْب عندهم أولى من الرّفْع³ بينما أجمع البصريون على أنّ الرّفْع أجود؛ لأنّه لم يتقدّمه ما يقتضي إضمار ناصب⁴ فالبصريون راعوا مقتضى الصّناعة النّحويّة وأهمّلوا جانب المعنى الذي أفادته قراءة النَّصْب. ولما كان باب الاجتهاد مفتوحاً على مصراعيه والعلماء لا يعرفون الحجر على الآراء ولا تقديس رأي الفرد مهمّاً علت منزلته فقد وجّه ابن الشجري (ت: 542هـ) نصب (كل) توجيهاً آخر، فهي عنده بدل احتمال من اسم (إنّ)؛ لأنّ الله محيط بمخلوقاته، فيكون التقدير: (إنّ كلّ شيء خلقناه بقدر) ويكون قوله تعالى: (خلقناه) صفة لـ (شيء) و (بقدر) خبر (إنّ)⁵ وبهذا التوجيه يكون ابن الشجري قد راعى المعنى والصّناعة التي ترى أنّ عدم التقدير أولى.

فمراعاة المعنى هنا رجّحت قراءة النَّصْب، ومن بلاغة القرآن الكريم أن نجد في السّورة ذاتها، وفي مكانين متقاربين المعنى يوجب قراءة الرّفْع؛ لأنّ نصبه يؤدي إلى فساد المعنى، وذلك في قوله تعالى: "وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ"⁶ فلم يُختلف هنا في رفع (كل)؛ لأنّ نصبها يجعل التقدير: فعلوا كلّ شيء في الزُّبر، فيفيد بذلك العموم وأنّهم فعلوا كلّ شيء موجود في الزُّبر، وهذا خلاف الواقع، إذ في الزُّبر أشياء كثيرة لم يفعلوها فتكون (كلّ) مبتدأ والفعل

الرضي الاسترأبادي، تح: يوسف حسن عمر، منشورات جامعة قار يونس، بنغازي، ط2، 1996، 544/1، شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1955، 191/1 وما قبلها.

¹ ينظر: مشكل إعراب القرآن، 341/2، الدر المصون، 147/10، شرح الرضي 551/1.

² ينظر: مشكل إعراب القرآن، 341/2، 74-73 / 29، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، محمد الرازي فخر الدين ابن العلامة ضياء الدين، دار الفكر، ط1، 1401-1981، الدر المصون، 147 / 10.

³ ينظر: الكشف، 664/5، مفاتيح الغيب 73/29، الدر المصون 147/10.

⁴ ورجح إمام نحاهم سيبويه النصب على حدّ قولهم: زيداً ضربته، ينظر الكتاب، 148/1، فلم يعتبر سيبويه خوف إلباس المفسر بالصفة مرجحاً لما رآه بعض المتأخرين، شرح الأشموني 191/1، أمالي ابن الشجري، هبة الله بن علي بن محمد بن حمزة الحسني العلوي، تح: محمود محمد الطناحي، مكتبة الخانجي، القاهرة، 90/2 وما بعدها، مغني اللبيب 360/6.

⁵ ينظر: أمالي ابن الشجري، 93/2 - 94.

⁶ سورة القمر: 52.

المتأخر (فعلوه) صفة لـ (كل) أو لـ (شيء) و (في الزبر) خبر (كل) ، وبناء على ذلك يكون المعنى: كل شيء فعلوه هم ثابت في الزبر¹.

أمّا الجهة الثّانية التي قد يعترض على المعرب من جهتها فإن يراعي معنيّاً صحيحاً ولا ينظر في صحة الصناعة²: ومثاله توجيه الزمخشري (ت538هـ) نصب (أياماً) في قوله تعالى: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ"³ فقد نصب (أياماً) بلفظ (الصِّيَام) كما يقتضي المعنى؛ لأنّ الأيام المعدودة هي أيام رمضان بعينها⁴ وأكّد الباقولي (ت543هـ) أنّ المعنى يقتضي نصبها بلفظ (الصِّيَام) إلّا أنّ الصنّاعة تمنع ذلك؛ لأنّ الصِّيَام مصدر فلو كان عاملاً في قوله (أياماً) لم يجز الفصل بينه وبين (أيام) فتأوّل انتصابه بفعل مضمر تقديره (صوموا)، وحذف الفعل (صوموا)؛ لأنّ قوله (كتب عليكم الصيام) يدلّ عليه⁵. وهذا يؤكّد بما لا يدع مجالاً للشكّ بأنّ الفهم الصحيح للنصوص القرآنيّة يجب أن يراعي جانبي المعنى والإعراب، فهما صنوان لا يفترقان، فيكون الاعتبار الأوّل للمعنى، و الاعتبار الثّاني للأصول والقواعد النحويّة، (وقد كان سبويه يحرص الحرص كلّهُ على أن يصحّح المعنى قبل أن يصحّح الإعراب، وعنايته به قبل عنايته باللفظ، ولو أنّه تعارض أقوى الرّأيين إعراباً مع المعنى الذي يقتضيه الحال رجع إلى الأقوى مادام المعنى يأتلف به ويترد معه"⁶؛ لأنّ نظرة النُّحاة كانت توائم بين الصنّاعة والمعنى، وتؤكّد أثر المعنى في تحليل الظواهر النحويّة وتوجيه الإعراب، والنّاظر في خصائص ابن جني يلاحظ حرصه على بيان ارتباط الإعراب بالمعنى ارتباطاً وثيقاً، فالنُّحاة عند وضع قواعدهم راعوا جانب المعنى وأمثلة ذلك في أبواب الخصائص كثيرة⁷.

تعدد الأوجه الإعرابيّة :

بدت هذه الظاهرة واضحة جليّة ولا سيما في الكتب التي اختصّت بدراسة الشواهد الشّعريّة فعرضت آراء النُّحاة واختلافاتهم في التوجيه الإعرابي الذي ارتبط ارتباطاً وثيقاً بتوجيه المعنى وأمام بلاغة القرآن وأساليبه المعجزة بدت هذه الظاهرة أكثر وضوحاً وربّما يعود ذلك إلى كثرة الدّراسات التي تناولت تفسير القرآن الكريم وإعرابه وكشف وجوه الإعجاز فيه ويرجع الشّيخ محمد عبد الخالق عزيمة هذا التّعدّد إلى أمرين: أحدهما: أسلوب القرآن المعجز الذي احتمل الكثير من المعاني والكثير من الأوجه الإعرابيّة.

¹ ينظر: الدر المصون؛ 10/149، شرح الكافية 1/560-561، شرح الأشموني 1/191

² مغني اللبيب، 6/48-70

³ سورة البقرة، 183-184.

⁴ ينظر: الكشف، 1/179.

⁵ ينظر: كشف المشكلات وإيضاح المضلات، أبي الحسن علي بن الحسين الأصبهاني الباقولي، تج: محمد أحمد الدالي، مطبعة الصباح، دمشق، د. ط 1415-1994/136.

⁶ المعنى والإعراب عند النحويين ونظرية العامل، عبد العزيز عبده أبو عبد الله، منشورات الكتاب والتوزيع والإعلان والنشر، طرابلس، الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية، ط1، 1391-1982، ص: 307 وما بعدها.

⁷ ينظر الخصائص مثلاً: باب نقض المراتب، 1/293، باب الحمل على العربية 2/411، باب تجاذب المعاني والإعراب 3/255، باب في التفسير على المعاني دون اللفظ، 3/260.

والثاني: فتح باب الاجتهاد على مصراعيه، إذ لا يعرف العلماء الحجر على الآراء ولا تقديس رأي أي فرد مهما علت منزلته¹.

وقد تعدد الأوجه الإعرابية، وكلٌّ منها يوجّه المعنى توجهاً مختلفاً، ولا يوجد ما يرجح وجهاً دون غيره، فيلجأ المعرب إلى ذكر الأوجه الإعرابية جميعها، ومثال ذلك ما جاء في قوله تعالى: "الَّذِي يُوسُّوسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ"² فقد احتملت كلمة (الذي) ثلاثة أوجه من الإعراب:

الوجه الأول: أن تكون (الذي) خبراً لمبتدأ محذوف تقديره (هو)³، فالله تعالى يحذّر عباده من الشيطان فيخبرهم بأن الشيطان هو الذي يوسوس في صدور الناس، فيتوجّب علينا أن نتعوّذ من شرّه.

الوجه الثاني: أن تعرب (الذي) مفعولاً به لفعل محذوف تقديره (أذمّ)، فبعد أن أطلق الله تعالى على الشيطان لفظ (الوسواس) مبالغة في وسوسته، ذمّه على فعله القبيح، وقد بيّن الله تعالى أنّ الوسواس يمكن أن يكون من الجنّ والإنس، وذلك في الآية الأخيرة من قوله: (من الجنّة والناس)⁴ فذمّ الله تعالى لا يقتصر على شياطين الجنّ بل يمتد إلى شياطين الإنس ممّن يفعل نفس فعل الشيطان فيوسوس في صدور الناس من خلال إلقاء الشبه والعداوة والكفر بين الناس⁵.

الوجه الثالث: أن تكون (الذي) في محل جر بدل من (الوسواس الخناس) في قوله تعالى: "مَنْ شَرَّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ"⁶ أو جر صفة لـ (الوسواس الخناس).

ومعنى البدلية أنّ الله تعالى بيّن أنّ الشيطان هو الذي يوسوس في صدور الناس، وبناء عليه يكون التقدير: من شرّ الذي يوسوس في صدور الناس أي تكون الاستعاذة بالله من الذي يوسوس في صدور الناس.

وقد يكون (الذي) صفة الوسواس فذكر الله الشيطان بأهم صفة تميّزه - وهو كونه يوسوس في صدور الناس - لتقريب صورة الوسوسة كي يتّقيها المرء إذا اعترته لخفائها؛ لأنّ مكان إلقاء الوسوسة هو صدور الناس وبواطنهم بدليل قوله تعالى: (الَّذِي يُوسُّوسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ * مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ)⁷.

وبذلك يكون تعدد الأوجه الإعرابية قد أثمر عن معاني متعددة أثرت المعنى ووضّحته.

¹ ينظر: دراسات لأسلوب القرآن الكريم، محمد عبد الخالق عزيمة، دار الحديث، القاهرة، 13/1-14.

² سورة الناس: 5

³ ينظر: إعراب القرآن، أبو جعفر النحاس، تج: زهير غازي زاهد، عالم الكتب، ط2، 1985-1405، 316/5، فتح القدير، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، اعتنى به: يوسف العواش، دار المعرفة، بيروت-لبنان، ط4، 1428-2007، ص1672.

⁴ سورة الناس: 6.

⁵ ينظر روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، د.ط، د.ت، 287/30، النكت والعيون، أبي الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري، راجعه وعلّق عليه: السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د.ط، د.ت، 379/6.

⁶ سورة الناس: 4.

⁷ ينظر: التحرير والتنوير، سماحة الأستاذ الإمام الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، دار التونسية للنشر، تونس، 1984، 634/30، نظم الدرر، 22/

والشاهد الثاني قول الله تعالى: " أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ " ¹ فقد قرئت (يعلم) بالنَّصْب والرَّفْع والكسر على الجزم، وكلَّ قراءة وَجَّهت المعنى توجيهاً مختلفاً.

فأمَّا قراءة النَّصْب: فقد قرأ الجمهور (يعلم) بالنَّصْب ، وللنَّصْب وجهان:

الوجه الأوَّل: نصب (يعلم) على إضمار (أن) عند البصريين وعلى الصَّرْف عند الكوفيين ² كقولك: (لا تأكل السمك وتشرب اللبن) فالمراد بجزم الفعل الأوَّل ونصب الفعل الثاني النَّهْي عن أكل السمك وشرب اللبن مجتمعين لا منفردين، فلو طعم كلَّ واحد منهما منفرداً لما كان مرتكباً للنَّهْي ³، كذلك في قوله تعالى: أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمِ الصَّابِرِينَ: لا يجتمع دخول الجنَّة وترك المصابرة على الجهاد، وممَّا يَرِجُّهُ أَنَّ الآية نزلت توبيخاً للمنهزمين في معركة أحد الذين جاهدوا ولكنهم لم يصبروا بما فيه الكفاية ⁴.

والوجه الثاني للنَّصْب: قيل أَنَّ الفتحة فتحة التقاء الساكنين، والفعل مجزوم، فلمَّا وقع بعده ساكن آخر احتيج إلى تحريك آخره، فكانت الفتحة أولى؛ لأنَّها أخفُّ للإتباع لحركة اللام، والأوَّل هو الوجه ⁵.

وأما قراءة الجزم: فقد قرأ الحسن ويحيى بن يعمر وأبو حيوة وعمرو بن عبيد بالجزم عطفاً على قوله تعالى: (ولمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ) وحرَّكت بالكسر منعاً لالتقاء الساكنين ⁶ وجاءت قراءة الجزم على نيَّة تكرار أداة النفي، لتفيد نفههما معاً؛ ويكون المعنى بأنَّ الجهاد بلا صبر لا فائدة منه ولا اعتبار له.

وأما قراءة الرَّفْع: فلها وجهان:

الوجه الأوَّل: الرَّفْع على الاستئناف، والتقدير: (هو يعلم الصابرين) فيجازيهم الله على صبرهم ⁷.

الوجه الثاني: (الواو) عند الزمخشري حاليَّة، وجملة (يعلم) في محل نصب حال، كأنَّه قيل: ولمَّا تجاهدوا وأنتم صابرون ⁸ واعترض أبو حيَّان على كلامه؛ لأنَّ واو الحال لا تدخل على الفعل المضارع إلَّا أن يؤوَّل الفعل المضارع

¹ آل عمران: 142.

² الصَّرْف عند الكوفيين يعني أَنَّ هذا الفعل من حقِّه أن يعرب إعراب ما قبله، فلمَّا جاءت الواو صرفته إلى وجه آخر في الإعراب، وقد اختلف نحاة البصرة والكوفة في عامل النصب في الفعل المضارع بعد واو المعية، فالعامل عند الكوفيين هو الصَّرْف، وعند البصريين أن المضمر بعد الواو، ينظر: الإنصاف المسألة الخامسة والسبعون، 2/555.

³ ينظر: الدر المصون، 3/411، الهداية إلى بلوغ النهاية، ص 1137، الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية، سليمان بن عمر العجيلي الشافعي الشهير بالجمل، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، د.ط، د.ت، 1/318، التفسير البسيط، أبي الحسن علي بن أحمد بن محمد الواحدي، تح: أحمد بن صالح الحمادي وآخرون، جامعة الملك محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، 1430، د.ط، 6/31 وما بعدها.

⁴ ينظر: مفاتيح الغيب، 9/20، التفسير البسيط، 6/34، الفتوحات الإلهية، 1/318.

⁵ ينظر: الدر المصون 3/411، الفتوحات الإلهية، 1/318.

⁶ اتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر، شهاب الدِّين أحمد بن محمد بن عبد الغني الدمياطي الشهير بالبناء، وضع حواشيه: الشيخ أنس مهرة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1419-1998، ص: 229، مختصر من شواذ القرآن من كتاب البديع، ابن خالويه، مكتبة المتنبي، القاهرة، د.ط، د.ت، ص: 29، الهداية إلى بلوغ النهاية، ص 1137.

⁷ ينظر: البحر المحيط، 3/73، الدر المصون، 3/411.

⁸ الكشاف، 1/634.

على أنه خبر لمبتدأ محذوف تقديره (هو يعلم الصابرين)¹ وأنكر السمين الحلبي على أبي حيّان العموم في كلامه؛ إذ ينبغي أن يحدّد كلامه بأنّ واو الحال لا تدخل على الفعل المضارع المثبت أو المنفي بـ (ما و لا)؛ لأنّها تدخل على الفعل المضارع المنفي بـ (لم و ما)² والمعنى المستفاد من قراءة الرّفْع أنّ سعادتي الدُّنيا والآخرة لا تجتمعان معاً، فبقدر ما يزداد حبُّ أحدهما في قلب المرء ينقص الآخر؛ لأنّ سعادة الدُّنيا تجعل الفرد يلهث وراء ملذاتها ومتعتها الرّائفة بينما تستدعي سعادة الآخرة أن يطهر المرء قلبه من حبِّ الدُّنيا ويملأه بحبِّ الله والشّوق إلى لقائه طمعاً في نعيم الآخرة، وبناء على ما ذكر فإنّ سعادة الدُّنيا والآخرة لا تجتمعان فهذا السّرُّ وقع الاستبعاد الشّدِيد في الآية من اجتماع الفوز بالجنّة بترك الصّبر على الجهاد وتحمُّل ابتلاءات الدُّنيا ومشقاتها³ بينما ذهب الرّمخشري إلى أنّ المراد نفي الجهاد فيما مضى وعلى توقُّعه في المستقبل؛ لأنّ (لمّا) تفيد نفي حدوث الفعل في الماضي وتوقُّع حدوثه في المستقبل نحو قولهم: (وعدني أن يفعل كذا ولمّا) يريد: ولم يفعل وأنا أتوقُّع فعله، وأنكر أبو حيّان على الرّمخشري - ما قاله في (لمّا) - وإن كان قد وجد ما يقاربه في كلام الفرّاء: (لمّا لتعريض الوجود بخلاف لم) بينما انتصر السمين الحلبي للرّمخشري بقوله: "فالتحوُّون إنّما فرّقوا بينهما من جهة أنّ المنفي بـ (لم) هو فعل غير مقرون بـ (قد) و (لمّا) نفي له مقروناً بها، وقد تدلُّ على التّوقع فيصحُّ كلام الرّمخشري من هذه الجهة"⁴. فقد تعددت هنا الأوجه الإعرابيّة وكلّها جائزة ولم يرّجح معربو القرآن وجهاً دون غيره بينما نجد أحياناً أخرى تفاوت الأوجه الإعرابيّة قوة وضعفاً. فيختار المعرب وجهاً دون غيره؛ لأنّه يراه أنسب للمعنى المراد، وربّما يختار أحدهم وجهاً ضعيفاً، لكنّه جاء على الوجه الصّحيح، وقد تناول ابن جني هذه الفكرة في خصائصه تحت عنوان: (باب في اللفظ يرد محتملاً لأمرين أحدهما أقوى من صاحبه أيجازان جميعاً فيه، أم يقتصر على الأقوى منهما دون صاحبه؟ اعلم أنّ المذهب في هذا ونحوه أن يعتقد الأقوى منهما مذهباً ولا يمتنع من ذلك أن يكون الآخر مراداً وقولاً)⁵. ومثال ذلك ما ورد في إعراب كلمة (سواء) في قوله تعالى: "إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْتَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ"⁶ فقد تعددت الأوجه الإعرابيّة في إعراب كلمة (سواء) على النّحو الآتي:

¹ البحر المحيط ، 73/3 ، فإذا جاء الحال جملة فعلية فعلها مضارع مثبت لا يجوز أن تقترن بالواو نحو قوله تعالى : " وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ " يوسف : 16 ، فإذا جاء في الكلام ما ظاهره دخول الواو على الفعل المضارع المثبت الواقع حالاً أوّل على إضمار مبتدأ يكون هذا الفعل المضارع خبراً عنه ، قال ابن مالك : "وقد تصحب الواو المضارع المثبت عارياً من قد أو النفي بـ (لا) فيجعل على الأصحّ خبر مبتدأ مقدّر ، ينظر: شرح التسهيل المسنّى تمهيد القواعد بشرح تسهيل الفوائد، ناظر الجيش، تج: علي محمد فاخر وآخرون، دار السلام، القاهرة، ط1، 2007، ص: 2338، أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، ابن هشام الأنصاري، تج: محمد معي الدين عبد الحميد، منشورات المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، د.ط. د.ت، 350/2 وما بعدها، تسهيل الفوائد وتكميل المفاسد، ابن مالك، تج: محمد كامل بركات، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، 1967-1387، ص 112-113.

² ينظر: الدر المصون ، 412/3 .

³ ينظر: مفاتيح الغيب ، 21/9 .

⁴ ينظر: الكشف/1 ، 634/1 ، البحر المحيط ، 73-72/2 ، الدر المصون ، 409/3 .

⁵ الخصائص ، 488/2 .

⁶ سورة البقرة: 6 .

الوجه الأول: أن يكون (سواء) اسماً مرفوعاً على أنه خبر لـ (إنّ) وجملة (أأنذرتهم أم لم تنذرهم) مصدر مؤول في محل رفع فاعل لـ (سواء)¹ والتقدير: إنّ الذين كفروا مستو عليهم الإنذار وعدمه، وممن ذهب إلى هذا الرأي ابن كيسان والزّمخشري والأنباري في أحد قوليهما² ولكن ما ذكره أصحاب هذا الرأي يحتاج إلى مناقشة؛ لأنّ جمهور النّحويين قد منعوا أن تقع الجملة فاعلاً ولا يجوز ذلك إلا عند الكوفيين خروجاً على إجماع النّحاة³، وضّعف الرّازي هذا الرّأي؛ لأنّ (سواء) اسم وتنزيلة بمنزلة الفعل يكون تركاً للظاهر من غير ضرورة ولا يجوز ذلك برأيه⁴.

الوجه الثّاني: أن يكون (سواء) مبتدأ متعمداً على (عليهم)، وجملة (أأنذرتهم أم لم تنذرهم) خبراً، وممن ذهب إلى هذا الرّأي: المبرّد والرّجاج ومكي بن أبي طالب⁵، ولكنّ هذا الرّأي يرتبط بقضية نحويّة هي مثار خلاف بين النّحاة وهي أنّه: إذا اجتمع معرفتان، فأيهما المبتدأ⁶؟ ويبدو أنّ أصحاب هذا الرّأي أخذوا بالرّأي الذي يتيح لهما الخيار، فجعلوا (سواء) مبتدأ وجملة (أأنذرتهم أم لم تنذرهم) خبرها، وفي هذا إغفال كبير لجانب المعنى، فالغرض: وصف الإنذار وعدمه بالاستواء ولذا ضّعف الرّازي هذا الوجه؛ لأنّ المعنى برأيه يتوجّب أن تكون (سواء) خبراً مقدماً⁷.

الوجه الثّالث: أن يكون الإسناد حاصلًا بين (الذين كفروا) و (لا يؤمنون) فيكون الاسم الموصول اسم إنّ، وجملة (لا يؤمنون) خبرها، وما بينهما جملة معترضة، وقد أورد العكبري هذا الرّأي دون نسبته، بينما نسبه النّحاس إلى ابن كيسان⁸ ومما يؤخذ على هذا الرّأي أنّ فيه حكماً مسبقاً على أنّ الكافرين لا يؤمنون، يقول القرطبي: "اختلف العلماء في تأويل هذه الآية، فقيل هي عامة ومعناها الخصوص فيمن حقّت عليه كلمة العذاب، وسبق في

¹ (سواء) مصدر واقع موقع اسم الفاعل وهو (مستو)، واسم الفاعل إذا وقع خبراً عمّل عمل فعله، فرفع (سواء) هنا فاعلاً هو جملة (أأنذرتهم أم لم تنذرهم)، معاني القرآن وإعرابه، أبو إسحاق إبراهيم بن السري الرّجاج، تح: عبد الجليل عبده شلي، عالم الكتب، بيروت، ط1، 1408-1988، 77/1، مشكل إعراب القرآن، 20/1.

² ينظر: إعراب النّحاس، 184/1، الكشف، 162/1، البيان في غريب إعراب القرآن، 50/1.

³ يقول ابن هشام (ت761هـ): "واختلف في الفاعل ونائبه، هل يكونان جملة أم لا، فالمشهور المنع مطلقاً، وأجازه هشام وثعلب مطلقاً، نحو: يعجبني قام زيد" مغني اللبيب، 243/5، همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي تح: عبد العال سالم مكرم، دار البحوث العلمية، الكويت، 1399-1979م، 271/2 وما بعدها.

⁴ مفاتيح الغيب، 45/2.

⁵ ينظر: معاني القرآن، الرّجاج، 77/1، إعراب القرآن، النّحاس، 184/1، مشكل إعراب القرآن، 20/1.

⁶ فإذا اجتمع معرفتان، ففي المبتدأ أقوال: أحدهما: أنّ المعرب له الخيار ليجعل أيّاً منهما المبتدأ، والثاني: أنّ اللفظ الأعم هو الخبر، نحو: زيد صديقي، إذا كان له أصدقاء غيره، والثالث: أنّه بحسب المخاطب، فإن عُلم منه أنّه في علمه أحد الأمرين، أو يسأله عن أحدهما بقوله: منّ القائم؟ فقيل في جوابه: القائم زيد، فالمجهول الخبر، والرّابع: أنّ المعلوم عند المخاطب هو المبتدأ، والمجهول: الخبر، والخامس: إن اختلفت رتبتهما في التعريف فأعرقهما المبتدأ وإلا فالسابق، والسّادس: أنّ الاسم متعين للخبر نحو: القائم زيد، همع الهوامع، 27/2 وما بعدها.

⁷ ينظر: مفاتيح الغيب، 45/2.

⁸ التبيان في إعراب القرآن، أبي البقاء عبد الله بن الحسين العكبري، تح: علي محمد البجاوي، مطبعة: عيسى البابي الحلبي وشركاه، مصر الجديدة، 1396-1976، 21/1، إعراب القرآن، النّحاس، 184/1.

علم الله أنه يموت على كفره، فقد أراد الله أن يُعلم أنّ في الناس من هذه حاله دون أن يعيّن أحد ... إنّ من عيّن أحداً، فإنّما مثلاً بمن كُشف الغيب عنه بموته على الكفر¹.

والأوجه السابقة كلّها جائزة؛ لأنّها تراعي قواعد الصنعة النحويّة ولا تشدّ عنها إلاّ أنّها لا تراعي جانب المعنى الذي يفهم من خلال السياق القرآني.

الوجه الرَّابِع: أن يكون (سواء) خيراً مقدّماً، وجملة (أأنذرتهم أم لم تنذرهم) مبتدأ مؤخر، وقد أخذ بهذا الرّأي الزّمخشري والعكبري واختاره الرّازي ووجّه المعنى في ضوئه، فالمراد كما ذكر سابقاً وصف الإنذار وعدمه بالاستواء² فالمعنى هو المقصود الأوّل من الكلام وهو ما يحرص المتكلّم على إيضاحه وإبعاد اللبس عنه، فكما يراعي المتكلّم المعنى وهو يصوغ كلماته فعلى المعرب أن يراعي المعنى بالمقام الأوّل ثمّ ينظر في الإعراب الذي يتفق مع المعنى المطلوب، ومن هنا فإنّ تعدّد الآراء النحويّة واختلاف التوجيهات الإعرابيّة إنّما هو متوقّف على اختلاف معاني التراكيب للمفردات والجمل ومثل هذه التوجيهات نجدها في إعراب كلمة (بغياً) في قوله تعالى: "وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ"³ فتعدّدت الأقوال في إعراب (بغياً) تبعاً للمعنى المقصود في السياق القرآني وفق الأوجه الآتية:

الوجه الأوّل: يرى أبو الحسن الأخفش أنّ (بغياً) منصوب على أنّه مفعول له، أي للبغي، وهو على نية التقديم، والتقدير: وما اختلف الذين أوتوا الكتاب بغياً بينهم إلاّ من بعد ما جاءهم العلم. وبناء عليه يكون المعنى: لم يحملهم البغي على الاختلاف إلاّ بعد مجيء العلم فمن الجائز وجود خلاف بينهم لسبب ما غير البغي⁴ وما ذكره الأخفش لا ينسجم ومعنى الآية الكريمة، يقول الرّازي: "قال الأخفش: قوله (بغياً بينهم) من صلة قوله (اختلف) والمعنى: وما اختلفوا بغياً بينهم إلاّ من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم، وقال غيره: المعنى وما اختلفوا إلاّ من بعد ما جاءهم العلم إلاّ للبغي بينهم، فيكون هذا إخباراً عن أنّهم إنّما اختلفوا للبغي، وقال القفال وهذا أجود من الأوّل؛ لأنّ الأوّل يوهم أنّهم اختلفوا بسبب ما جاءهم من العلم، والثاني: يفيد أنّهم إنّما اختلفوا لأجل الحسد والبغي"⁵.

الوجه الثاني: يرى الرّجاج أنّ (بغياً) منصوب بما دلّ عليه (وما اختلف) فيكون المعنى: أنّهم لم يختلفوا إلاّ بعد مجيء العلم وذلك بسبب البغي⁶. وما ذكره الرّجاج لا يستقيم من وجهين:

الأوّل: إنّ هذا التّأويل لا يتفق ومعنى الآية الكريمة الذي يبيّن أنّ اختلاف الذين أتوا الكتاب إنّما كان لأجل البغي والحسد.

¹ الجامع لأحكام القرآن، 1/281-282، المحرر الوجيز، 1/87.

² الكشاف، 1/162، التبيان في إعراب القرآن، 1/21، مفاتيح الغيب، 2/46.

³ سورة آل عمران: 19.

⁴ ينظر: معاني الأخفش، 1/214، معاني القرآن، الزجاج، 1/387.

⁵ مفاتيح الغيب، 7/226.

⁶ معاني القرآن، الزجاج، 1/387.

والثاني: إنَّ في هذا التَّأويل تداخلاً بين بابين نحويّين، بينهما بعد كبير في المعنى، كما يقول الرَّازي: "والفرق بين المفعول له، وبين المصدر أنَّ المفعول له غرض للفعل، وأمَّا المصدر فهو المفعول المطلق الذي أحدثه الفاعل"¹ وقد ردَّ ابن مالك على قول الرَّجاج بقوله: "وزعم الرَّجاج أنَّ المفعول له منصوب نصب نوع المصدر، ولو كان كذلك لم يجز دخول لام الجر عليه كما لا يدخل على الأنواع، نحو: سار الجمزى وعدا البشكى، ولأنَّ نوع المصدر يصحُّ أن يضاف إليه (كل) ويخبر عنه بما هو نوع له، كقولك: كلَّ جمزى سير، ولو فعل ذلك بالتَّأديب والضَّرب من قولك: ضربته تأديباً لم يصح، فثبت بذلك فساد مذهب الرَّجاج"².

وأما الوجه الثالث: فيقول مكي بن أبي طالب (بغياً) منصوب على الحال³، ولكنَّ الحال وصف فضلة مشتق، ولذا فإنَّ مجيئه مصدراً ضعيفاً ومقصوراً على السَّماع فقط، يقول السيوطي: "وأجمع البصريون والكوفيون على أنَّه لا يستعمل من ذلك إلا ما استعملته العرب، ولا يقاس عليه غيره، فلا يقال: جاء زيد بكاء، ولا ضحك زيد اتكاء"⁴ إضافة إلى أنَّ معنى الآية ليس على الحاليَّة، وإنَّما هو على معنى المفعول له، فقد بيَّن الله تعالى أنَّ ذهاب هؤلاء اليهود والنَّصارى عن الحقِّ واختلافهم في الدِّين إنَّما كان لأجل البغي والحسد وطلب الرياسة⁵ وبذلك يكون الوجه الراجح أن يكون (بغياً) مفعولاً لأجله وناصبه هو الفعل المتقدِّم عليه دون تقرير؛ وذلك لأنَّه ينسجم مع معنى الآية الكريمة، كما أنَّ وجود (ما) و(إلا) يجعل المعرب يميل إلى المفعول لأجله فيكون المعنى: وما اختلافهم إلا للبغي أو من أجل البغي بعدما تبين الأمر⁶.

الخاتمة: وفي ضوء ما تقدّم يظهر الأثر البين للمعنى ومكانته في الدرس النَّحوي ولاسيما في توجيه الإعراب، وبيان الوجه المراد من الأوجه التي يحتملها الاسم وما قدّمه النُّحاة العرب في هذا المجال يدلُّ على تطوُّر الفكر النَّحوي عندهم تطوُّراً ارتقى إلى مرحلة النَّظر الدقيق في المعاني الكثيرة التي يؤديها الاختلاف في تركيب الجملة، والمعاني التي يؤديها التركيب الواحد باختلاف الأوجه الإعرابيَّة المعبرة عن تلك المعاني، كما يكشف عن دور العلامة الإعرابيَّة في توجيه المعنى دون إغفال القرائن الأخرى، ممَّا يؤكِّد بما لا يدع مجالاً للشكِّ أنَّ نظرة النُّحاة كانت توائم بين الصِّناعة النَّحويَّة والمعنى ردّاً على من ادَّعى خلاف ذلك.

¹ مفاتيح الغيب، 226/7.

² شرح التسهيل، 198/2.

³ مشكل إعراب القرآن، 1/131.

⁴ همع الهوامع، 15/4.

⁵ مفاتيح الغيب، 226/7، الكشاف، 539/1.

⁶ ينظر روح المعاني، 107/3.

قائمة المصادر والمراجع

1. القرآن الكريم.
2. إعراب القرآن، لأبي جعفر النحاس، تح: زهير غازي زاهد، عالم الكتب، ط2، 1405-1985.
3. الإعراب والتركيب بين الشكل والنسبة، دراسة تفسيرية، محمود عبد السلام شرف الدين، دار مرجان القاهرة، ط1، 1404-1984.
4. اتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد الغني الدمياطي الشهير بالبنّاء، وضع حواشيه: الشيخ أنس مهرة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1419-1998.
5. أمالي ابن الشجري هبة الله بن علي بن محمد بن حمزة الحسيني العلوي، تح: محمود محمد الطناحي، مكتبة الخانجي، القاهرة، د.ط، د.ت.
6. الإنصاف في مسائل الخلاف، لأبي البركات الأنباري، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، منشورات جامعة البعث، د.ت.
7. أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، ابن هشام الأنصاري، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، منشورات المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، د.ط، د.ت.
8. الإيضاح في علل النحو، لأبي القاسم الزجاجي، تح: مازن المبارك، دار النفائس، بيروت، ط3، 1399-1979م.
9. البحر المحيط، محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي، تح: عادل أحمد عبد الموجود، وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1413-1993.
10. البرهان في علوم القرآن، بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار التراث القاهرة، د.ط، د.ت.
11. البيان في غريب إعراب القرآن، لأبي البركات الأنباري، تح: طه عبد الحميد طه، مكتبة لسان العرب، د.ت.
12. تأويل مشكل إعراب القرآن، ابن قتيبة، تح: السيد أحمد صقر، دار التراث، القاهرة، ط2، 1393-1973.
13. التبيان في إعراب القرآن، لأبي البقاء عبد الله بن الحسين العكبري، تح: علي محمد البجاوي، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، مصر الجديدة، 1396-1976.
14. التحرير والتنوير، سماحة الأستاذ الإمام الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984، د.ط.
15. تسهيل الفوائد وتكميل المفاسد، ابن مالك، تح: محمد كامل بركات، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، 1387-1967.
16. التفسير البسيط، لأبي الحسن علي بن أحمد بن محمد الواحدي، تح: أحمد بن صالح الحمادي وآخرين، جامعة الملك محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، 1430، د.ط.

17. تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، محمد الرازي فخر الدين ابن العلامة ضياء الدين، دار الفكر، ط1، 1401-1981.
18. الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبيد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، ط1، 1427-2006.
19. الجملة العربية والمعنى، فاضل صالح السامرائي، دار ابن حزم، بيروت، ط1، 1421-2000.
20. الجنى الداني في حروف المعاني، الحسن بن قاسم المرادي، تح: فخر الدين قباوة وآخرون، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط1، 1413-1992.
21. الخصائص، لأبي الفتح عثمان بن جني، تح: محمد علي النجار، دار الكتب المصرية، د.ت.
22. الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، أحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي، تح: أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق، د.ط، د.ت.
23. دراسات لأسلوب القرآن الكريم، محمد عبد الخالق عضيمة، دار الحديث، القاهرة، د.ط، د.ت.
24. دلائل الإعجاز، لأبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني، تعليق، محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، د.ط، د.ت.
25. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، د.ط، د.ت.
26. شرح التسهيل، ابن مالك جمال الدين محمد بن عبد الله بن عبد الله الطائي الجبالي الأندلسي، تح: عبد الرحمن السيد، ومحمد بدوي المختون، هجر للطباعة والنشر، ط1، 1410-1990.
27. شرح التسهيل المسقى تمهيد القواعد بشرح تسهيل الفوائد، ناظر الجيش، تح: علي محمد فاخر وآخرين، دار السلام، القاهرة، ط1، 2007.
28. شرح الرضي على الكافية، الرضي الأسترابادي، تح: يوسف حسن عمر، منشورات جامعة قار يونس، بنغازي، ط2، 1996.
29. شرح المفصل، موفق الدين يعيش بن علي بن يعيش النحوي، إدارة الطباعة المنيرية، مصر، د.ط، د.ت.
30. الصحابي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، لأبي الحسن أحمد بن فارس الرازي، تح: عمر فاروق الطباع، مكتبة المعارف، بيروت، ط1، 1414-1993.
31. غاية النهاية في طبقات القراء، ابن الجزري، طبعة مصححة اعتمدت على الطبعة الأولى للكتاب التي عني بنشرها سنة 1932م ج براجسترسر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2006.
32. فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، اعتنى به: يوسف الغواش، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط4، 1428-2007.

33. الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية، سليمان بن عمر العجيلي الشافعي الشهير بالجمل، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، د.ط، د.ت.
34. الفهرست في أخبار العلماء المصنفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، لأبي الفرج محمد بن أبي يعقوب إسحق المعروف بالوراق، تح: رضا تجدد، د.ط، د.ت.
35. ظاهرة الإعراب في النحو العربي وتطبيقها في القرآن الكريم، أحمد سليمان ياقوت، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1994.
36. الكتاب، لأبي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، د.ط، د.ت.
37. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، جار الله أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري، تح: عادل أحمد عبد الموجود، وآخرين، مكتبة العبيكان، الرياض، ط1، 1418-1998.
38. كشف المشكلات وإيضاح المضلات، لأبي الحسن علي بن الحسين الأصهباني الباقولي، تح: محمد أحمد الدالي، مطبعة الصباح، دمشق، د.ط، 1415-1994.
39. اللغة العربية معناها ومبناها، تمام حسّان، دار الثقافة، الدار البيضاء، د.ط، 1994.
40. المجتبى من مشكل إعراب القرآن الكريم، أحمد بن محمد الخراط، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المملكة العربية السعودية، 1426، د.ط.
41. المحتسب في تبين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، لأبي الفتح عثمان بن جني، تح: علي النجدي ناصف وعبد الفتاح إسماعيل الشلبي، القاهرة، 1412-1994، د.ط.
42. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لأبي محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، تح: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1422-2001.
43. مختصر من شواذ القرآن من كتاب البديع، ابن خالويه، مكتبة المتنبى، القاهرة، د.ط، د.ت.
44. مشكل إعراب القرآن، مكي بن أبي طالب القيسي، تح: ياسين محمد السواس، دار التراث، دمشق، ط2، د.ت.
45. المعنى والإعراب عند النحويين ونظرية العامل، عبد العزيز عبده أبو عبد الله، منشورات الكتاب والتوزيع والإعلان والمطابع، طرابلس، ط1، 1391-1982.
46. معاني القرآن وإعرابه، لأبي إسحاق إبراهيم بن السري الزجاج، تح: عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب، بيروت، ط1، 1408-1988.
47. مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، جمال الدين ابن هشام الأنصاري، تح: عبد اللطيف محمد الخطيب، دار التراث، الكويت، ط1، 1421-2000.
48. المقتضب، لأبي العباس المبرد، تح: محمد عبد الخالق عزيمة، القاهرة، 1415-1994م.
49. الموافقات، لأبي إسحاق الشاطبي، تح: بكر بن عبد الله أبو زيد، دار ابن عقّان، المملكة العربية السعودية، ط1، 1471-1997.

50. نزهة الألباء في طبقات الأدباء، أبي البركات الأنباري، تح: إبراهيم السامرائي، مكتبة المنار، الأردن، ط3، 1405-1985.
51. نظام الارتباط والربط في تركيب الجملة العربية، مصطفى حميدة، دار توبار للطباعة، القاهرة، ط1، 1997.
52. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، دط، دت.
53. النكت والعيون، لأبي الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري، راجعه وعلّق عليه: اليد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دط، دت.
54. همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي تح: عبد العال سالم مكرم، دار البحوث العلمية، الكويت، 1399-1979م.

مناهجُ خصومِ المتنبيِّ في دراسةِ سرقاته الشعرية

Objectives of the liabilities of Al Motanabbie in the study of his poetic steals

دعد يونس السالم - ماجستير في اللغة العربية وآدابها - جامعة البعث .سوريا

Yunus Al Salem- Master in Arabic and its Literature - of Baath University Daad

الملخص:

لقد عمل خصوم المتنبي على استنزاف جهودهم النقدية ، في سبيل نفي الاختراع والجودة الفنية عن شعره ، مدفوعين بعوامل سياسية وشخصية ، فسعوا لجعله دون الشعراء الفحول ، وكانت وسيلتهم في ذلك هي تتبع شعره لفظاً ومعنى ، وعزل اللفظة أو المعنى الفرعي ، عن سياقها في البيت أو في القصيدة الأم ، والتماس المشابه لهما في الموروث الشعري ، ثم نعت ذلك بالمسروق ، لذا كان هدفنا من هذا البحث هو إبراز خطأ الخصوم في نقدهم ، إذ إنهم نظروا لقضية السرقات في مقدمات كتبهم ، وعبروا عن فهم ناضج وموضوعي لمقاييس السرق المحمود والمذموم ، واعدن بترجمة ذلك في أثناء نقدهم شعر المتنبي ، لكنهم في النقد التطبيقي ، انصرفوا عن مقاييسهم النظرية في قضية السرق ، كما خاضوا في قضايا نقدية أخرى لا علاقة لها بالسرق ؛ تدخل في نقد المعاني والألفاظ والصور البيانية والتفاوت ، والإغراق والخروج على المؤلف ، متجاهلين أن المتنبي صاحب طريقة جديدة قديمة ، لا تساير - دائماً - مقاييس عمود الشعر المعهودة.

كلمات مفتاحية: السرق الشعري - الهوى والعصبية -- تفاوت الطبع - الاستعارة القبيحة - المبني والمعنى - التفاوت - الغلو - ابتكار المعاني.

Summary:

The liabilities of Al Motanabbie has been to drain their cash investigation into the fluid of the invention and quality of his failure to pay it in political and personal women and have seen them to make it without false poets and were in the same way to follow the figure and meaning of the word or the sub-meaning of their context in the house or in the mother's poem and the appeal of the people in the poetry and then realized that the goal of this research was to show the mistake of the bandwidths in their introduction to their travel and border measures and the remedies of the micro-identity and submersible measurement and the rewind of the interrogation of the martial and substances. The translation of the mutation, the most important to their states.

Keywords: ibs- poetic and styling - the preytight- episode - the ugly meta - building and meaning - the variation- glucal - innovation .

تمهيد:

سعى خصومُ المتنبي إلى دحض مزاعم أنصاره ومريديه ، وانصبَّ اهتمامهم على نفي الإحسان والاختراع عن شعره كلّهُ ؛ فكان مبتغاهم الأساسي والمُشترك ، هو التصدي لمقولات هؤلاء الذين زعموا أن المتنبي هو المبتكر لمعانيه الدقيقة ، ولم يكن مسبقاً إليها ، وهو محدثها ومفترعها ، ولم ينطلق بأمثالها بادٍ ولا حاضرٌ وهذا كان المتنبي في نظر مريديه ، مجسّداً القيمةَ الفنيّةَ للشعر العربي في شعره ، فكانت النيةُ المبيّنة عند خصومه جميعاً ، هي إبطال هذه الدعوى ، مع اتّفاقهم جميعاً على أن المتنبي شاعرٌ من طرازٍ خاصٍ ورفيع ، وله فضائل في شعره لا تُنكر ، وهو في أغلبه حسنٌ وجيّد.¹

فهذا أبو العباس النّامي (ت 370هـ) ، وقد كان حاسداً للمتنبي ، حاقداً عليه لحظوته عند سيف الدولة يقول: كان قد بقي من الشعر زاويةٌ دخلها المتنبي ، وكنت أشتي أن أكون قد سبقته إلى معنيين قالهما ، ما سبق إليهما : أحدهما قوله :

رَماني الدَّهْرُ بالأرزاءِ حتّى فؤادي في غشائٍ من نيبالٍ فصرتُ إذا أصابتنِي سهامٌ

تَكَسَّرتِ النَّصَالُ على النَّصَالِ

والآخر قوله:

في جحفلٍ سترَ العيونَ غبارُهُ فكأنّما يُبصرنَ بالأذانِ²

إذاً فإنَّ جوهرَ القضية عند الخصوم ، لم يكن في شعر المتنبي ، بل في تلك الدعوى التي أطلقها أنصاره وراحوا يوسعون من نطاقها ، وكانت الأهواء الشخصية والنزعات السياسية قد عملت عملها قبل ذلك ؛ إذ إن هؤلاء انقادوا لبعض رجالات السياسة في الدولة ، ممن تودّدوا إلى المتنبي كي يمدحهم ، لكنَّ آمالهم باءت بالفشل؛ لترفّع الشاعر الكبير عن مدح غير الملوك ، فما كان منهم إلا أن استعانوا برجال الأدب والثقافة الواسعة ، أمثال الحاتمي (ت 388هـ) الذي كانت له أحقاده الخاصّة على الشّاعر ، فنقّذ لهم ما أرادوا³ أمّا الصّاحب ابن عباد (ت 385هـ) ؛ فكان أمراً كبيراً عليه أن يخجله المتنبي ، ولا يجيبه إلى طلبه في المدح ، فما كان منه إلا أن صيّرهُ غرضاً

1. العميدي ، الإبانة عن سرقات المتنبي- ط2- تج: إبراهيم الدسوقي البساطي- دار المعارف بمصر- د0ت - ص23 - وينظر : الحاتمي - الموضحة في ذكر سرقات أبي الطيب المتنبي وساقط شعره - تج: د0محمد يوسف نجم - دار صادر- بيروت- 1965م - ص196 وينظر: الصاحب ابن عباد- رسالة الكشف عن مساوئ المتنبي- ملحقة بكتاب الإبانة للعميدي - ص242

2. ابن خلكان- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان- تج: د0إحسان عباس- دار صادر- بيروت- 1978م- 1/125-127-121- وينظر المتنبي- ديوانه- ط3- دار صادر- بيروت- 2003م- ص172-266-

3. الحاتمي- الموضحة- ص72-7

يرشقهُ بسهام الوقيعة¹ ورغم التأخر الزمني للعميدي (433هـ) عن أجواء الخصومة ، فقد كان حسده وغيرته ممّا حظي به المتنبي من شهرة أدبية واسعة ، عاملاً رئيساً في تأليفه كتاب (الإبانة).

أولاً: النّقد النّظري لدى الخصوم:

إنّ النّيّة المبيّنة لدى الخصوم في إسقاط المتنبي شاعراً وإنساناً معاً ، أفضت بهم إلى التظاهر برداء الموضوعيّة والإنصاف في النقد ؛ فشرعوا يذمّون الهوى والعصبية : ((فالهوى يطمس أعين الآراء ، وإنّ الميل مع الهوى عن الحقّ ، يُهمّ سبيل الصدق))² لكنهم جميعاً في النقد التطبيقي - كما سنرى - ، برزوا في صورة أبعاد ماتكون عن الموضوعية ؛ إذ لم يعترفوا للمتنبي بأي جيّد ؛ وهو دائبٌ يسرق ويقع دون الأوّل ، ويقصّر في الأخذ³ وأبرزَ ناحيةً تُدللُ على عدم موضوعيتهم ، هي هذا الاضطراب الواضح بين نقدهم النظري في مقدمات كتبهم ، ونقدهم التطبيقي في المتون ، فهم يهدفون إلى نفي أصالة الشاعر عن طريق كشف سرقاته ، وإعادتها إلى مصادرها الحقيقية في الموروث الشعري.

هذا هو العميدي في كتابه الذي لم تكن له مقدمة واضحة وممنهجة ، لتُبرز آراءه النقدية ومبادئه في باب السرق ، حدّد خطّة عمله في المقدمة قائلاً: ((وأنا بمشيئة الله تعالى وإذنه، أوردُ ما عندي من أبياتٍ ، أخذَ ألفاظها ومعانيها، وأدّعى الإعجازَ لنفسه فيها، لتشهد بلؤم طبعه في إنكاره فضيلة السابقين ، وتسمّه فيما نهبه من أشعارهم بسمة السّارقين 000))⁴ وأمّا الحاتمي ؛ فقد صرّح في رسالته بما يهدف إلى إنجازه في النقد التطبيقي قائلاً: ((سأتلو ذلك بمنازعات نازعتها أبا الطيب، تتعلق بشعره في عدّة مجالس، ضمّنتي وإيّاه من بعد هذا المجلس، وبمواضع طالعتها من اجتلاباته وسرقاته وسقطات أسقطها في شعره ، لم تجرّ فيها مراجعةً ولا منازعةً ، ليكون ذلك أمتع لقاريه))⁵ فهو إذاً سيكشف عن سرقاته واجتلاباته وساقط شعره ؛ هذا الساقط الذي أدخله في الشعر المسروق حكماً ؛ وذلك لقوله في أحد مواضع النقد التطبيقي مخاطباً المتنبي : ((وما أعرف لك إحساناً ولا أعترف لك باختراع ؛ إذ كانت هذه الأبيات التي تتخيّل أنّك السابق إلى معانيها ، وربّ الإحسان فيها ، مُسترقةً مُلصقةً))⁶ وهو يؤكّد أنّ ساقط شعر المتنبي هو المسروق ، وذلك بكلام واضح ؛ إذ يقول : ((فأمّا أن يجتلب الشاعر المعنى ويقصّر عن استيفائه تقصيرك ، ويسيء العبارة عنه إساءتك ، ويقع أبداً دون الأوّل ، فغير محتمل له ولا مُتسمّح فيه ولا محكوم بالإحسان في شيء منه))⁷

1. يوسف البديعي- الصبح المنبي عن حيثية المتنبي- مطبعة الاعتدال- عنيت بنشره مكتبة عرفة بدمشق- 1350هـ-ص82

2. الصاحب ابن عباد- رسالة الكشف عن مساوئ المتنبي- ص242- وينظر الحاتمي في الموضحة- ص2- والعميدي في الإبانة - ص19

3. الحاتمي في الموضحة ص154- وينظر ابن عباد- رسالة الكشف- ص263

4. العميدي- الإبانة. ص25 .

5. الحاتمي في الموضحة- ص3-4

6. الموضحة- ص130

7. الموضحة- ص154 وينظر ص151-152

وقد حشد الصاحبُ ابن عباد في مقدّمة رسالته، ما ينبئُ أنه خالط أهلَ العلم والأدب، وغرفَ من معينهم، وتلمذَ على أيدي كبارهم في الحكم الدقيق، والفهم الثاقب، لاسيّما ابن العميد، كما أنه أبدى إعجاباً بأراء الجاحظ، وذكر شذوراً سمعها من الأستاذ الرئيس (ابن العميد).

إن هذه الإطلاقات من الصاحب قبل الدخول في النقد التطبيقي، واضحة المرمى، وقد أدرك أحدُ النقاد هذه الناحية، وأكّد أنّ زادَ الصاحب من النقد، لم يكن يؤهّله لنقد أبيات المتنبي نقداً علمياً صحيحاً؛ لذا ادّعى في مطلع الرسالة أنه جالسَ أهلَ العلم بالشعر وأخذ عنهم، واسترسل في مقدمة طويلة عن نقد ابن العميد، ممّا لا يمتُّ إلى النقد الموضوعي بصِلَةً¹ والأمر المهمُّ في مقدّمة الصاحب؛ هو أنّه يحدّد الجانب الذي سيتناوله في نقده لأبيات المتنبي، وهذا الجانب هو شعره الساقط: ((والآن حين أعود إلى ذكر المتنبي، فأخرجُ بعض الأبيات التي يستوي الرّيْضُ والمرتاَضُ في المعرفة بسقوطها، دون المواضع التي تخفى على كثيرٍ من الناس لغموضها))²، فالصاحب سيركّز على نقد المعاني، لكنّه ما لبث أن بيّن لنا قصده بالمعاني الساقطة التي سيظهرها في شعر المتنبي؛ حيث قصد بها المعاني المسروقة؛ لأنه أتبعَ قولَه السابق بقوله: ((فأما السرقة فما يُعاب بها، لا تُفارق شعر الجاهلية والإسلام عليها، ولكن يُعاب إن كان يأخذ من الشعراء المحدثين كالبحتري وغيره جُلَّ المعاني، ثمّ يقول لا أعرفهم ولم أسمع بهم))³ من ذلك كلّهُ نتأكّد أنّ الأبيات الساقطة في شعر المتنبي، هي نفسها الأبيات المسروقة بزعم الصاحب.

ثانياً: الانحرافُ عن قضية السرقات في النّقد التطبيقي:

عرفنا ممّا سبق هدفَ الخصوم في مقدّماتهم، لكنهم في النقد التطبيقي انحرفوا في عدد من المواضع عن ذلك الهدف، وراحوا يناقشون قضايا خارجة عن إطار السرقة، مما يدخل في نقد المعاني؛ كقضية العقيدة والدين، أو الموازنة بين معنيين دون الإشارة إلى السرقة، أو التفاوت بين مصراعي البيت الواحد، وقد يكون الانحراف إلى قضايا لغوية ونحوية، أو إلى ما يتعلق بالصورة الفنيّة وعدم نجاح المتنبي في صياغتها وعرضها ولنرى الصاحب - مثلاً - كيف استهل نقده التطبيقي بقوله: ((وأول حديث المتنبي أن لا دليل أدلّ على تفاوت الطبع، ممّن جمع الإحسانَ والإساءةَ في بيت كقوله: بليتُ بلى الأطلال إن لم أقف بها، وهذا كلام مستقيم لولم يعاقبه ويعقبه بقوله: وقوفٌ شحيح ضاع في الثُّربِ خاتمُهُ))⁴ وهو يتابع نقده في هذا الموضوع بما يخصُّ قضية التفاوت بين المصراعين، دون الإشارة إلى السرقة، ناسياً ما أشار إليه في المقدمة؛ من أنّ الشعر الساقط هو الشعر

¹ د0 محمود الربدوي- الحركة النقدية حول مذهب أبي تمام- تاريخها وتطورها وأثرها في النقد العربي القديم- دار الفكر للطباعة والنشر - د0ت- ص271

² رسالة الكشف- ص250

³ المصدر السابق- ص250-251

⁴ المصدر السابق - ص0251 وينظر مثلاً: ص254-257- وينظر بيت المتنبي في ديوانه بشرح عبد الرحمن البرقوقي- ط2- الناشر: دار الكتاب العربي - بيروت- لبنان- 1986م- 4/46

المسروق، وطالما أنَّ الصاحب قد أكد دوام سرق المتنبي من أبي تمام كما اتهمه بالسرقة من البحري، كان الأجدر به أن يأتي بمعظم الشواهد - إن لم يكن كلها- من شعر المتنبي المسروق من الطائيين، ولاسيما من أبي تمام، إلا أنه في مواضع السَّرْق أرجع شعر المتنبي - بالتحديد - مرةً لبشار بن برد، ومرةً لابن الأستر، ومرةً للخليل بن أحمد، بينما أشار مرتين فقط إلى سرقه من أبي تمام¹، وهو يشير إلى سرقات أخرى للمتنبي من شعراء آخرين دون ذكر أسمائهم².

ولو تتبعنا النقدَ التطبيقيَّ في (الموضحة)، لرأينا أنَّ الحاتمي كان ينحرف كثيراً عن إطار السَّرْق، إلى قضايا نقدية أخرى؛ فهو يبدأ نقده التطبيقي بما يخصُّ المعاني إذ يقول: ((أخبرني عن قولك: (خَفِ اللهُ واسترْ ذا الجمالِ بَرَقِ فَإِنْ لَحْتَ حاضَتْ في الخدورِ العواتقُ) أهكذا يُنسَبُ بالمحبين؟ فقال: أما هكذا في كتابكم؟ فكفر لعنه الله))³(1) وتستمرُّ المناقشة هنا حول هذا المعنى، ووروده أو عدم ووروده في القرآن الكريم، ولا يدخل الحاتمي باب السَّرْق إلا بعد أن يقول المتنبي، عقب انتهاء مناقشتهما حول البيت السابق: فاعتذر هذا القول لقولي في هذه القصيدة، حيث ينشد المتنبي تسعة أبيات متتابعة، من قصيدة واحدة لتشفع له، لكن الحاتمي سرعان ما يردُّها إلى مصادرها التي أُخِذَتْ منها، بعد تجزئتها إلى عبارات وجمل⁴.

وقد تكررت هذه الطريقة في كثير من مواضع (الموضحة)؛ فكان الحاتمي يدخل قضايا نقدية خارجة عن إطار السرقة، ولا يدخل هذا الإطار إلا بعد أن يذكر المتنبي أو أحد أنصاره في المجلس، أبياتاً حسنة تشفع له حيال ما قصر فيه من معان بزعم الحاتمي⁵ ولقد كان الحاتمي يسهب ويفصل في تلك القضايا النقدية الخارجة عن إطار السرقة؛ أما عندما يعود إلى هذا الإطار، فإنه غالباً ما يكتفي بالإشارة إلى البيت المسروق منه، وإن هو علق اعتمد الإيجاز، ولا يختلف العميدي عن صاحبيه في هذا الانحراف؛ فهو يوازن بين الشعراء، ويشير إلى أخطاء لغوية وعروضية، وغير ذلك ممَّا يدخل في نقد المعاني⁶؛ ومثال ذلك التفاته إلى الموازنة، متجنباً الخوض في السرقة في هذا المثال: قال المتنبي يهجو كافوراً:

جازَ الألى ملكتُ كفاكَ قَدْرَهُمْ فَعَرَفُوا بِكَ أَنَّ الكلبَ فوقَهُمْ
فإنَّهُ حَجَّةٌ يُؤذي القلوبَ بها مَنْ دينُهُ الدَّهْرُ والتَّعْطيلُ والقِدَمُ

1. رسالة الكشف- ص 255-264-267

2. المصدر السابق- ص 254-269

3. الحاتمي في الموضحة- ص 13- وينظر بيت المتنبي في ديوانه بشرح البرقوقي 89/3

4. الحاتمي في الموضحة- ص 14-15-16-17

5. ينظر في الموضحة من ص: 17 حتى ص: 23

6. العميدي- الإبانة- ص 38-140-50-51

يعلّق العميدي قائلاً: هذا البيت عليه أثر العي؛ لأنّ الدّهْرَ والتعطيل والقدم إلحاداً كلّهُ ، وأحسن من هذا قول ابن الرومي:

لأَقْدِسَتْ نُعْمَى تَسْرِبَلَتْهَا كَمْ حَجَّةٍ فِيهَا لَزْنِدِي
صَبْرًا أبا الصَّقر فكم طائرٍ خَرَّ صريعاً بعدَ تحليقي¹

نرى هنا كيف يُقصرُ العميدي الأمر على الموازنة بين شاهدين في معنى واحد، ولكنّ الموازنة بين الأبيات شيء، ومعالجة السرقة شيء آخر، حتى إنه في هذه الموازنة كان بعيداً عن الموضوعية؛ لأنّه اقتصر على تسقط العيب في شاهد المتنبّي، ولم يبيّن أوجه الإجابة في قول ابن الرومي. إنّ هؤلاء الخصوم عندما كانوا يدخلون إطار الإشارة إلى السرقة، فإنهم كثيراً ما كانوا يصمتون عن التعليق والنقد، وهذا الصمت كان أكثر بروزاً لدى العميدي؛ وإنّهم علّقوا فإنهم لا يأتون بشيء يخصّ قضية السرقة، وإنّما هي تعليقات حول قضايا نقدية أخرى؛ مثل: تكرير اللفظ، أو استخدام الألفاظ الغريبة والأعجمية، أو ركوب المبالغة أو اعتماد الاستعارات القبيحة، أو عدم الإصابة في التشبيه، أو الأخطاء النحوية أو اللغوية، إلى غير ذلك من الأمور الأخرى التي نجدها بسهولة في ثنايا نقدهم التطبيقي وما يلفت الانتباه في تعليقاتهم، هو هذا الكمّ الكبير من عبارات السخرية القائمة على التهكم والتشهير بالشاعر؛ إنّ هذه العبارات هي عنوان عريض للتحامل، والبعد عن النقد العلمي السليم، ومن هذا الكمّ الكبير الذي بلغ ذروته عند الصاحب ثمّ الحاتمي ثمّ العميدي والنّامي، يمكن أن نذكر بعض الأمثلة: ((وهذا التّحاذق منه كتغزّل الشيوخ قبلاً، ودلال العجائز سماجاً، ولكن بقي ولكن بقي أن يوجد من يسمع))²، ((وإنك تشفع إحسانك بأبيات سخيفة لفظاً ومعنى، وبالأبيات التي تغيّر على معانيها وبعض ألفاظها إغارة الذئاب المعط على سرح النّقد))³

ثالثاً: مقاييسُ السرقة بين النّظر والتّطبيق:

كان الخصوم مدركين مقاييس السرقة المحمود والمذموم التي شاعت في عصرهم، إلّا أنّهم في النقد التطبيقي فرطوا بهذه المقاييس، ولم يستثمروها في تعليقاتهم على المسروق والمسروق منه، وذلك من حيث تحديد المصطلح الذي قامت عليه السرقة: (نظر، ملاحظة، اختلاس، إمام، سرقة، سلب، إغارة)، ومن حيث تبيان الإضافات والإضاءات التي اهتدى إليها الشاعر المتأخّر، أو التّقصيرات التي وقع فيها فلم يُحسن الاتباع، وبشكل عام لم يكن الخصوم معنّيين بإظهار اختلاف طرق الأداء، وصور الصّيغة للمعنى الواحد بين شاعرين أو أكثر، لأنّهم كانوا

1- المصدر السابق- ص 179 وينظر المتنبّي- ديوانه بشرح البرقوقي- 280/4 وما بعدها- وينظر ابن الرومي- ديوانه- تح: د0 حسين نصار وآخرين- مطبعة دار الكتب- وزارة الثقافة- مركز تحقيق التراث- 1977م- 1634/4 وما بعدها0

2- رسالة الكشف- ص 258 وينظر ص 255- 267

3- الحاتمي- الموضحة- ص 21-22 وكذلك ص 25-26-35- وينظر: ابن وكيع التنيسي- المنصف للسارق والمسروق منه في إظهار سرقات أبي الطيب المتنبّي- 1/219 وما بعدها- والإبانة للعميدي- ص 33-63-65-96

منشغلين بما يحقق لهم إدانة المتنبي، ويرضي السلطة الحاكمة، فكان أسهل الطرق إلى ذلك، هو تتبُّع مواضع التشابه لفظاً أو معنًى في شعر المتنبي مع غيره من الشعراء، كما كانوا منشغلين بتتبُّع قضايا أخرى خارج موضوع السرق، مُحَكِّمين في ذلك كَلِّه مبادئ عمود الشَّعر، متجاهلين أنَّ الطَّريقة التي انتحاهها المتنبي في شعره، هي طريقة فريدة لا يمكنُ التعاملُ معها دائماً من خلال القواعد المألوفة؛ فالمتنبي كما هو أبو تمام، قد حرَّر عناصر عمود الشعر وتعامل معها بطريقة مرنة، تَبَعْدُهَا عن الثَّبات والجمود والقوالب الجاهزة، حتى تتناسب مع مقصديته في أداء الأفكار وتوصيل المشاعر. لقد كان الخصومُ يدركون أنَّ طريقة المتنبي جديدة؛ فالحاتمي يقول: ((فَصَلََّ عن الجواب واستبَّهَمَ عليه إقليدُ هذا الباب، وسمع مالم تجرِ عادته باستماعٍ مثله؛ لأنَّ الوادي الذي يسلكه في شعره مباينٌ له))¹، ولذا فقد كان الأجدد بالخصوم، أن ينطلقوا في أحكامهم النقدية من شعر المتنبي ومن الجديد فيه، ليتوصَّلوا بعد ذلك إلى الخصائص العامَّة التي تميَّز شعر هذا الرجل، أمَّا أن يتشبَّثوا بالمبادئ النقدية المستخلصة من شعر السابقين، ويعضُّوا عليها بالنَّواجذ، ليحْكُمُوها في شعر شاعر لم يَأْبَهُ أصلاً بتلك الثَّوابت، فإنَّ هذا السلوكُ النقديَّ منهم، يَثْبِي بالتَّحامل، ويظلمُ التجربة الشعوريَّة لدى المتنبي التي أُمَلَّتْ عليه تجاوزاته للموروث. وممَّا يؤكِّد حضورَ مقاييسِ السرق في مفهوماتهم النقدية، قولُ العميدي مثلاً: ((وهل للذين يتديَّنون بنُصْرته بصائرٌ بحُسنِ المآخذِ ولطفِ المتناول، وجوْدَةِ السَّرقة ووجوه النُّقل وإخفاء طرق السلب، وتغميض مواضع القلب وتغيير الصبيغة والترتيب، وإبدال البعيد بالقريب وإتباع خاطر في التثقيف والتهذيب))².

فالعميدي لا ينفي فكرة الأخذ وتداول المعاني بين الشعراء، وهو يبرز في قوله السابق أساليب الاتباع وهي: لطف التناول، النقل، السلب الخفي، القلب مع تغميض ذلك النقل من صبيغة إلى صبيغة أخرى، تغيير الترتيب (أي التقديم والتأخير)، الإبدال، وإضافة إلى ذلك كَلِّه فهو يؤيِّد فكرة أنَّ الشَّعرَ صناعةٌ قائمةٌ على التثقيف والتهذيب، وإتباع خاطر والمعاناة.

إنَّ تلك الجوانب كَلِّها تشفع للشاعر الأخذ من غيره، وتكسبه الفضل، أمَّا وجوه السرق المذمومة فهو لم يعرض لها، لكنَّ يُسْتَشْفُ من بعض تعليقاته أنَّ المذموم هو ما كان نسخاً وتعمداً؛ فهو يقول معلقاً على سرقات المتنبي: ((مثل هذا بيتٌ يسمِّيهِ أصحابه التَّوارد، ويسمِّيهِ خصمهم النَّسخ والتعمُّد، وأنا أعرفُ أنَّه تعبٌ في نظم هذا البيت، فله فضيلة التَّعب))³.

لكنَّ العميدي في عرْضِهِ لسرقات المتنبي، لم يطبِّق شيئاً من مفاهيمه السَّابقة لمقاييس السرق؛ فعندما يقول المتنبي:

أفاضلُ النَّاسِ أغراضُ لدا الرِّمَنِ يخلو من الهَمِّ أخلاهم من الفِطَنِ

1. الحاتمي - الموضحة - ص 73-74

2. العميدي - الإبانة - ص 23

3. المصدر السابق - ص 25-26 وينظر: ص 181

يستحضر العميدي نظيراً له في المعنى من الموروث الشعري، وهو قول البحري:

أرى الحلم بؤسى في المعيشة للفتى وما العيش إلا ما حباك به الجهل¹.

ومع وجود اشتراك في المعنى بين الشاعرين؛ إلا أن العميدي لم يلتفت إلى الاختلاف الواضح بين الصياغتين؛ لقد استلهم المتنبي معناه من البحري وراح يسبكه سبكاً آخر، محوراً في البنية اللغوية ليعرض علينا المعنى في قالب جديد مختلف، وكان لتصريح البيت ميزة لا تخفى في إغناء الإيقاع الموسيقي الثابت، المتمثل في الوزن العروضي وحرف الروي.

وأما الحاتمي فقد كان الأبرز في توضيح مفهومه للسرقة المحمود والمذموم، وعنه أخذ كثير من النقاد؛ إذ أفرد باباً مطوّلاً لقضية السرقات في كتابه: (حلية المحاضرة)، وعدّ نفسه أول من فرّق بين أنواع السرقة وأصنافه فروقاً لم يسبق إليها².

إن الجانب المهم الذي أكدّه الحاتمي؛ هو أنّ المحتذي أو المتبّع، إذا تناول المعنى فكشف قناعه وأصفى شربه وأحسن العبارة عنه، واختار الوزن الرشيق له، كان أحقّ به، ولاسيما إذا أخفى مسراه، وإذا نقله عن مذهب ذهابه شاعر إلى آخر، وعكسه إن كان تشبيهاً، أو تتميمه إن كان ناقصاً، فإنّ الفضل له ويقع الحكم للشاعر بالبلاغ والإبانة، مع أنّ الفضل الأول يكون للشاعر الذي سبق إلى المعاني وافترع عذر الألفاظ³. أمّا فيما يخصّ السرقة المذموم في مفهوم الحاتمي، فقد عبّر عن نفوره من الشاعر الذي يكون جمهور شعره عند التصفح، مسترقاً ملصقاً ومجموعاً ملقفاً، ويكون من السرقة المذموم إذا اجتلب الشاعر المعنى، ثمّ قصر عن استيفائه وأساء العبارة عنه وكان دون الأول⁴.

لقد كان الحاتمي مدركاً مقاييس السرقة بشكل واضح، إلا أنّه لم يستعن إلا بمفهومه للسرقة المذموم في أثناء معالجته سرقات المتنبي؛ فالمتنبي سرق ولم يحسن في سرقة، ومجموع شعره مسروق؛ وعندما يقول المتنبي:

شرف ينطح النجوم برؤقيّ عـ وعزّيقل الأجبالا

بهمه الحاتمي بأنه أخذ معناه من أبي تمام وأفسده، وبيت أبي تمام هو:

همّة تنطح النجوم وجدّ ألف للحضيض فهو حضيض

1. الحاتمي- الموضحة - ص151-154-156

2. الحاتمي- حلية المحاضرة في صناعة الشعر- تح: د0جعفر الكتاني- وزارة الثقافة والإعلام- دار الرشيد للنشر- الجمهورية العراقية- 1979م- 28/2-

30

3. المصدر السابق- 69/2 وما بعدها- وينظر في الموضحة ص152-156-160-162

4. المصدر السابق- 69/2 وما بعدها- وينظر في الموضحة ص152-156-160-162

وعندما يسأله المتنبي عن علّة الفساد، يجيبه الحاتمي بأنّ الفساد كامنٌ في جعله لشرف الرجل قرنين، وذلك لأنه قال: بِرُؤْيَيْهِ، والروقان القرنان، فيقول المتنبي: إنها استعارة، فيردُّ الحاتمي: وإن كانت استعارة ولكنها استعارة خبيثةٌ وفيها معازلة¹.

وبذلك فقد اتهم الحاتمي المتنبي بالسرقة أولاً، وبسوء الاتّباع وإفساد المعنى المسروق ثانياً، متمسكاً بمبادئ عمود الشعر، ومقاييس النقد العربي في مفهومه لقضية الاستعارة، أمّا مقاييس السرقة المحمود، فإنّ الحاتمي يوظّفها في شعر الفحول الذين سرق منهم المتنبي بزعمه، وبخاصّة في شعر أبي تمام حيث يقول: ((لئن كان أبو تمام ناظراً إلى هذه المواضع، فلقد تناول أخلاقاً أُعْبِيَةً فأعادها حلالاً، يرفُّ وشيهاً كما ترفُّ خدودُ الرياضي غبّ الحيا، وهذا كان مذهبه في جميع ما يلاحظه ويشير إليه من المعاني))² ونحن لا نستطع تعرّف موقف الصّاحب ابن عباد من قضية السرقة بشكل واضح في رسالته؛ فهي لا تُتَحَفَّنَا بذلك لأنه كان أميل إلى أن يعرض علينا ذوقه واستجابته الأدبية، من أن يعتمد منطلقاتٍ نظريّةً محدّدةً في نقد الشعر، وميله إلى الاتّكاء على الذوق واضحٌ من خلال إعجابه بأراء ابن العميد والجاحظ، وهما من الأدباء المتذوّقين؛ فهذه الرسالة عبارة عن ((مجموعة انطباعات لا يربط بينها رابطاً فكريّاً، بل شخصيّة الكاتب وما تنتقيه لتعلن استهجانها له))³

لكننا على الرغم من ذلك، فإننا نستطيع أن نستشفّ من بعض تعليقاته أنه كان مدركاً طبيعة السرقة المحمود والمذموم؛ فقد ورد له قوله عن المتنبي: ((ثم يُخْرَج ما يسرقه في أقبح معرض، كخريدة أُلْبِسَتْ عباءةً وعروسٍ جُلِيَتْ في مَسُوحٍ))، فالسرقة تكون ذميمةً إذا أخذ الشاعر المعنى القديم وكساه ألفاظاً لا تليق به، لكن لو تأملنا فيما نسبّه من سرقٍ إلى المتنبي، لرأينا أنه لم يكن مصيباً؛ إذ رأى السرقة حيث لا سرقة؛ فهو يقول: ((ومن تعقيده الذي لا يُشَقُّ غباؤه ولا تدرك آثاره قوله:

وَلَتَرَكُ لِلإِحْسَانِ خَيْرٌ لِمُحْسِنٍ إِذَا جَعَلَ الإِحْسَانَ غَيْرَ رَبِيبٍ

وما أشكُ أنّ هذا البيت أوقَع عندَ حملةٍ عرشه من قول حبيب:

فَقَلْتُ لِلْحَادِثَاتِ اسْتَنْبِطِي نَفَقاً فَقَدْ أَرْكَتُ إِحْسَانَ ابْنِ حَسَّانٍ))⁴

ونحن لو دققنا النَّظَرَ في كلّ بيتٍ على حدة، لرأينا المفارقة بينهما؛ فالمتنبي يقصد إلى القول: إنّ عمل المعروف وتقديم الخير يبقى ناقصاً إذا لم يكن نامياً مستمراً، وبهذا فإن ترك عمل الخير أفضل من الإتيان به إذا كان

1. المصدر السابق - ص 90-91 - وينظر بيت المتنبي في ديوانه بشرح البرقوقي - 254/3 - وينظر: أبو تمام- حبيب بن أوس الطائي- ديوانه-

بشرح الخطيب التبريزي- ط5 تج: محمد عبده عزام- دار المعارف- القاهرة- 1987م - 289/2

2. الحاتمي- الموضحة- ص 180- 0181 وينظر ص 164-167-172

3. محي الدين صبيحي- شاعرية المتنبي في نقد القرن الرابع للهجرة- منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي- دمشق- 1983م - ص 48

4. الصاحب ابن عباد- رسالة الكشف- ص 263 المصدر السابق- ص 256- وينظر: المتنبي- ديوانه- بشرح البرقوقي- 178/1- وينظر بيت أبي تمام في ديوانه

بشرح الخطيب التبريزي- 310/3

سيتوقف يوماً ما، أمّا أبو تمام فهو يقصد إلى القول : سألت مصائب الزمن أن تتواري وتغور عن الأنظار ، لأنّ الممدوح (ابن حسان) بعطاءاته الغزيرة استطاع التغلّب على تلك المصائب ، وكسر شوكتها ، فكانت مهزومة أمامه ، وبهذا فإن خصوم المتنبي لم يكونوا مدفوعين في نقدهم بدوافع نقيّة قائمة على نيّة الإنصاف وإغناء خزانة النقد العربي، بل كانوا مدفوعين برغبات جامحة لتحطيم المتنبي شاعراً وإنساناً، فتمسّكوا -لتحقيق مهامهم- بفكرة أن الشعر صناعة وقواعد تقليدية لا يجوز لمحدّث أن يتجاوزها ، مع إدراكهم مسبقاً أنّ المتنبي ذو مذهبٍ في الشعر والفن ، مخالفٍ في كثير من مواضعه للمألوف في السنّة الثقافية والشعرية.

من ناحية أخرى فقد اهدتوا إلى وسيلة أعانهم كثيراً في توسيع إطار السرق الشعري لدى المتنبي ؛ نقصد بذلك سعيهم الدائم إلى انتزاع الشاهد الشعري من سياقه العام ، أو تجزئة هذا الشاهد إلى تراكيبٍ وجمليّ تُسهّل عليهم استحضار الأشباه لها من الموروث الشعري ، وقد استدليّنا على إسرافهم في تمثّل القواعد النقدية الراسخة في الذهنية العربية ، ومن ثم سعيهم لتطبيقها حرفياً على شعر المتنبي، وذلك من خلال قضيتين نقديّتين في هذا الشعر المسروق - في زعمهم - هما : التكرار والتشبيه.

فلنرَ كيف تناولوا هذين الجانبين ، ولنستشفّ من خلال ذلك بعض خصائص لغة المتنبي والبناء الفئّي لنصوصه.

1- التكرار:

وهو قضية شُغِلَ بها النقد العربي القديم؛ والتكرار قد يكون في الحروف وقد يكون في الألفاظ وهو في أكثره غير مُستَحَبِّ، ودليل واضح على العجز، وقد ذمّه كثيرٌ من النقاد وعدّوه من عيوب الألفاظ التي لا تلبث أن تؤثّر على مستوى أداء المعاني ؛ فصاحب (سر الفصاحة) يوجّه الشاعرَ إلى أن تكون حروف كلماته متباعدة المخارج؛ ((وبيانه أن يتجنب الناظم تكرار الحروف المتقاربة في تأليف الكلام ، كما أمرناه بتجنب ذلك في اللفظة الواحد، بل هذا في التأليف أقبج))¹، وبهذا الاتجاه تمسّك الخصوم ؛ وراحوا يتعقّبون أبيات المتنبي القائمة على التكرار، سواء في الحرف أم في الألفاظ ؛ فقد أعابوا عليه أبياتاً من مثل:

فَقُلُقِلْتُ بِالْهَيْمِ الَّذِي قَلَقَلَ الْحَشَا قَلَاقُلُ عَيْسَى كَلْهَيْنَ قَلَاقُلُ²

وأعاب عليه الصاحب أكثر من بيت فيه تكرار ؛ فهو يقول : ((وممّا لم أقدره يلجُ سمعاً، أو يردُّ أدناً قوله:

جوابُ مسألتي ألهُ نظيرٌ ولا لك في سؤالك لا ألا

¹ - ابن سنان الخفاجي- سر الفصاحة- ط1- دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان- 1982م- ص97- وينظر: قدامة بن جعفر- نقد الشعر- ط3- تج: كمال مصطفى- الناشر: مكتبة الخانجي بالقاهرة- 1978م- ص199- وينظر: ابن الأثير- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر- قدمه وعلق عليه: أحمد الحوفي وبدوي طبانة- دار نهضة مصر للطبع والنشر- الفجالة- القاهرة- 1973م- 1/310 وما بعدها- وأبو هلال العسكري- كتاب الصناعتين - الكتابة والشعر- ط1- تج: مفيد قميحة- دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان- 1981م- ص369

² .ينظر في: المتنبي- ديوانه بشرح البرقوقي- 293/3 وقد أعابه عليه أبو العباس النامي في المنصف: 171/1

وقد سمعت بالفأفاء ولم أسمع بالألاء، حتى رأيت هذا المتكلف المتعسف الذي لا يقف حيث يعرف¹ وتجدر الإشارة هنا إلى أن بعض نظرات ابن العميد التي تسليح بها الصاحب في المقدمة، برزت في نقده التطبيقي كموجهات لحدث القراءة في شعر المتنبي؛ فالصاحب يعجب بما رآه ابن العميد من أن أجل ما يحتاج إليه الشعر هو سلامة حروف اللفظ من الثقل، ويستهنجن ابن العميد تكرير أصوات الحروف وبخاصة إذا كانت متقاربة المخارج، ثمّ يجعل الصاحب من ذلك قاعدة تخدمه في طعن كثير من أبيات المتنبي، حصل فيها تكرار ألفاظ وأصوات حروف²، كما أن الحاتمي كان موجّهاً آخر من موجّهات حدث القراءة في أكثر القضايا النقدية لدى الصاحب؛ ومنها قضية التكرار؛ وتفسير ذلك أن الحاتمي ((يكشف القاعدة فيأتي الصاحب ويطبّقها على ظواهر مشابهة في شعر المتنبي))³، وهذه ظاهرة يمكن إدراكها بسهولة من قبل المتأمل في (الموضحة) وفي (الكشف)؛ فالحاتمي عندما ينتقد التكرار في بيت المتنبي:

ذي المعالي فليعلون من تعالي هكذا هكذا وإلا فلا لا

ويتممه بالإغارة على بيت شاعر آخر في هذا المعنى ويقول له: فقولك: (فلا لا) ركيكة جداً، وأنت تعجب بتكرير هذه اللفظة⁴، يأتي الصاحب ليستعين بنقده الحاتمي؛ فيورد البيت نفسه ثم يعمل على زيادة تأكيد عيب التكرار في شعر المتنبي، وذلك باستحضار أبيات أخرى له ورد فيها تكرار، وهكذا كان يفعل في قضايا نقدية أخرى في شعر المتنبي؛ بحيث يوسّع من إطار انتقادات الحاتمي، ويقدم أمثلة متنوعة عليها⁵ ويمكننا القول في قضية التكرار: قد لا يعاب التكرار في مواضع معينة بل يحسن فيها، وربّما تطلّبته بإلحاح؛ ((وللتكرار مواضع يحسن فيها ومواضع يقبح فيها، فأكثر ما يقع التكرار في الألفاظ دون المعاني))⁶.

لقد كان صاحب (سر الفصاحة) أكثر دقّة من ابن رشيق عندما بنى القضية كلها على مدى مناسبة التكرار للمعنى الذي هو فيه، فهو يقول معلّقاً على بيت لأحدهم فيه تكرار حسن: ((إن المعنى مبنيّ عليه ومقصوداً على إعادة اللفظ بعينه، وهذا حدّ يجب أن تراعيه في التكرار؛ فمتى وجدّ المعنى عليه ولا يتمّ إلا به، لم تحكم بقبحه، وما خالف ذلك قضيت عليه بالاطراح ونسبته إلى سوء الصناعة))⁷

1. الصاحب ابن عباد- رسالة الكشف- ص 260 وينظر ص 265- وينظر المتنبي- ديوانه بشرح البرقوقي 346/3

2. رسالة الكشف- ص 246-260-263-265-267

3. محيي الدين صبيح- شاعرية المتنبي- ص 62

4. الحاتمي- الموضحة- ص 90- وينظر المتنبي- ديوانه بشرح البرقوقي- 254/3

5. ينظر في رسالة الكشف- ص 260-263-265-267

6. ابن رشيق القيرواني- العمدة في محاسن الشعر وأدابه ونقده- ط1- تح: محمد محيي الدين عبد الحميد-

الطلائع للنشر والتوزيع- القاهرة- 2006م- 64/2 وما بعدها

7. ابن سنان الخفاجي- سر الفصاحة- ص 107

وتجدر الإشارة هنا إلى أن صاحب (سر الفصاحة) قد أثنى على بيت للمتنبي فيه تكرر، بينما كان خصومه قد عابوه وهو قوله:

وحمداً حمدونٌ وحمدونٌ حارثٌ وحارثٌ لقمانٌ ولقمانٌ راشدٌ

إذ قال فيه: ((فليس هذا التكرار عندي قبيحا؛ لأن المعنى المقصود لا يتم إلا به))¹ ونحن لو عدنا إلى هذا البيت في سياقه العام بين الأبيات في القصيدة الأم، لأدركنا صواب القول السابق؛ يقول المتنبي:

فأنت حسامُ الله واللهُ ضاربٌ وأنت لواءُ الدين واللهُ عاقدٌ

وأنت أبو الهيجا ابنُ حمدانٍ يا ابنه تشابهَ مولودِ كريمٍ ووالدٌ

وحمداً حمدونٌ وحمدونٌ حارثٌ وحارثٌ لقمانٌ ولقمانٌ راشدٌ

أولئك أنيابُ الخِلافةِ كلِّها وسائرُ أملاكِ البلادِ الزوائدُ²

إن بلوغ الممدوح هذه المنزلة المرموقة من الشجاعة: (حسام الله) والإيمان: (لواء الله)، لم يكن جهداً فردياً خالصاً، وإنما هو ذخرٌ خلقيٌّ متوارثٌ، وهذا ما قاد المتنبي إلى استدعاء شجرة النسب، متدرجاً من الفرع إلى الأصل بشكل جعل من هذه الأبيات ولاسيما الثالث منها: (وحمداً حمدون)، وثيقة تاريخية تُذكرنا بأهم خلفاء دولة بني حمدان؛ وقد هدف المتنبي إلى إثبات أن نسب الممدوح هو نسب نقي غير مدخول، إلا أن هذا الاستدعاء التاريخي لم يكن تقريرياً بحتاً، حيث حرص المتنبي على عرض نسب الممدوح، بأسلوب جمالي قائم على التدرج والتتابع من الفرع إلى الأصل. إن أسلوب التدرج منع المتنبي من القفزات غير المسوّغة في الأبيات، وعكس لنا نظام فكره وتوازن عاطفته، بحيث لم يكن البيت الثالث مقحماً إقحاماً على الأبيات، بل كان مطلوباً وفي مكانه المناسب ومن ناحية أخرى لا يخفى ما في هذا التكرار من إرواء لتعطش الأنا العربية إلى كل ذكر جميل، يخص الأباء والأجداد ويمجد سيرتهم الغابرة، ولنا أن نأخذ مثلاً آخر من شعر المتنبي فيه تكرر، لنرى خصوصيات ذلك وتمييزه عن المأخوذ منه؛ قال المتنبي:

عظمت فلماً لم تكلم مهابةً تواضعت وهو العظم عظماً على العظم

يعلق الصاحب قائلًا: ((فما أكثر عظام هذا البيت، مع أنه من قول الطائي:

تعاضمت عن ذاك التعظم فيهم وأوصاك نيل القدر ألا تنبلا))³

1- المصدر السابق- ص102-103- وينظر بيت المتنبي في ديوانه بشرح البرقوقي - 400/1

2- ينظر الأبيات في ديوان المتنبي بشرح البرقوقي: 403-400/1

3- رسالة الكشف- ص263-264- وينظر: المتنبي- ديوانه- ص56 وبيت أبي تمام في ديوانه بشرح الخطيب التبريزي - 100/3

نرى أن صاحب قد أعاب على المتنبي أمرين هما التكرار و السرقة، معبراً عن ذلك بأسلوبٍ ساخرٍ، لكنَّ المتنبي في بيته السابق يمدح الحسين بن إسحاق التنوخي، وهو آخر بيت في القصيدة التي بلغت تسعةً وثلاثين بيتاً، حيث بدأ بذكر شمائل الممدوح وذلك من البيت الثالث عشر، حتى نهاية القصيدة التي حُتِمت بالبيت السابق. لقد جعل الممدوح قَمَّةً في كلِّ شميْلَةٍ؛ بلغ المرتبة العليا في الفصاحة والشجاعة، ودقَّة الفهم والرحمة وغير ذلك:

لهُ رَحْمَةٌ تُحْيِي العِظَامَ وَغَضْبَةٌ بِهَا فَضْلَةٌ لِلْجُرْمِ عَنْ صَاحِبِ الجُرْمِ
فدى مَنْ عَلَى الغِبْرَاءِ أَوْلَهُمْ أَنَا لِهَذَا الأَبِيِّ المَاجِدِ الجَائِدِ القَرْمِ
وأرهبَ حَتَّى لو تَأَمَّلَ دَرَعَهُ جَرَّتْ جَزَعاً مِنْ غَيْرِ نَارٍ وَلَا فَحْمٍ¹

وهي صفاتٌ قائمة على المبالغة؛ ونحن بعد ذلك كلِّه لا ننتظر من الشَّاعر أن ينهي قصيدته إنهاءً عادياً؛

لأن حالته الانفعالية الصاعدة المتأججة والمفعمة بالإعجاب الكبير بالممدوح، منذ البيت الثالث عشر حتى البيت الثامن والثلاثين، كان من الصعب على الشاعر أن يكبح جماحها في البيت التاسع والثلاثين (الأخير)؛ بل لو فعل ذلك لوقع في تفاوتٍ شديدٍ بين مستويين من العواطف: عاطفة متأججة حارَّة فيما قبل البيت الأخير، وعاطفة باردة هادئة في البيت الأخير: (عظمت فلما لم تكلم)، لذا كان لابدَّ من أن يُفْرِغَ كلَّ ما تبقَّى من شحنته النفسية في آخر بيت، مسائرةً لمستوى المبالغة التي بنى عليها الأبيات السابقة، وسعيًا منه لترسيخ الأثر الذي يرحوه من خاتمة القصيدة؛ فكانت وسيلته لذلك كله التكرار، وفي الحقيقة إنَّ أسلوب التكرار ذو حدَّين؛ فيمكن أن يُقَوِّي المعاني إذا تمكَّن الشاعرُ من السيطرة عليه واستخدامه في مكانه، ((وإلا فليس أيسرَ من أن يتحوَّلَ هذا التكرارُ نفسه بالشعر، إلى اللَّفْظِيَّةِ المبتدلة التي يمكن أن يقع فيها أولئك الشعراء الذين ينقصهم الحسُّ اللغويُّ، والموهبة والأصالة، والقاعدة الأولية في التكرار؛ أنَّ اللفظ المكرَّر ينبغي أن يكون وثيقَ الارتباط بالمعنى العام))².

وحسب تقسيمات أحد النقاد المعاصرين للتكرار المحض³، يمكننا أن ننسب أكثر تكرارات المتنبي بما فيها التكرار السابق إلى نوعين معاً متعاونين فيما بينهما:

أ- التكرار المراد به تقوية النغم

ب - التكرار المراد به تقوية المعاني التفصيلية، ولو نظرنا إلى بيت المتنبي السابق من زاوية السرقة، لرأينا أنه وإن كان اقتبس المعنى من أبي تمام، إلا أنه لم يكن ذاتياً في سياقه؛ لقد علَّق هذا المعنى في فكره نتيجةً لمطالعاته الكثيرة في دواوين الشعراء، وبات قابلاً في لا شعوره، وعندما صادف الشاعرَ مثيرٌ خارجيٌّ: (رؤية الممدوح والإعجاب

¹ - المتنبي- ديوانه بشرح اليرقوني- 4/174 وما بعدها

² - نازك الملائكة- قضايا الشعر المعاصر- ط5- دار العلم للملايين - بيروت- 1978م- ص263-264

³ - عبد الله الطيب- المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها- ط2- بيروت- 1970م- 2/560-561-560

بعظته وتواضعه معاً) ، تلاقى هذا المثير مع ما يناسبه من مخزون الذاكرة لدى الشاعر، ثمّ تمّ تشكيل صورة هذا المعنى بما تملّيه عاطفة الشاعر عليه ، وبما يتلاءم مع سياق الأبيات السابقة واللاحقة في القصيدة الأم.

وعلى الرّغم من اشتراك المتنبي مع أبي تمام في المعنى الأولي وهو معنى متداولٌ مطروقٌ، فإنّ صورة المعنى لدى المتنبي كانت مختلفةً عمّا هي عليه لدى أبي تمام؛ فهنا نرى تبايناً في البنية الدلالية بين الشعاعين ؛ من حيث أنّ الناس المحيطين بممدوح أبي تمام كانوا متكبرين ومتعجرفين ؛ ولذلك ناقضهم الممدوح واتّخذ سلوكاً معاكساً: الترفع عن تعظّمهم، بينما كان الناس المحيطون بممدوح المتنبي ، خاضعين له هيّابين من طلعتة الحازمة ورزانتة التي زادت عن حدّها، ممّا سبّب لهم امتناعاً عن التكلّم إليه ، فما كان منه إلا أن تراخى قليلاً وتواضع لهم ليتواصلوا معه، فيكون المتنبي بهذا قد أغنى معنى العظّمة في ممدوحه، وأبرز الجانب الإنسانيّ في شخصه؛ وهو الحرص على التواصل مع الناس، والمتنبي إنما يقصد ((إلى المبالغة وإبراز المعنى في هذا البيت؛ فانظر إلى هذه المراقى من العظّمة؛ كلّ مرّقة ترتفع بالممدوح في أجواز الفضاء))¹، وأمر آخر نوّكده في طريقة فهم التكرار: إنّ التكرار عند أيّ شاعرٍ مبدعٍ يمتلك ثقافة لغويّة واسعةً ، ولديه مخزونٌ موفورٌ من الموروث الشعريّ المتخمر في ذاكرته ، لا بدّ أن يكون لهذا التكرار لديه ، مخرجٌ ووجهٌ يُقبل على أساسه.

والأفضلُ ألا يُرفضَ ويدمّمَ لمجرّد أنّنا لم نعتز على وجهٍ يُقام عليه ، وبخاصّةٍ إذا كان البيتُ القائمُ على التكرار ليس مفرداً ؛ وإنّما هو من صُلب قصيدةٍ ، وعندها لا بدّ أن يكون التكرار فيه مرتبطاً ببقية عناصر القصيدة في المبنى والمعنى ، أمّا عندما يُتّزع البيتُ القائمُ على التكرار من سياقه العام في جسم القصيدة الأمّ ، ويُنظرُ إليه منفرداً ، فربّما أدّى إلى ذلك التفور منه.

2- الصّورة الفنيّة (التشبيه):

لقد تناول الخصوم في شعر المتنبي المسروق الصورة الفنيّة، وكذلك المحسّنات البديعية، ومن المؤكّد أنّ أسلوب المتنبي في استخدام هذه الفنون، هو الجوهر في سيرورة شعره وخلود فنّه وتميّزه عن الشعر المشترك معه في اللفظ والمعنى، ولو تأملنا عمل شراح المتنبي وناقديه خصوصاً وأنصاراً، لأدركنا تأثرهم الشّديد بتلك التّأليف والمصنّفات التي وضعها البلاغيّون العرب، وقد كان خصوم الشعاع غالباً ما يتشبّهون بتلك الأصول التي تواضع عليها العلماء، ليحاكموا شعر المتنبي المسروق على أساسها، ويطبّقوها حرفياً دون السماح بأيّ تجاوزٍ للمألوف، أو توجّه نحو الإبداع والخلق الفنّي القائم على الانعتاق من القوالب المعهودة، ولا يخفى ما في هذا الاتجاه من ضيق ومحافظيّة لا تثبتُ أمام الواقع الشعري المتطور، تبعاً لاختلاف العواطف والخواطر، التي لا تستطع الصّياغات القديمة حملها ونقلها بالخصوصية التي يقصدها المبدع؛ ففي التشبيه مثلاً – وقد كان وسيلةً أساسيةً في فنّ المتنبي – كانوا يعتمدون في فهمه على ما أصل له علماء البيان؛ من مثل أنّ التشبيه إنّما يقع بين شيئين بينهما اشتراكٌ في معانٍ تعمّمهما ويوصفان بها، وافتراقٌ في أشياء ينفرد كلٌّ واحدٍ منهما عن صاحبه بصفتها، وأحسنُ

¹ د. إبراهيم عوض - لغة المتنبي (دراسة تحليلية) - القاهرة - 1987م - ص 256-257

التشبيه ما وقع بين الشئين اشتراكهما في الصفات أكثر من انفرادهما فيها ، حتى يدني بهما إلى حال الاتِّحاد¹ ، ولم يخرج الخصوم في مفاهيمهم حول الكناية والاستعارة عما أصَّل له الرعيُّ الأوَّل من النقاد؛ فجاؤوا بهذه القواعد الثابتة ، وحاكموا شعر المتنبي على أساسها ، وهم يدركون مسبقاً أنَّ للمتنبي طريقةً في هذه الفنون قائمةً على التَّجاوز والمبالغة المستمرة ، ولم يقفوا أمام فنِّ المتنبي موقفَ المتأمِّل والمحلِّل والمفسِّر ، بل كانوا يوجزون في أحكامهم بطريقة ، هي امتدادٌ للذوق الفنيِّ في العصرين الجاهلي والإسلامي؛ من مثل: هذه استعارة قبيحة أو خبيثة ، أو استعارة مستهجنة أو استعارة مستحسنة ، وهذا تشبيهٌ صائبٌ أو فاسدٌ .. إلخ² ، والجانبُ الأكثرُ خطورةً في نقدهم ، هو هذا العزلُ للصورة الفنيَّة عن سياقها العامِّ في البيت أو في أبيات القصيدة ، دون أن يتنبَّهوا إلى ارتباطاتها ببقية العناصر الفنية في القصيدة الأمِّ ، كما كانوا ينظرون إليها على أنها طلاءٌ خارجيٌّ ، أو عنصرٌ إضافيٌّ للزينة ، لكنَّ النقدَ المنهجيَّ الأكثرُ صواباً هو ((أن تُدرَس الصُّورُ على أنها لوحةٌ متكاملةٌ ذات علاقات صميمية ، وليس على أنها صورٌ مفردةٌ يمكن التعامل معها ، دون النظر إليها في سياق اللوحة ، وفي الشعر يكمل التصويرُ والتعبيرُ ركناً ثالثاً هو الموسيقى ، والموسيقى تنبثق أساساً من علاقات الألفاظ ، فهي بهذا ذات علاقةٍ عضويَّة بالركنين السَّابقي))³

ويمكن القول: إنَّ هذا العزل والتناول الجزئي للصورة الفنية ، كان وسيلةً قويةً بأيدي الخصوم ، لأنَّه سهَّل عليهم إيجادَ الشَّبيه والمماثل لهذا العنصر المجتزأ في شعر المتنبي ، ومن ثمَّ نعتته بالمسروق ، موسَّعين بذلك من مجال الاتِّهام بالسَّرْق لكنَّ تقطيع الصورة بهذا الشكل ما هو إلا إهمال لروحها وقيمتها ، التي لا تتبيَّن إلا بالنظر إليها ضمن سياقها ، إنَّ (هذه الطريقة لا بدَّ أن نتجاوزها اليوم لنعيد إلى الصورة البلاغية روحها ، التي لا تكون صورة أدبية بغيرها ، فإذا فقدتها فقدت قيمتها ، وغدَّت صورةً بلا حياةٍ أو إحياء))⁴ . ويوضِّح ذلك صورةً فنيةً قائمة على التشبيه من شعر المتنبي: يقول المتنبي مادحاً سيفَ الدولة وواصفاً كتيبةً من كتائبه:

(وملمومةٌ سيفيةٌ ربَّعيَّةٌ يصيحُ الحصى فيها صياحَ اللِّقاليق)

حيث نعتته الحاتمي بأنه من قبيح التشبيه ، ثمَّ اتَّهم المتنبي بأخذه من ابن المعتزِّ في قوله: (وبلدة صائحة الصَّخور) وقد قال له المتنبي وقتها: أما تشبهُ أصواتُ الحصى من تحت حوافر الخيل أصواتَ اللِّقاليق؟ فردَّ عليه الحاتمي:

1. ينظر في: قدامة بن جعفر- نقد الشعر- ص109- وابن رشيق- العمدة 237/1-238-240 - وابن طباطبا العلوي- عيار الشعر- تح: د.عبد العزيز بن ناصر المانع- منشورات اتحاد الكتاب العرب- دمشق- 2005م- ص16
2. ينظر في: الحاتمي- الموضحة- ص69 حتى ص73 - وفي: الصاحب ابن عباد- رسالة الكشف - ص253
3. أحمد يوسف داود- لغة الشعر- وزارة الثقافة - دمشق- 1980م- ص142
4. د.أحمد بسام ساعي- الصورة بين البلاغة والنقد- ط1- المنارة للطباعة والنشر والتوزيع- 1984م- ص31

هَبُّهُ أَشْبَهُهُ، فهل هو من محاسن التشبيه ؟ ألا ترى أنهم هَجَّنُوا قولَ لبَّيد: وتركاً كالبلبل¹. لقد ألحقَ الحاتميَّ عييين بتشبيهه المتنبي هما: الفساد، السرقة ومردُّ الفساد عنده هو أنه لم يجرِ في تشبيهات الشعراء العرب، مثل هذا التشبيه، والمستهجَن عنده هو المشبه به: (صياح اللقالق)، ومع أنَّ المتنبي في بيته السابق نقل إلينا صورةً فنية قائمة على حاسة السمع، وهي صورة واقعية يمكن لكلِّ من عرف صوتَ اللقالق أن يتخيَّلها، ومع أنها قائمةٌ على تشبيهه مصيبٍ ومحقِّقٍ لما فضَّله النقادُ القدامى في التشبيه؛ من حيث أن يكون وجهُ الشَّبه قريباً واضحاً بين المشبه والمشبه به، من دون أن يصل ذلك إلى درجة الاتحاد بينهما، مع ذلك كلَّه فإنَّ الحاتمي استهجن هذا التشبيه، مكتفياً بتعليلٍ مُقتضبٍ، وفي الحق كان في مقدور الحاتمي أن يقبل هذا التشبيه، بناءً على مقاييس التشبيه المعهودة؛ فالمتنبي قد حقَّق وجهَ الشبه بين المشبه والمشبه به: بين صوت الحصى وصوت صياح اللقالق، عندما نقل إلينا هذه الصورة السمعية القائمة على واقعٍ مُشاهدٍ ومسموعٍ، لأنَّ اللقالق طائرٌ كبيرٌ يسكن العمرانَ في أرض العراق، وهو كثيرٌ في قرى العراق، ولا بدَّ أنَّ المتنبي قد تكرَّر سماعُهُ لصوت اللقالق وهي مجتمعة، نظراً لأسفاره الكثيرة في البوادي، ولا بدَّ أن الحاتمي أيضاً قد سمع أصواتها، فلماذا يصف هذا التشبيه بالفساد؟ ومن ناحية أخرى فإنَّ استحضارَ هذه الصورة السمعية (صوت الحصى وصوت اللقالق)، وجَعَلَ هذا الصوت صياحاً، كان منسجماً مع المعنى الذي أرادَه المتنبي؛ وتفسير ذلك أنَّه عندما أراد إبراز قوة أفراد الكتبية وثقل وُقوع أقدامها على حصى الصحراء، وأراد أن يصوِّر للمتلقِّي ذلك الصوت الصادر عن ارتطام أقدامهم وحوافر خيولهم بهذه الحصى، تصويراً أقرب ما يكون إلى الواقع، ومفعماً بإحساس الحماس والإعجاب بقوة جيش سيف الدولة، عندما أراد ذلك كلَّه تداعَتْ إلى خاطره صورةٌ سمعيةٌ وثيقة الصلة بالبيئة التي يعيش في أحضانها، وهي صورة (صياح اللقالق) التي تناسب المعنى المنشود كلَّ المناسبة، ثم إنَّ هذا التشبيه الذي انتزعه الحاتمي من جسد البيت ومن صلب القصيدة الأم، كان مرتبطاً بالبيتين السابقين له؛ يصف فيهما المتنبي أولئك الأعراب الهاربين من كتائب سيف الدولة:

أتى الظُّغْنُ حَتَّى ماتَطِيرُ رُشاشَةً من الخيلِ إلَّا في نَحورِ العواتقِ

بكلِّ فلاةٍ تنكرُ الأَنْسَ أرضُها ظعائنُ حمُرِ الحَلْيِ حمُرُ الأيانيقِ

وملمومةٌ سيفيةٌ ربيعةٌ يصيحُ الحِصا فيها صياحُ اللقالق²

وتفسير ذلك أنَّ هذه الأرض الصحراوية، التي لم تطأها قدمُ إنسان من قبل: (تنكر الأَنْسَ أرضُها)، سيؤدِّي إلقاءَ الكتبية بثقلها على حصاها التي لم يسبق لها أن وُطِئَتْ، إلى توجُّعٍ فظيعٍ، يبرز في الصوت القوي للحصى؛ ذاك الصوت الذي لا شبيه له إلا صوت مجموعة من اللقالق تصيح، وهي صورةٌ مبنيةٌ على الاستعارة المكنية في

¹ الحاتمي- الموضحة - ص 30-31- وينظر: لبَّيد بن ربيعة العامري - ديوانه - ط 2- تح: إحسان عباس - مطبعة حكومة الكويت- 1984م - ص 191- والبيت

كاملاً: (فَحْمَةٌ ذُفْرَاءُ تَرْتِي بِالْعَرَى فُرْدُمانياً وتركاً كالبلبل) - وينظر بيت المتنبي في ديوانه بشرح البرقوقي 67/3

² المتنبي- ديوانه بشرح البرقوقي - 66/3 وما بعدها

قوله: (يصيح الحصى)، وعلى التشبيه في قوله: (يصيح الحصى صياح اللقالق)، ثم إن التشكيل الصوتي في لفظة (اللقالق)، وهذا التماثل البارز بين حرفي اللام والتماثل بين حرفي القاف، كان مؤثماً لشعور الخوف والدُّعْر والقلق الذي ملأ قلوب الأعراب الهاربين من جيش سيف الدولة؛ وبناءً على ذلك: من الملاحظ عند المتنبي ((أَنَّ جُلَّ تشبيهاته تأتي في خدمة الصورة الكلية في القصيدة، غير منفصلة عنها))¹.

ومن جهة السرقة فإن الحاتمي يجعل المتنبي أخذاً من ابن المعتز، لأجل هذا التشابه بين (تصبح) في بيت المتنبي (وصائحة) في عبارة ابن المعتز، دون أن يتنبّه إلى التشكيلات المتنوعة التي أقام عليها المتنبي معناه، وإلى ارتباط البيت بما قبله كما أوضحنا سابقاً، وبالموقف الشعوري العام في القصيدة.

ولئن كان المتنبي أخذ التشبيه من ابن المعتز، فقد أحسن الأخذ عندما أبرز صياح الحصى؛ بتشبيهه بصياح اللقالق، ولم يقتصر على القول: (يصيح الحصى) مثل ابن المعتز: (صائحة الصخور)، وقد كان المتنبي حريصاً على انتقاء أصوات الحروف، وخلق التماثل الشديد والتناغم فيما بينها؛ إذ كرّر صوت الصاد ثلاث مرات في الشطر الثاني: (يصيح الحصى صياح)، وجعله متناوباً مع تكرار حرف حلقي هو الحاء في الكلمات السابقة نفسها، وحرف الصاد شديد الإيحاء بصوت الحصى، حتى لكأننا نسمع صوتها الحقيقي في هذه الصادات الثلاث، حيث عملت حروف الحاء المتناوبة معها على إبراز إحساس الخوف في قلوب الهاربين.

رابعاً: أهمُّ النَّتائج:

مما سبق نخلص إلى القول: إنَّ خصومَ المتنبي لم يكونوا مدفوعين في نقدهم بدوافع نقيّة، قائمة على نيّة الإنصاف وإغناء خزانة النقد العربي، بل كانوا مدفوعين برغبات جامحة لتحطيم المتنبي شاعراً وإنساناً، فتمسّكوا بتحقيق مهامهم بفكرة أنّ الشعر صناعةٌ وقواعد تقليدية، لا يجوز لمُحدّث أن يتجاوزها، وهم يدركون مسبقاً أنّ المتنبي ذو مذهبٍ في الشعر والفنّ، مخالفٍ في كثيرٍ من مواضعه للمألوف في السنّة الثقافية والشعرية، كما لجؤوا إلى انتزاع الشاهد الشعريّ من جسم القصيدة الأمّ في شعر المتنبي، ليسهّل عليهم استحضار المشابه له في الموروث الشعري، متجاهلين علاقة ذلك العنصر المعزول، بالعناصر الفنية الأخرى المتعاونة على إكمال اللوحة الشعورية الشعرية للقصيدة الأمّ - فكان عملهم هذا بعيداً عن الموضوعية -

ومن جهةٍ أخرى يمكن القول: إنّ التّشبيه وسائر أنواع الصّورة الفنّيّة في شعر المتنبي، بلغت درجاتٍ من التّراء؛ حيث لا يتناسب معها دائماً أن نقيسها على القوالب القديمة؛ ((لقد كانت صوراً إيحائيةً ترتبط بالموقف النفسي، وتموج بالحياة والحركة، وتتدافع ناميةً متطوّرةً، لتبعث الحياة والديفء في كلّ ما يتناولُه الشّاعرُ من معنَى، مُحقِّقةً بذلك بناءً عضويّاً متفرداً وأصيلاً))²

¹. مصطفى أبو العلاء - شعر المتنبي - دراسة فنية - ملتزم الطبع والنشر: مكتبة نهضة الشرق - د0ت- ص325

². أيمن العشماوي- قصيدة المديح عند المتنبي وتطورها الفني - ط1- دار النهضة العربية للطباعة والنشر- بيروت- 1983م- ص187

قائمة المصادر والمراجع:

أولاً: الدواوين الشعريّة:

- البحري ، أبو عبادة الوليد بن عبيد الطائي- ديوانه- ط3- تح : حسن كامل الصيرفي - دار المعارف - القاهرة - 1977م.
- أبو تمام ، حبيب بن أوس الطائي- ديوانه بشرح الخطيب التبريزي - ط5- تح : محمد عبده عزام- دار المعارف- القاهرة-1987م
- ابن ربيعة ، لبيد العامري - ديوانه- ط2- تح : إحسان عباس- مطبعة حكومة الكويت - 1984م.
- ابن الرومي- ديوانه- تح : دحسين نصار وآخرون - مطبعة دار الكتب- وزارة الثقافة - مركز تحقيق التراث - 1977م.
- المتنبي، أحمد بن الحسين - ديوانه بشرح عبد الرحمن البرقوقي- ط2- الناشر : دار الكتاب العربي- بيروت- لبنان-1986م.
- المتنبي، أحمد بن الحسين- ديوانه- ط3- دار صادر- بيروت - 2003م.

ثانياً: كتب التراث:

- ابن الأثير ، ضياء الدين-المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر- قدّمه وعلّق عليه : أحمد الحوفي وبدوي طبانة دار نهضة مصر للطبع والنشر- الفجالة- القاهرة-1973م .
- البديعي ، يوسف - الصبح المنبي عن حيثيّة المتنبي- مطبعة الاعتدال- عنيت بنشره مكتبة عرفة بدمشق - 1350هـ
- الحاتمي ، أبو علي محمد بن الحسن - جلية المحاضرة في صناعة الشعر- تح : دجعفر الكتاني - وزارة الثقافة والإعلام- دار الرشيد للنشر- الجمهورية العراقية - 1979م.
- الحاتمي ، أبو علي محمد بن الحسن- الموضحة في ذكر سرقات أبي الطيب المتنبي وساقط شعره - تح: دمحم يوسف نجم - دار صادر- بيروت - 1965م .
- ابن رشيق القيرواني- العمدة في محاسن الشعر وأدابه ونقده - ط1- تح : محمد محيي الدين عبد الحميد- دار الطلائع للنشر والتوزيع- القاهرة-2006م.
- ابن سنان الخفاجي- سر الفصاحة - ط1- دار الكتب العلمية - بيروت- لبنان- 1982م.
- ابن طباطبا العلوي - عيار الشعر- تح : دعبد العزيز بن ناصر المانع - منشورات اتحاد الكتاب العرب - دمشق- 2005م.
- ابن عباد ، الصحاب- رسالة الكشف عن مساوئ المتنبي- ملحقة بكتاب الإبانة للعميدي.

- العميدي ، أبوسعيد محمد بن أحمد-الإبانة عن سرقات المتنبي- ط2- تح : إبراهيم الدسوقي البساطي- دار المعارف بمصر دت

- أبو الفرج ، قدامة بن جعفر- نقد الشعر- ط3-تح : كمال مصطفى- الناشر : مكتبة الخانجي بالقاهرة- 1978م.

- أبوهلال العسكري- كتاب الصناعتين- الكتابة والشعر- ط1- تح : مفيد قميحة - دار الكتب العلمية - بيروت- لبنان 1981م.

- ابن وكيع ، الحسن بن علي التنيسي- المنصف للسارق والمسروق منه في إظهار سرقات أبي الطيب المتنبي - ط1- تح: محمد يوسف نجم- دار صادر- بيروت- 1992م.

ثالثاً: المراجع الحديثة:

- إبراهيم ، طه أحمد- تاريخ النقد الأدبي عند العرب من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع الهجري- دار الحكمة - بيروت- لبنان- 1937م.

- داود ، أحمد يوسف - لغة الشعر- وزارة الثقافة – دمشق - 1980م.

- الريدائي ، محمود – الحركة النقدية حول مذهب أبي تمام- تاريخها وتطورها وأثرها في النقد العربي القديم دار الفكر للطباعة والنشر- دت

- ساعي ، أحمد بسام - الصورة بين البلاغة والنقد- ط1- المنارة للطباعة والنشر والتوزيع - 1984م.

- صبحي ، محيي الدين- شاعرية المتنبي في نقد القرن الرابع للهجرة - منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي- دمشق- 1983م.

- الطيب ، عبد الله - المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها - ط2- بيروت - 1970م.

- عباس ، إحسان - تاريخ النقد الأدبي عند العرب من القرن الثاني حتى الثامن الهجري - دار الأمانة ومؤسسة الرسالة- بيروت- 1971م.

- العشماوي ، أيمن محمد زكي- قصيدة المديح عند المتنبي وتطورها الفني – ط1- دار النهضة العربية للطباعة والنشر- بيروت- 1983م.

- أبو العلاء ، مصطفى- شعر المتنبي - دراسة فنية - ملتزم الطبع والنشر : مكتبة نهضة الشرق - دت - عوض ، إبراهيم - لغة المتنبي (دراسة تحليلية) – القاهرة- 1987م.

- الملائكة ، نازك- قضايا الشعر المعاصر- ط5- دار العلم للملايين – بيروت - 1978م.

التناس الإيقاعي مع القرآن الكريم في شعر النبهاني ولد المحبوبي

"دراسة في المستوى الفني والدلالي"

Rhythmic intertextuality with the Qur'an in the poetry of Al Nabhani Ould Al Mahbobi (A study of the level of technical and semantic)

د.محمد أحمد المختار. جامعة انواكشوط. موريطانيا

Mohamed Sidi Mohamed Ahmed Al Mokhtar - Mauritania

ملخص:

هذا البحث محاولة لدراسة التناس مع القرآن الكريم في ديوان شاعر موريتاني معاصر هو النبهاني ولد المحبوبي، وقد اقتصرت الدراسة على الجانب الإيقاعي بالذات؛ فبينت مدى استفادة الشاعر من ألفاظ القرآن في قوافيه، وأبرزت أثر هذه الألفاظ في معانيه، مبينة مدى مسaire الدلالة في نص الشاعر أو مخالفتها للدلالة القرآنية، كما ولت الدراسة وجهها نحو الناحية الفنية، مبرزة ما صاحب التناس من نجاح أو إخفاق؛ حيث قسمت التناس حسب وظيفته الجمالية إلى قسمين: تناس محكم، وتناس مقحم، تناولت في الأول النصوص التي نجح الشاعر في توظيفها فنيا، وتناولت في الثاني النصوص التي قصر فيها التناس جودة وإبداعا. كلمات مفتاحية: التناس، الشعر الموريتاني المعاصر، النبهاني المحبوبي.

Abstract

This research is aiming to study the intertextuality with the holy Quran in divan of a contemporary Mauritanian poet called EL Nebhani EL Mahboubi, the study is limited to the rhythmic aspect in particular, so it stated the extent to which the poet has benefited from the words of the holy Quran in his rhymes, highlighting the impact of these words on his semantic, indicating the extent to which the consistency with the concept of the poem or inconsistency with the Koranic concept, also the study tended to the technical side, to highlight what have accompanied the intertextuality of success or failure; and divided the intertextuality according to its aesthetic aspect into two parts: textured intertextuality and intercalated intertextuality, and then it dealt in the first part with texts that poet had succeeded in functioning them technically and with the texts that he malfunctioned qualitatively and creatively in the second part.

Keywords: Intertextuality, poetry, Mauritanian, contemporary, Rhythmic intertextuality

تمهيد:

يُعد التناس أحد المصطلحات النقدية التي برزت في ميدان النقد الأدبي مع بداية النصف الثاني من القرن العشرين، وذلك في سياق أفول البنيوية، وبزوغ ما بعدها من مناهج، وتتفق كلمة الباحثين على أن الناقد البلغارية جوليا كريستيفا هي أول من اخترع المصطلح متكئة على أبحاث أستاذها ميخائيل باختين، إذ استقت منه المفهوم، وظهر المصطلح في أبحاثها التي أصدرتها في مجلتي: "تلكيل telquel"، و "كريتك critique" ما بين 1966 و1967، ثم أعادت نشرها في كتابها: سميوتيك semiotique ونص الرواية le texte du roman، وفي مقدمة كتاب دستوفسكي لباختين¹.

والتناس في أصله اللغوي ترجمة للكلمة "Intertextuality" ومعناها تداخل النصوص، وهو مأخوذ من النص على زنة التفاعل للدلالة على المشاركة، ولم يرد لهذا اللفظ ذكر في المعاجم العربية القديمة إلا لدى تاج العروس، و تبعه المعجم الوسيط حديثاً، وقد عرفاه بأنه الازدحام²، وهي دلالة لا تبعده عن دلالاته المعاصرة، إذ يوحى تراحم النصوص بتداخلها.

وقد بدأ هذا المصطلح منذ ظهوره يتحرك على خريطة النصوص الأدبية منتقلا من دلالة لأخرى حسب اختلاف النقاد، والبيئات الثقافية؛ إذ تلبس بالتفكيكية في بداية ظهوره مع جوليا كريستيفا وقرنائها من أصحاب التصور التفكيكي كرولان بارت، ورائد التفكيكية جاك دريدا³، وقد حاولوا توظيف المصطلح ابتغاء زعزعة الدلالة، وابتغاء التمرد على ما هو ثابت على مستوى الدين والفكر، في حين جعله آخرون وسيلة فنية لقراءة النصوص، وتقريب دلالاتها كما نجد لدى جيرار جينيت وميكائيل ريفاتير ومن اتبعهم من النقاد المعاصرين.

وقد انتقل المصطلح إلى النقد العربي عن طريق النقاد المغاربة الذي كانوا. حينئذ. أكثر احتكاكا بالنقد الفرنسي، فظهر في نهاية السبعينيات مع محمد بنيس ثم محمد مفتاح ليتم توظيفه بعد ذلك في السعودية ومصر وغيرها من البلدان الأخرى.

1. التناس في الخطاب النقدي والبلاغي، دراسة نظرية وتطبيقية، عبد القادر بششي، إفريقيا الشرق، 2007، ص:18

2. تاج العروس من جواهر القاموس، محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني، أبو الفيض، الملقب بمرتضى، الرِّيدي(ت:1205هـ)، مجموعة من المحققين، دار الهداية، الجزء 18، ص:182، المعجم الوسيط، مجموعة من المؤلفين، مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدولية، الطبعة الرابعة 1425، 2004م، ص:926، وقد ورد في كليهما ما نصه: "تناس القوم: ازدحموا."

3. والتفكيك "استراتيجية" تروم قراءة الفكر الغربي قراءة شاملة، وإعادة النظر في المفاهيم التي تأسس عليها خطابه الميتافيزيقي؛ مثل الحقيقة والعقل والهوية، والحضور والأصل...، فالأمر يتعلق بخلخلة ميتافيزيكا الحضور، لأن الإطار الذي انبنت عليه هذه الميتافيزيكا يحدد الوجود بوصفه حضورا بكل ما تحمله هذه الكلمة من معاني سواء اتخذ اسم الصورة أو الفكرة أو الأصل أو الغاية أو الحقيقة...⁽³⁾، يمكن النظر في كتاب: استراتيجية تفكيك الميتافيزيكا. حول الجامعة والسلطة والعنف والعقل والجنون والاختلاف والترجمة واللغة. جاك دريدا. ترجمة وتقديم: عز الدين الخطابي. إفريقيا الشرق. المغرب. 2013. ص:7/6.

ولا يعز وجود جذور للمصطلح في نقدنا العربي القديم، فقد تناول علاقات النصوص تناولاً يقترب في بعض مآزره من نظرية التناس المعاصرة، وذلك في إطار نظرية السرقات التي كانت في بعض تطبيقاتها قريبة من المفهوم المعاصر رغم علقها بالبعد الأخلاقي، وتوظيفها في سبيل تقويم الشعراء غالباً بدل قراءة النصوص.

وسنحاول تبيان ما نقصده بالتناس بدءاً، وهو أمر لا مندوحة عنه في ظل ما شهده المصطلح من تضارب في المفهوم من جهة، وفي ظل تناوله في علاقته مع القرآن الكريم من جهة أخرى، ومن ثم فالتناس هو توظيف نص لنص سابق أو مجموعة من النصوص، وليس معنى ذلك أن البحث يولي وجهه شطر المصادر، و يكتفي بالتنقيب في شجرة أنساب النصوص، وإنما العبرة بطريقة توظيف النصوص الغائبة، واستفادة الشاعر منها.

وقد اخترنا النيهاني ولد المحبوبي¹، لأنه أحد الشعراء الموريتانيين الشباب الذين لم تحظ نصوصهم بنصيبها من القراءة النقدية حسب مبلغنا من العلم، ولأنه من أكثر شعراء جيله توظيفاً للنصوص الغائبة لاسيما القرآن الكريم.

وسنقسم البحث منهجياً إلى قسمين: قسم ستناول فيه التناس من الناحية الدلالية، وقسم سنتناوله من الناحية الفنية، حيث سنركز في القسم الأول على دلالة التناس ومدى مسيرتها للدلالة القرآنية، أو مخالفتها لها، وسنركز في القسم الثاني على مدى النجاح أو الإخفاق في توظيف النص الغائب.

1. التناس الإيقاعي مع القرآن الكريم في شعر النيهاني من حيث الدلالة:

يُطلق التناس الإيقاعي - في هذا البحث - على كل تناس لاحظنا أن الشاعر جلبه خدمة للقافية، أو كان له تأثير فيها، سواء كانت للتناس وظيفة أخرى أم لم تكن، وقد تنبه نقاد العرب إلى قوة التناس الإيقاعي منذ ظهور التناس، فعبد الله محمد الغدامي وهو أحد رواد التناس عربياً، يعتبر الإيقاع أبرز مظاهر التناس (المداخلة)، حيث يقول: <<إن أقوى الإشارات وأقدرهن على المداخلة، هي إشارات القوافي. وذلك لأن قوافي الشعر العربي محكمة البناء الصوتي، وللروي سلطان بالغ في اختيار الكلمة... وإذا تضافر صوت الروي مع الوزن، في تركيب

¹ هو محمد ولد محمد سالم ولد المحبوبي من مواليد: 1982 بنواكشوط، تربى تربية دينية في أسرة مشهورة بالعلم والقضاء، تلقى تعليمه الأول على النهج التقليدي، فدرس القرآن الكريم، ومتون اللغة والفقه، ثم التحق بالتعليم النظامي ليحصل على شهادة البكالوريا في الآداب الأصلية سنة: 2000، ثم حصل على شهادة الإجازة "المتريز" في القانون العام، شعبة العلاقات الدولية، محرزا الرتبة الأولى، كما أحرز شهادة الإجازة كذلك من المعهد العالي للدراسات والبحوث الإسلامية، شعبة الفقه وأصوله سنة: 2006، ثم تابع دراسته القانونية في كل من الجزائر والمغرب ليحصل على شهادة الماستر في العلاقات الدولية والتمثيل الدبلوماسي والقنصلي من جامعة الحسن الثاني، كلية العلوم القانونية والاقتصادية والاجتماعية بالمحمدية الدار البيضاء سنة: 2009.

عضو المكتب التنفيذي لاتحاد الأدباء والكتاب الموريتانيين، وعضو في اتحاد الأدباء العرب، وعضو منتدى القصيدة الموريتاني. له عدة مشاركات في المهرجانات المحلية والدولية منها مشاركته في مسابقة أمير الشعراء، واختياره ضمن الشعراء الخمسة والثلاثين، وله عدة أعمال شعرية ونثرية نشر منها ديوانه: "الأناث الصامتة" سنة: 2008، وهو الذي تتناوله هذه الدراسة.

القافية صوتا وإيقاعا، فإن فرص المداخلة عندئذ ستكون عالية جدا»⁽¹⁾

وينبغي أن ننبه في البدء إلى أن التناس الإيقاعي مع القرآن الكريم ينقسم إلى قسمين: تناس مع الكلمة المفردة، وتناس مع التراكيب، وكلاهما مما لاحظنا وجوده في الديوان، ولكننا أثرنا تناولهما معا غير مفرقين بينهما على مستوى التطبيق، لأن الكلمة المفردة التي هي مُتجلى الإيقاع لا تأتي غالبا إلا متصلة بأخرى لفظا أو دلالة، ولأن فصل الكلمة المفردة عن التركيب يجعلنا مضطرين إلى ترتيب أبيات التناس ترتيبا يخل بوحدة الدلالة، ويفرق بين مَبَارز التناس داخل القصيدة الواحدة.

ويعتبر التناس مع الكلمة المفردة مما لا تكاد تسمع له ركزا خارج القرآن الكريم، ذلك بأن الألفاظ عادة "لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة، ولا من حيث هي كلم مفردة، وأن الفضيلة وخلافها، في ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها، وما أشبه ذلك، مما لا تعلق له بصريح اللفظ."⁽²⁾

لكن كثيرا من المفردات القرآنية تحتفظ بشعاع من أثر القرآن، لا تفارقها سيماها، ولا يعزب عنها أثره حتى بعد دخولها في تركيب آخر، وسياق جديد؛ من أجل ذلك تجد لفظا قرآنيا واحدا يستقل برسم صورة شاخصة، ويكون ذلك "تارة بجرسه الذي يلقيه في الأذن، وتارة بظله الذي يلقيه في الخيال، وتارة بالجرس والظل جميعا."⁽³⁾

بيد أن اعتبار اللفظة قرآنية لا يتوقف على خصائصها الذاتية، ولا على دخولها مع لفظة أخرى فحسب، وإنما قد نعتبر لفظة قرآنية انطلاقا من وجود علاقة بين سياقها الجديد، وبين السياق القرآني، سواء كان ذلك عبر اتفاق السياقين أو اختلافهما.

وقد يتجاوز التناس الإيقاعي القافية إلى البيت أو السطر الشعري، لكننا سنخصص التناس الإيقاعي بما كان له اتصال بالقافية، وتأثير فيها؛ سواء تجاوز تأثيره القافية أو اقتصر عليها.

ولو جعلنا كل لفظة قرآنية وظفها الشاعر في قافيته من باب التناس الإيقاعي لأدرجنا جل قوافيه في هذا الباب، لكننا لا نحكم بالتناس إلا حين نجد في الدلالة مما يعزز ذلك، ويمكن التمثيل لهذا بقول الشاعر في قصيدته "نشيد الضياع":

فَسَمِيرِي النُّجُومُ وَالطَّيْفُ وَالسُّهُمُ *** دُ وِلِي مَرَكَبُ المِتَاهِ قَرِينُ⁴

(1)- الخطيئة والتكفير من البنيوية إلى التشريحية، قراءة نقدية لنموذج معاصر، عبد الله محمد الغدامي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الرابعة، 1998م، ص: 337

(2)- دلائل الإعجاز، أبوبكر، عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني النحوي، قراءة وتعليق: أبو فهر محمود محمد شاكر، مطبعة المدني/المؤسسة السعودية بمصر، الطبعة الثالثة، 1413هـ/1992م، ص: 46

(3)- التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، دار الشروق، الطبعة الشرعية السادسة عشرة، 1423هـ/2002م، ص: 91، ويمكن النظر في أمثلة من هذه الألفاظ القرآنية من كتاب سيد قطب في الصفحات: 91، 92، 93، 94، 95، 96.

⁴ ولد المحبوب، النهاني، 1429هـ/2008م، الأناث الصامته، ط 1، اتحاد الأدباء والكتاب الموريتانيين، موريتانيا ص: 69.

لقد تبين لي أن في البيت تناسبا إيقاعيا مع القرآن الكريم، ولا يخلو الأمر من غرابة، لأن "القرين" من باب العام في اللغة، ولا يمكن تخصيصه إلا بدليل، إذ هو كالمنون الذي وردت في القرآن الكريم، وفي القصيدة نفسها، ولم نرها تناسبا¹، والسبب الذي جعلنا نرى هذه متناصبة دون تلك، هو ارتباطها بلفظة "المتاه" التي تعني الضلال، والضلال مرتبط بالقرين في القرآن الكريم، فالقرين في القرآن الكريم لا يرد إلا شيطانا، أو شبيها بالشیطان، فقد ورد شيطانا في قوله تعالى من سورة النساء: [وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا (38)] وقوله في سورة الزخرف: [وَمَنْ يَعْتَسُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِضَ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (36) وَإِنَّهُمْ لَيَصِدُّوهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (37) حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ (38)]

ومن وروده شبيها بالشیطان قوله تعالى في سورة الصافات: [قَالَ قَائِلٌ مِمُّهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ (51) يَقُولُ أَتِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (52) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمُكْدِبُونَ (53) قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ (54) فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ (55)].

هكذا نجد القرين في القرآن الكريم مرتبطا بالضلال، وللدلالة ذاتها وظفه الشاعر، وبذلك استطاع استثمار اللفظ إيقاعيا، كما استطاع من الناحية الدلالية أن يثير في نفس المتلقي ما تثيره لفظة القرين القرآنية من صور مرتبطة بالمتاهة والضلال، فجاء التناص. من حيث الدلالة. موافقا للقرآن الكريم²، الشيء الذي نجد ما يشابهه في القصيدة نفسها حين يتناص الشاعر مع لفظ قرآني آخر فيقول:

غَلَبْتَنِي مَوَاجِعِي هَلْ أُغَيِّي وَلِسَانِي مَعَ الْأَسَى لَا يَبِينُ³

لقد تناص الشاعر مع قوله تعالى في سورة الزخرف حكاية عن فرعون: [أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ (52)]، لقد وظف الشاعر الدلالة القرآنية ذاتها، محولا عدم الإبانة من موسى عليه السلام إلى نفسه، لكنه حذف "كاد" التي تدل على ضعف الإبانة لا انتفاءها، وحسنا فعل، لأنه أراد التعبير عن قوة الأسى،

¹ أما ورودها في القصيدة ففي قول الشاعر من الصفحة نفسها:

سَكَنْتَنِي الضَّنْفَافُ حَتَّى تَغْرَبُ **** تَصَاحَتْ أَمَامَ وَجْهِ الْمُنُونِ،

² والتناص الموافق: هو الذي يسير فيه النص المتبع. دلاليا. في اتجاه النص المتبع، وقد أشار إليه كثير من الدارسين، ولعل أولهم في النقد العربي محمد بنيس؛ صاحب مصطلحي: الاجترار والامتصاص اللذين ينضويان تحت هذه الموافقة، كما يتجلى من دلالة لفظيها، ومن تعريفه لهما، رغم ما شابه تعريفه من تقويم لا نقر به، يمكن النظر في كتابه: ظاهرة الشعر المعاصر في المغرب، مقارنة بنيوية تكوينية، محمد بنيس، دار التنوير للطباعة والنشر، الطبعة الثانية، 1985 م ص: 253

³ ولد المحبوب، النهاني، 1429هـ/2008م، الأناث الصامته، مرجع سابق، ص: 69

وسيطرته عليه، حتى لم يعد يستطيع معه التعبير، ثم إن الأسلوب الشعري يتحرى المثال لا الحقيقة خلافاً للتعبير القرآني الذي يجمع بينهما.

ويواصل الشاعر في القصيدة نفسها توظيف الفواصل القرآنية فيقول:

وَسَقَوْنِي وَأَتَرَعُوا لِي كُؤُوسِي مِنْ نَبِيدٍ مَذَاقُهُ غَسْلِينَ¹

فهذا البيت يتناص مع قوله تعالى في سورة الحاقة: [فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ (35) وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غَسْلِينَ (36)]

لقد قدم الشاعر في هذا البيت مفارقة جميلة، وذلك حين جمع بين النبيذ والغسلين، معبراً عن الخيانة والغدر اللذين تعرض لهما، باعتبار النبيذ رمزاً لما تربه الأيام، والغسلين² رمزاً لما يراه حقيقة، وسواء كان الشاعر يتحدث عن تجربة حب كما توحى بداءة القصيدة³، أو كان يتحدث عن أماله وطموحاته التي عصفت بها الأيام كما تعززها أبيات أخرى أيضاً⁴، فإن جمال تناصه القرآني يظل بارزاً في كلا التأويلين، ففي الأول نجد الحبيبة تمد له النبيذ لتغره فتغويه ثم ترديه، وفي الثاني نجد الأيام تبسم له وتقدمه له أماله في أكواب النبيذ، وحين يتذوقها يجدها غسلينا.

وإذا كان التناسل القرآني في الأبيات السالفة مستقى من سور مختلفة فإننا نجد الشاعر في بعض قصائده يعود إلى سورة واحدة ليقتبس من نور فواصلها في قوافيه، كما نجده في قصيدته "ترانيم منكسر على باب الوطن"، حيث يقول فيها:

¹ ولد المحبوبي، النهاني، 1429هـ/2008م، الأناث الصامته، مرجع سابق ص:70.

² الغسلين: هو طعام أهل النار كما يتجلى من الآية، وقد اختلف المفسرون في معناه الدقيق، فقال قوم هو صديد أهل النار، وحاول اللغويون توظيف أصله اللغوي في تأويله، فقالوا: كل جرح غسلته فخرج منه شيء فهو غسلين، أي فعلين من الغسل زادت فيه الياء والنون مثل عَفْرَيْنَ، واعتبره آخرون من الألفاظ التي لا يعلم دلالتها أحد، وتوقف قوم عند دلالاته القرآنية دون تفصيل، فقالوا: هو شر الطعام وأخبثه وأبشعه. يمكن الرجوع لهذه الأقول في كتاب: جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الأملي، أبو جعفر الطبري "ت:310هـ"، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، 1420هـ/2000م، الجزء:23، ص:591.

³ يقول في بدء القصيدة:

عَزَّيْ يَا مُرُوحَ إِنِّي حَزِينٌ *** وَيَقْلِبِي إِلَى الْحَبِيبِ حَزِينٌ

هَاجَرَ الْحُبُّ عَنْ زُبُوعِي طَرِيداً *** وَعَلَيْهِ مِنَ الْهَوَى سَكِينٌ، ص:69

⁴ ومن ذلك قوله قبل البيت محل التناسل:

قَدَّرِي أَنْ أَظَلَّ خَلْفَ نَشِيدِي *** تَاءً، وَالْحُلْمُ الْجَمِيلُ سَجِينٌ

ذَاتَ يَوْمٍ عَلَيَّ قَصُوءًا عَنِ الْأَرْ *** ضٍ وَعَنْ فَجْرَهَا وَكَيْفَ بَزِينٌ، ص:70

هُنَا مَقَامٌ بِهِ مَنْ حَلَّ مُعْتَصِمًا فَلَا يَخَافُ بِهِ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا¹

يتناص الشاعر . هنا . مع قوله تعالى في سورة الجن: [وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى أَمْنَا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا (13)] لقد ورد هذا البيت في سياق حديث الشاعر عن وطنه، فهو يسترجع ذكرياته فيه، وذكرى الفاتحين من قبل، مشيدا به، معتبرا إياه حرما آمنا، ومعتصما لمن يأوي إليه، وقد حاول السير في ركاب الدلالة القرآنية؛ فإذا كان الإيمان بالنسبة للجن معتصما لا يخافون فيه بخسا ولا رهقا، فإن بلد الشاعر في الأبيات لا يخاف من اعتصم به خوفا ولا رهقا؛ فالتناص موافق للدلالة القرآنية، وإن كان ثمة تغير طفيف في الإسناد؛ إذ تحول من المحسوس (الإيمان) إلى الملموس (ثرى الوطن)، رغم أن الملموس في النص مجاور للمحسوس، لأنه في القصيدة رمز للقوة والعز، أما تحويل الصياغة، فقد اقتصر على إضافة الجار والمجرور (به) بين الفعل يخاف ومفعوليه، وهي زيادة قلق لا تناسب البيت، لأن وجودها في الشطر الأول جعلها تبدو مقحمة في الثاني. ويقول في القصيدة نفسها:

يَا مَنْبِتَ الْعِزِّ، أَيَّنَ الْفَاتِحُونَ؟ أَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْهُمْ بَقَايَا تَنْشُرُ الْغَدَقَا²

لقد عاد الشاعر مرة أخرى إلى سورة الجن، محاولا استثمار فواصلها في قوافيه، فتناص مع قوله تعالى: [وَأَنْ لَوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا (16)] ورغم أنه الشاعر لم يوظف من القرآن إلا لفظة واحدة، ورغم أنه أوردها معرفة خلافا لورودها نكرة في القرآن، مما يمكن أن يساهم في إخفاء التناص، فإنها مع ذلك تبقى لفظة قرآنية لا تفارقها ظلال القرآن حتى وإن تغيرت صياغتها أو سياقها أو كلاهما، وقد أورد الشاعر الغدق، الذي هو الماء الكثير³ للدلالة على الخير، وكذلك الماء في القرآن الكريم كما تعززه آيات أخرى⁴ وإذا كان الشاعر في قصيدته "نشيد الضياع" اقتبس الفواصل القرآنية من سور مختلفة، وفي قصيدته "ترانيم منكسر على باب الوطن" اقتبس الفواصل القرآنية من سورة بعينها، فإننا نجد في قصيدته "صبابات" يوظف مقطعا من إحدى سور القرآن الكريم فيتكى على فواصله، في بناء قوافيه، وتكثيف معانيه؛ يقول في

¹ .ولد المحبوبي، النهاني، 1429هـ/2008م، الأنات الصامته، مرجع سابق. ص:61

² . الأنات الصامته. ص:62

³ .يقول ابن فارس: { "غدق" الغين والذال والقاف أصل صحيح يدل على غُزْرٍ وكَثْرَةٍ ونَعْمَةٍ. من ذلك الغدق، وهو الغزير الكثير. قال تعالى: [لأسقيناهم ماء غدقا] { يمكن النظر في كتاب: معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين "ت:395هـ"، عبد السلام محمد هرون، دار الفكر، 1399هـ/1979م، الجزء الرابع، ص:415

⁴ .ومن هذه الآيات: الآية:22 من سورة البقرة، والآية:32 من سورة إبراهيم، والآية:13 من سورة غافر.

قصيدته "صبابات":

مَوْقِفٌ مُدْهِلٌ!! وَهَذَا نَحْنُ عُدْنَا لِلِقَانَا وَالْحُبُّ صَارَ إِمَامًا¹

لقد وظف الشاعر في قافيته كلمة "إمام"، وهي كلمة ذات حضور قوي في مجالات دينية مختلفة، فهي تدخل العقيدة من باب "الإمامة" الذي كان أكبر مُفَرِّقٍ للفرق الإسلامية، وتدخل الفقه من باب "الإمامة في الصلاة"، لكننا ذهبنا إلى أن الشاعر تناص مع القرآن الكريم على وجه الخصوص، ومع آية بعينها كذلك؛ لأننا وجدناه في القصيدة نفسها، يوظف مجموعة من الآيات المرتبطة بهذه الآية، وهي الآيات الواردة في سورة الفرقان الواصفة لعباد الرحمن؛ فالشاعر يتناص مع قوله تعالى: [وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (74)]، هكذا قام الشاعر بتناص تحويلي للدلالة القرآنية²، فإذا كان عباد الرحمن يدعون الله أن يكونوا للمتقين أئمة، فإن الشاعر. بأسلوب خبري. يغتبط بأنه صار مأموما لا إماما، وذلك في سياق العشق، فالعشق في البيت هو إمام العاشقين، في حين نجد التقى في القرآن هو إمام المتقين.

ويقول في القصيدة نفسها موظفا صفات عباد الرحمن:

هَذِهِ قَهْوَةُ اللَّقَاءِ تُنَادِي...***نا؛ وَطَابَتْ لِلْعَاشِقِينَ مَقَامًا³

يتناص الشاعر. إيقاعيا. في هذا البيت مع قوله تعالى في سورة الفرقان: [أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا (75) خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (76)] هكذا يستثمر الشاعر لفظة "مقاما" في القافية، مشيرا إلى الآية السالفة، ومحافظا على الدلالة القرآنية مع تحويل السياق، فتتحول الغرفة (الجنة) في القرآن، إلى القهوة في البيت، ويتحول المتقون في الآيات إلى العاشقين في البيت، ويشترك مقام العشق ومقام

1. الأناث الصامته. ص:94

2. التناص التحويلي: هو الذي يحول فيه النص المتبع دلالة النص المتبع، وقد ركزت جوليا كريستيفا [Julia Kristeva] على هذا النمط، فقسمت أشعار لوتريامون انطلاقا منها، بل حاولت جعل التناص خاصا بالتحويل دون غيره، يمكن النظر في كتاب: علم النص، كريستيفا، ترجمة: فريد الزاهي، مراجعة: عبد الجليل ناظم، دار توبقال للنشر، الطبعة الثانية، 1997م، ص: 79/78، وقد تنبه له غير واحد من النقاد العرب، فمحمد بنيس يحتفي بمصطلح الحوار الذي يندرج ضمن هذا الصنف رغم توظيفه إياه في سياق بعيد عن وظيفته الفنية، يمكن النظر في كتابه: ظاهرة الشعر المعاصر بالمغرب، مرجع سابق، ص: 253، ومحمد مفتاح ينص على التحويل في تعريف المصطلح، يمكن النظر في كتابه: تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية التناص)، محمد مفتاح، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الثالثة، يوليو، 1992م، ص: 120-121، وعبد القادر بقشي يعتبر التحويل من الوظائف الرئيسة التي يؤديها، وأغلب الدراسات التطبيقية تستعين بهذا التقسيم، فيقسمون التناص إلى موافق للدلالة الأصلية لم يجر فيه تحويل على المستوى الدلالي، ومخالف لهذه الدلالة، يقول أحمد جبر شعث: "إن تشكيل البنيات الداخلية للنص هو الذي يحدد درجة تماثلها أو تخالفها وفقا لأهداف التناص التي قد تكون توثيقا لدلالة معينة، أو نفيها لها، أو توكيدا لموقف وترسيخا لمعنى..."" يمكن النظر في: تجليات التناص في جدارية محمود درويش. أحمد جبر شعث. المجلة الأردنية في اللغة العربية وأدائها. جامعة مؤتة. المجلد3، العدد4، رمضان 1428هـ، تشرين الأول، 2007م، ص: 129.

3. الأناث الصامته، مرجع سابق. ص:94

التقى في الرغد والهناء، والملاحظ أن التناسخ ظل مسيرا للآيات القرآنية على المستوى الدلالي، فلم يتغير معنى الإمام، ولا المقام، ولم تختلف دلالاته في القصيدة عن دلالاته في الآيات؛ رغم تغيير الإسناد ورغم أن الشاعر غير الوصف لفظيا لا دلاليا لخدمة بحر "الخفيف"، فجعل طابت مكان حسنت.

ويقول في القصيدة نفسها:

أَلْفُ أَنْثَى مَرَّتْ بِقَلْبِي غَرَامًا فَالْتَكُونِي عَلَيْهِ مِسْكَ خِتَامًا¹

يتناسخ الشاعر في عروض الشطر الأول مع قوله تعالى في صفة عباد الرحمن: "وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (65)"، يواصل الشاعر في هذا البيت المقارنة بين عالم العشق وعالم الآخرة، فيشبهه عذاب جهنم بعذاب العشق، لكنه يرجو أن تكون نار المحبوبة كنار إبراهيم، فلا يصيبه من غرامها ما أصابه من اللاتي تردى في عشقهن من قبل.

أما على مستوى الضرب فإن الشاعر يتناسخ. إيقاعيا. مع قوله تعالى في سورة المطففين: [إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (22) عَلَى الْأَرَائِكِ يُنظَرُونَ (23) تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ (24) يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ (25) خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (26)]

ويبدو أن الشاعر ما زال مأخوذا بتشبيهه عالم العشق بعالم الآخرة، رغم ابتعاده. إيقاعيا. من سورة الفرقان في الشطر الثاني، وجلبه للقافية من سورة المطففين، لكنه يظل يسير في ظل عالم الآخرة، فوظف شرب أهل الجنة في هذا البيت محولا خاتمة العشق لختام المشروب، وإن كان ذلك في سياق الالتماس، فالشاعر يريد من حبيبته أن تكون ختاما مسكا لقلبه، بيد أن هذا التناسخ يبدو مركبا، وكأني بالشاعر أحس بثنائية العشق، وما يصاحب نعيمه عادة من جحيم، فأشار إلى قصة إبراهيم متوخيا من المحبوبة أن تكون كمناره؛ وإذا كان الشاعر لم يذكر النار، ولا صفتها (بردا وسلاما)، فإن قوله فلتكوني واقتراانه بعليه، يحيل إحالة واضحة على الآية التي كان في متناوله أن يقتبس أكثرها لو قال مثلا: "فلتكوني عليه بردا سلاما"، وبذلك يتناسخ معها على المستوى الإيقاعي والدلالي.

ورغم عدم رضانا عن هذا الأسلوب فنيا، فإننا لا نرى ضعفه السبب في عدم توظيفه إياه، فهو قريب من أسلوبه في البيت؛ لكنه لم يرد السلامة من نار العشق وحدها، وإنما أراد تجنب حر ناره، و بلوغ جنته وجني

¹. الأناث الصامته، مرجع سابق، ص: 95

ثماره، فجمع بين الآيتين عن طريق التناسل المركب.

ولا يقتصر توظيف الشاعر لسياق الآخرة، وتشبيهه غرام العشق بغرام النار على قصيدته "صبابات، فهو يسلك هذا المنحى أيضا في قصيدته "كما شق بدر للنبوءة"، فيقول:

لَعَمْرُكَ مَا الْأَيَّامُ تُخْفِي تَفَرُّقًا وَلَكِنْ خَبَلِ الْعِشْقِ هُوَ السُّرَادِقُ¹

لقد وظف الشاعر في قافيته كلمة قرآنية وردت في قوله تعالى من سورة الكهف: [وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا (29)].

لقد وظف الشاعر لفظ "سرادق"² وحذف الضمير الذي يعود إلى النار، ليسند اللفظ إلى خبل العشق، ويعرفه بالألف واللام، فبدا كأن السرادق خالص له، فلا سرادق إلا سرادقه، حسب تعبير الشاعر ذي الدلالة الحصرية، ورغم اختلاف السياقين، فإن الشاعر وظف الكلمة مسيرا للدلالة القرآنية، فإذا كان سرادق النار يحيط بالكافرين، فلا يستطيعون النفوذ من أقطارها، فإن العشق كذلك. يبني حول العاشقين سورا من الخبل، ويحيط بهم من كل جانب، فلا يجدون عنه منصرفا ولا تحويلا.

ويقول في القصيدة ذاتها متحدثا عن الهوى:

وَمَا هُوَ إِلَّا الشَّوْكَ تَكْسُوهُ وَزِدَّةٌ وَمَا هُوَ إِلَّا زَائِقٌ، وَهُوَ مَا حِجُّ

وَمَا يَزْهَقُ الْأَسْوَنَ مَا هُوَ خَالِقٌ وَلَا يَخْلُقُ الْأَسْوَنَ مَا هُوَ زَاهِقٌ³

يتناسل الشاعر في البيت الثاني إيقاعيا مع قوله تعالى في سورة الأنبياء: [بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ (18)]، وقوله في سورة الإسراء: [وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا (81)]

¹ الأناث الصامتة، مرجع سابق، ص: 89

² السرادق هو ما أحاط بالشيء من جميع الجهات، ومن ذلك البيت المسردق، وهو أن يكون أعلاه وأسفله مسدودا كله، ومنه قول الأعشى:

هو المدخل النعمان بيتا سماؤه

نحور الفيول بعد بيت مُسَرْدَقِ

يمكن النظر في كتاب: تهذيب اللغة، محمد بن أحمد بن الأزهرى الهروي، أبو منصور "ت: 370" تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، 2001م، الجزء التاسع، ص: 293.

³ الديوان: ص: 90

لقد استدعى الشاعر الأيتين اللتين تتحدثان عن الحق والباطل في سياق حديثه عن الحب، وكأنه أنس ثنائية الحق والباطل داخل الحب، أو ثنائية السعادة والشقاوة، مؤكداً ثبات هذه الثنائية، واستحالة زحزحتها، ولعل الشاعر وظف الآية توظيفاً مخالفاً لدلالاتها القرآنية، لأن الثنائية القرآنية تنبني على إقصاء أحد أطرافها، فالحق دامج، والباطل مدموغ، والحق باق، والباطل زاهق وزهوق، أما الشاعر فقد جعل الحب مُجتمَعاً للطرفين، وهذا ما يُجَلِّيه البيت الذي أوردنا قبله، ففيه جمع بين الشوك والوردة، وبين ما هو ماحق، وما هو رائق، فكأن الشوك الذي هو ماحق تعبير عن شقوة الحب، وعن باطله في الوقت نفسه، وكأن الورد وما هو رائق تعبير عن ما فيه من سعادة، وعن الحق في الوقت نفسه، ومن ثم فإن الحب ملتقى السعادة والشقاء، والحق والباطل.

وإذا كان التناس في المثال السالف يسير في ظل الدلالة القرآنية رغم اعتماد الشاعر على التركيب، وتوظيف عدة نصوص غائبة، فإن التركيب أحياناً يجعل الشاعر يوظف اللفظ القرآني في خدمة معنى بعيد عن الدلالة القرآنية كما في قوله في القصيدة ذاتها:

وَأَخْبَرْتَنَا بِالْغَيْبِ، فَالْغَيْبُ وَقَعٌ وَأَنْشَأَتْ مَاءَ الْقَوْمِ، فَالْمَاءُ دَافِقٌ¹

يتناس الشاعر. إيقاعياً. مع قوله تعالى في سورة الطارق: [فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ (5) خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ (6)]

لقد وظف الشاعر كلمتين من الآية هما: الماء وصفته التي استعان بها في القافية، وعلى المستوى الدلالي نجد التناس مخالفاً للدلالة القرآنية، فلا الشاعر يتحدث عن خلق الإنسان، ولا الماء الدافق في الشعر كالماء الدافق في القرآن، إذ يتحدث الشاعر عن معجزات النبي صلى الله عليه وسلم، وعن الماء الذي اندفق من بين أصابعه².

2. التناس الإيقاعي مع القرآن الكريم من الناحية الجمالية:

أما التناس من الناحية الجمالية فيمكن تقسيمه في ديوان الشاعر إلى قسمين رئيسيين هما: التناس الإيقاعي المحكم، والتناس الإيقاعي المقحم

1. الأناث الصامته، مرجع سابق، ص: 90

2. لقد وردت هذه الحادثة في جل كتب السير، حيث رواها غير واحد من الصحابة، يقول جابر بن عبد الله: " أتى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَاءٍ فِي ثَوْبٍ، فَوَضَعَ يَدَهُ فِيهِ، فَجَعَلَ الْمَاءُ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِهِ كَأَنَّهُ الْعُيُونُ، قَالَ: فَشَرِينَا وَوَسَعَنَا وَكَفَانَا، قَالَ قُلْتُ: كَمْ كُنْتُمْ قَالَ: لَوْ كُنَّا مِائَةَ أَلْفٍ كَفَانَا. كُنَّا أَلْفًا وَخَمْسِمِائَةً"، يمكن النظر في كتاب: دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخسروجردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: 458هـ)، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى/1405هـ ج/4، ص: 115

أ. التناس الإيقاعي المحكم: وهو التناس الذي وظفه الشاعر خدمة للنص من حيث الدلالة والفن؛ حيث يكون استدعاء القرآن فيه مبنياً على رؤية فنية واضحة، فتجد الآثار الجمالية للنص الغائب بارزة في الجانب الدلالي بروزها في الجانب الإيقاعي، ومن النماذج التي يتجلى فيها هذا الصنف قول الشاعر في قصيدته "يا ناكث العهد":

فَكَيْفَ نَقَضْتَ عُهُودِي وَعَاهَدْتَ أُخْرَى؟!

وَكَيْفَ وَقَدْ كُنْتَ أَعْطَيْتَنِي خَاتَمًا..

بِأَنْ تَجْعَلِي رَفِيقَةَ عُمْرِكَ دَهْرًا

تَخُونُ وَيُصْبِحُ مَأْوُكَ غَوْرًا!¹

يتناس الشاعر مع آيتين من القرآن الكريم، الأولى قوله تعالى في سورة الكهف: [وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنَّ تَرَنَّا أَنَا أَقَلُّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا (39) فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحُ صَعِيدًا زَلَقًا (40) أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَاهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا (41)]، والأخرى قوله في ختام سورة الملك: [قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَأْوُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ (30)].

لقد تناس الشاعر مع الآيتين تناساً إيقاعياً؛ حيث وظف الكلمة القرآنية "غورا" في خدمة القافية، لكن المتناس من حيث الدلالة متصل بالقصيدة اتصالاً عميقاً، فالغور الذي أسند إلى الماء في الآيتين جاء دالاً على تقلب الحال من الحسن إلى السوء، وانتفاء إمكان الحياة، وكذلك هو في القصيدة تقريبا؛ فالشاعر يتحدث بلسان فتاة خانها خطيبها، فهي تشتكي إليه وتحاوره، منكرة خيانتها إياها، وتحول مائه غورا²، ولعل الماء في السطر رمز للأمال والأحلام المتبخرة، وللماء قدرة على الإحياء بتلك الدلالات.

ومن التناس الإيقاعي المحكم قوله في قصيدته: "المسافر والعابرون":

يَأَشْقِيَقَ الْفَجْرِ،

وَالْجَسْرُ خَرَابٌ..

وَحُطَّا الْحُلْمُ سُقُوطٌ..

¹. الأناث الصامته، مرجع سابق، ص:35

². الماء الغور هو الغائر الناضب، وهو من باب المصدر الذي أريد به اسم الفاعل كزور في معنى زائر، ودؤم في معنى دائم، يمكن النظر في كتاب: جمهرة اللغة، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي [ت:321هـ]. تحقيق: رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الأولى، 1987م، الجزء الثاني، ص:783

هَلْ أَلَقِيَ بَعْدَ هَذَا اللَّيْلِ مِينَاءَ الْفَلَقِ؟¹

يتناص الشاعر هنا مع عدة آيات تتحدث عن الانفلاق، ولعل أقربها على المستوى الإيقاعي قوله تعالى في بداية سورة الفلق: [قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (1) مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ (2)...]، وقوله تعالى في سورة الأنعام. مع اختلاف في الصياغة: [فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (96)]، وقوله في سورة الشعراء: [فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (63)]

هكذا تناص الشاعر مع عدة آيات قرآنية تنسب. رغم اختلافها. في عقد دلالي واحد، فالانفلاق يشير إلى تغير الحال من سيء إلى حسن، سواء تعلق الأمر بالطبيعة، حيث ينفلق الإصباح، أو تعلق الأمر بالأمن والخوف، كانفلاق بحر موسى، أو كان عاما كالفلق في سورة الفلق، ولعل اختيار الشاعر للميناء إحالة إلى موسى من جهة، وإبرازا للانتهاء من حالة الإبحار والخروج إلى البر الشيء الذي تشترك فيه جميع معاني الانفلاق، وبذلك كان توظيف الشاعر للفظ موفقا من الناحية الدلالية، توفيقه من الناحية الإيقاعية.

وينضوي تحت هذا الصنف من التناص قول الشاعر في قصيدته "خماسيات":

عَنِّي يَا طُيُوفُ حُلِيِّ وَهَاتِي الْكَأْسَ نَسِي السُّمَّارَ بَعْضَ السُّلَافِ

فَالزَّمَانُ النَّبِيلُ وَلِي وَلَمْ يُبْ قِي سِنِينًا سِوَى السِّنِينَ الْعِجَافِ²

يتناص الشاعر على مستوى القافية مع لفظة "عجاف" التي وردت مرتين في سورة يوسف، وهما قوله تعالى: [وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعُ عِجَافٍ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنَّ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ (43)]، وقوله أيضا: [يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعُ عِجَافٍ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ (46)].

هكذا وردت لفظة "عجاف" في حلم الملك مقترنة بالبقرات، وفي تأويل يوسف لها بالسنين، والظاهر أن التناص يسير في ظل الدلالة القرآنية ذاتها؛ حيث وردت "العجاف" عنده مقترنة بالسنين، ومسبوقة في الشطر الأول بالزمان النبيل، وهو ذو دلالة واضحة على البقرات السمان، ولعل الفرق البارز أن الشاعر متشائم، أو في ظروف تدعو للتشاؤم، ومن ثم فقد حكم بتولي السنين السمان، وتوالي السنين العجاف، كما أن الشاعر لم

¹. الأناث الصامته، مرجع سابق، ص: 104.

². الأناث الصامته، مرجع سابق، ص: 106.

يحدد ماضي الزمن النبيل أو السنين العجاف، وترك المجال مفتوحا للسنين العجاف مخالفا. في كل ذلك. للقرآن الكريم، ومع ذلك فقد كان موفقا في توظيف التناص، لأنه استطاع استثمار ما في اللفظ من دلالة على الجدوبة والقحط، وإثارة ما يبعثه السياق القرآني من صور الجفاف التي كسا بها الشاعر الأفق، وأغلق بها باب الأمل.

ويقول في القصيدة نفسها مخاطبا وطنه:

فِيكَ أَحْبَبْتُ عَجَّةَ الطِّفْلِ يَتْلُو لَوْحَهُ بِالْإِمْسَاءِ وَالْإِصْبَاحِ
وَدُعَاءِ الْجَدَاتِ وَاللَّيْلِ سَاحِ هَادِنًا خَافِضًا يَدًا لِلْجَنَاحِ¹

تناص الشاعر على المستوى الإيقاعي مع قوله تعالى في سورة الإسراء: [وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (23) وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (24)]، وهو تناص تركيبي إذ وظف الشاعر فيه كلمتين من القرآن هما: الجناح وما ارتبط به من الخفض، وإن كان الشاعر غير في الصيغ بما يناسب السياق الشعري.

أما في المستوى الدلالي فنجد الشاعر ساير الدلالة القرآنية رغم اختلاف السياقين، فخفض الليل جناحه إشارة إلى هدوؤه وسكونه، وكأنه تجاوب مع الجدات في خشوعهن وتضرعهن حين الدعاء، فخفض لهن جناحه، ولا يخفى ما في الصورة من جمال فني، وما في التناص من توفيق.

ب. التناص الإيقاعي المقحم: وهو التناص الذي تلاحظ فيه عدم قدرة النص الحاضر على الامتزاج بالنص الغائب، والدخول في نسيجه، سواء كان ذلك ناجما عن تنافر دلالة النصين، أو غير ذلك مما يضعف التناص شأن كل مقحم²، ومن أمثلة هذا الضرب من التناص قول الشاعر في قصيدته "خليل الحلم":

فَرْتَلَّتِ النَّاسُ آمَالَهَا
وَفَاجَأَ فِي الْكَهْفِ لِلْأُفُقِ بَابٌ

¹ الأناث الصامته، مرجع سابق، ص: 110

² المقحم في اللغة الضعيف من كل شيء، يقول الأزهري: "وَقُلَانُ مُقْحَمٌ أَي ضَعِيفٌ. وَكُلُّ شَيْءٍ نُسِبَ إِلَى الضَّعْفِ فَهُوَ مُقْحَمٌ، وَمِنْهُ قَوْلُ الْجَعْدِيِّ: عَلُونَا وَسُدُنَا سُودَدَا غَيْرَ مُقْحَمٍ وَأَصْلُ هَذَا كُلُّهُ مِنَ الْمُقْحَمِ الَّذِي يَتَحَوَّلُ مِنْ سِنٍّ إِلَى سِنٍّ فِي سَنَةٍ وَاجِدَةٌ"، تهذيب اللغة، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ج/4، ص: 50

وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا¹

لقد تناص الشاعر في هذه الأسطر مع قوله تعالى في سورة الزلزلة: [وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا (2)].

والظاهر أن ولع الشاعر بالاقتراس القرآني، واتساق الآية مع المتقارب، كانا وراء هذا التوظيف؛ فالتناص هنا مقحم، فلا وظيفة له خلا الإيقاع، صحيح أن الشاعر لم يعتمد في هذه القصيدة قافية موحدة، ولكنه لم يهملها نهائياً، إذ اعتمد في كل مجموعة من الأسطر على قافية أو اثنتين، ولا يخفى أنه جلب أثقالها لمشاكلة آمالها في السطر السالف، ولا نرى على المستوى الدلالي مسوغاً لهذا التناص، فالشاعر يتحدث عن البرق الجميل، والآمال المرتلة، وباب الكهف الذي انفرج فجأة؛ وهي دلالات فيها. مجتمعة. إحياء بفرح الشاعر، وإشارة لأمله، ومن ثم فليس هناك داع لأن تخرج الأرض أثقالها، أمام خفة آمال الشاعر وأفراحه، سواء تعلق الأمر بدلالة الألفاظ بمعزل عن سياقها القرآني، أو تعلق الأمر بسياق الآية الرهيب؛ أي بيوم القيامة، وتجلياته الجلّي.

ويقول في قصيدته "غربتي في محبتي":

كَمْ أَعَانِي مِنَ الرَّحِيلِ

فِي طَرِيقِي إِلَى الْجَمِيلِ

غَيْرَ أَنِّي كَابِنِ السَّبِيلِ

شَاعَ فِي الْكَوْنِ غُرْبَتِي²

يتناص الشاعر. إيقاعياً. مع كلمتي: "ابن السبيل" التي وردت ثماني مرات في القرآن الكريم منها: قوله تعالى في البقرة: [لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (177)] وقوله في السورة نفسها: [يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِللَّوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (215)]، ويتضح من خلال مواردها القرآنية جميعاً³ أنها لا ترد إلا معطوفة على المحتاجين كاليتامى والفقراء والمساكين، بل وردت في

1. الأناث الصامته، مرجع سابق. ص:32.

2. الأناث الصامته، مرجع سابق ص:55.

3. ويمكن الرجوع إلى بقية موارد الكلمة في القرآن، وهي: سورة النساء، الآية:36 من سورة النساء، والآية:41 من سورة التوبة، والآية:60 من سورة التوبة أيضاً، والآية:26 من سورة الإسراء، والآية:38 من سورة الروم، والآية:7 من سورة الحشر.

جميع الآيات معطوفة عطفًا مباشرًا على المساكين إلا آية النساء وحدها فقد كان العطف فيها غير مباشر.

وقد أورد الشاعر اللفظ للدلالة القرآنية ذاتها، فهو يعتبر نفسه كابن السبيل مسوغًا ذلك باشتراكهما في الغربة، ومستفيدًا من اللفظ القرآني إيقاعيًا، وإن كان لا يخفى ما في الأبيات وفي توظيف المتناس من ضعف فني، فابن السبيل في السياق القرآني، وفي اللغة عموماً متغرب لا يحتاج إلى توكيد غربته، لاسيما إن كان توكيدا ضعيفا؛ فقوله "شاع في الكون غربتي" لا يدل على التغرب؛ فهناك فرق بين الشيوع والوقوع.

ويقول في قصيدته "مواويل":

سَيَبْقَى بَعِينِي وَجْهَكَ فَجْرًا..

ودنياك سحرا

وأبقى بحبك أحرى

وإني سأعلنه رغم ما يفعل البغض جهرا

علانية ليس سرا¹

يتناس الشاعر مع التركيب القرآني "سرا وعلانية"، موظفا الملفوظ الأول في القافية، وقد ورد هذا التركيب في أربع آيات هي قوله تعالى من سورة البقرة: [الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (274)]، وقوله تعالى في سورة الرعد: [وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (22)] وقوله تعالى في سورة إبراهيم: [قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالَ (31)]، وقوله تعالى في سورة فاطر: [إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ (29)]، وقد جاء التركيب في جميع الموارد مرتبًا بالإنفاق، لكن الشاعر حوله إلى سياق الحب، كما أن اللفظين وردا. في القرآن. متعاطفين لإفادة التشريك، فالله يأمر بالإنفاق سرا، وأمر به جهرا كذلك، أما الشاعر فقد أراد البوح بحبه والإصرار على إعلانه، فقال: علانية ليس سرا، ولا يخفى ما في قوله من تهافت فني، لأن قوله علانية كفيلا بنفي السر، فليس لذلك مسوغ خلا الإيقاع.

¹ الأناث الصامتة، مرجع سابق، ص: 123

ويقول في قصيدته "كيف حال الهوى"

أُنْهَكْتَنِي مَوَاسِمُ الْأُفُقِ عَنُّ بَعْـُـدٍ ، وَسَاقِي تَلْتَفُّ مِنْهَا بِسَاقِي¹

إن الشاعر يتناص مع قوله تعالى في سورة القيامة: [وَأَلْتَقَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ (29)]، وقد وظف الآية للدلالة على ألم الفراق، وهي دلالة تسير في ظل الدلالة القرآنية، إذ ورد التركيب القرآني تعبيرا عن غمرات الموت، وما يصاحبه من كرب وشدة، وإن كان التناص غير موفق، لأن لفظة المواسم لا تمهد لالتفاف الساق بالساق، وليس في حملتها الدلالية ما يقترب من السياق القرآني المشحون بمشهد الموت، كبلوغ التراقي، وظن الفراق.

ويقول في القصيدة نفسها:

يَا فُؤَادِي، يَا لُوعَتِي، يَا هَيَامِي يَا بَعَادِي، يَا لَهْفَتِي، يَا مَسَاقِي

يَا فُؤَادِي، يَا لُوعَتِي، يَا هَيَامِي يَا بَعَادِي، يَا لَهْفَتِي، يَا مَسَاقِي²

لقد تناص الشاعر. إيقاعيا. مع قوله تعالى في سورة القيامة: [إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ (30)]، حيث أضاف المساق إلى نفسه مخاطبا العشيقة باعتبارها من تحتنكه في متاهة العشق، ولولا ورود الكلمة بعد آية "التفاف الساق" لما كان هناك ما يُشعر بهذا التناص، ولكن تجاور الآيتين يوحي بتوظيف الشاعر لهما معا، ولا يخفى أن الشاعر لم يوظف اللفظة القرآنية في شيء بعد الإيقاع، فالبيت عموما مجموعة من الألفاظ التي تعاطفت على أساس فني، وتلاقت على غير ميعاد جمالي.

ويقول في قصيدته: "قول يغتفر"

أَقُولُهَا: نَادِمِي نِي رَغَمَ مَا رَعَمُوا عَنَّا، فَلَا ضَرْرَ فِي ذَلِكَ أَوْ وَرَرَ³

يحيل الشاعر باللفظ الأخير إلى قوله تعالى: [يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفْرُ (10) كَلَّا لَا وَرَرَ (11)]، إذ وظف الشاعر لفظا واحدا هو: "ورر"، والملاحظ أن القافية وحدها. كانت وراء هذا التناص، وكان في متناول الشاعر. اتساقا مع الدلالة. بناء قافيته على الضرر لا الوزر، فالشاعر يريد من الحبيبة أن تواصله، وألا تبال بأقوال الوشاة والعاذلين، وأنه لن يمسه ضرر من تلك الأقوال، أما عطف الوزر الذي هو المعين على الضرر، فلا مسوغ

¹. الأناث الصامتة، مرجع سابق، ص:126

². الأناث الصامتة، مرجع سابق، ص: 126

³. الأناث الصامتة، مرجع سابق، ص:128

له، ولا جالب له إلا ولع الشاعر بالألفاظ القرآنية، ومحاولة توظيف ما تيسر منها وما تعسر.

الخاتمة:

لقد تبين لنا من خلال هذا البحث أن النهائي ولد المحبوبي استطاع الاستفادة من القرآن الكريم، فاستثمر مفرداته وتراكيبه دلاليا في تكثيف معانيه، واستفاد من ألفاظه إيقاعيا فكان لها حضور بارز في قوافيه، وقد حاولنا في المحور الأول دراسة التناس الإيقاعي من الناحية الدلالية، فأبرزنا طريقة توظيف الشاعر للنصوص القرآنية وذلك انطلاقا من مفهومي: الاختلاف والائتلاف، وقدر ركزنا في هذا المحور على التناس داخل القصيدة، فبدأنا بالقصيدة التي متحت من آيات متعددة السور، ثم تناولنا القصيدة التي استقت من سورة واحدة، لنصل إلى القصيدة التي استمرت مقطوعيا قرآنيا واحدا داخل سورة بعينها.

وفي المحور الثاني تناولنا التناس من منطلق في تقويمي، فقسمناه إلى قسمين: تناس محكم، وتناس مقحم، ولا يخفى البعد المعياري في المصطلحين، أما التناس المحكم؛ فهو الذي رأينا الشاعر وفق فيه جماليا، فكانت النصوص الموظفة فيه نابعة من حاجة فنية، وممتزجة بنسيج نص الشاعر امتزاجا لا شية فيه. وأما التناس المقحم فهو الذي فشل الشاعر في توظيفه فنيا، فلم يستطع النص الضيف أن يمتزج بنسيج النص المضيف، وبدا كالجار الجنب. غريبا في سياقه الجديد.

المراجع والمصادر

1. القرآن الكريم.
2. أبو الحسين، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، 1399هـ/1979م، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هرون، دار الفكر،
3. أبو منصور، محمد بن أحمد بن الأزهرى الهروي، 2001م، تهذيب اللغة، ط 1، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
4. بقشي عبد القادر، 2007م، التناس في الخطاب النقدي والبلاغي، دراسة نظرية وتطبيقية، عبد القادر، إفريقيا الشرق.
5. ابن دريد، أبوبكر محمد بن الحسن الأزدي، جمهرة اللغة، تحقيق: رمزي منير بعلبكي، ط 1، دار العلم للملايين، بيروت.
6. بنيس، محمد، 1985م، ظاهرة الشعر المعاصر في المغرب، مقارنة بنيوية تكوينية، ط 2، دار التنوير للطباعة والنشر.

7. البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرُو جَرْدِي الخراساني، أبو بكر، 1405هـ، دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، ط 1، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان.
8. الجرجاني، ، أبوبكر، عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد، 1413هـ/1992م، دلائل الإعجاز، قراءة وتعليق: أبو فهر محمود محمد شاكر، ط 3، مطبعة المدني/المؤسسة السعودية بمصر.
9. دريدا، جاك، 2013م، استراتيجية تفكيك الميتافيزيقا. حول الجامعة والسلطة والعنف والعقل والجنون والاختلاف والترجمة واللغة، ترجمة وتقديم: عز الدين الخطابي. إفريقيا الشرق. المغرب.
10. الزبيدي، محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني، أبو الفيض، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية.
11. شعث، أحمد جبر، رمضان 1428هـ، تشرين الأول، 2007م، تجليات التناسخ في جدارية محمود درويش. أحمد جبر. المجلة الأردنية في اللغة العربية وآدابها، المجلد 3، العدد 4، جامعة مؤتة.
12. الطبري، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الأملي، أبو جعفر، 1420هـ/2000م، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، ط 1، مؤسسة الرسالة،
13. الغدامي، عبد الله محمد، 1998م، الخطيئة والتكفير من البنيوية إلى التشريحية، قراءة نقدية لنموذج معاصر، ط 4، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
14. قطب، سيد، التصوير الفني في القرآن، 1423هـ/2002م، ط 16، دار الشروق،
15. كريستيفا، جوليا، 1997م، علم النص، ط 2، ترجمة: فريد الزاهي، مراجعة: عبد الجليل ناظم، دار توبقال للنشر.
16. مجموعة من المؤلفين، 2004/1425م، المعجم الوسيط، ط 4، مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدولية، الطبعة الرابعة.
17. مفتاح، محمد، يوليو/1992م، تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية التناسخ)، ط 3، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء.
18. ولد المحبوبي، النهاني، 1429هـ/2008م، الأنات الصامتة، ط 1، اتحاد الأدباء والكتاب الموريتانيين، موريتانيا.

مراحل وضع النحو العربي (العلماء والمجهودات والسمات)

Stages of setting the Arabic grammar Scientists, efforts and features

د. محمد الطيب البشير بابكر، أستاذ مساعد بجامعة الخرطوم - كلية التربية - قسم اللغة العربية

Dr. Mohammed Altayeb Albeshier Babikir, Assotant professor – khartoum university -

faculty of Education - Deparment of Arabic

د. سليمان إبراهيم عبد الله إبراهيم، أستاذ مساعد بجامعة الخرطوم - كلية التربية - قسم اللغة العربية

Dr. Suleimam Ibrahim Abdalla Ibrahim, Assotant professor – khartoum university - faculty

of Education - Department of Arabic

Abstract

The Arabic syntax castle was constructed by the great efforts done by coherent series of men and scholars who devoted their efforts and used their minds to serve Arabic language in order to keep “the Holy Quran” save and preserve “the Suna” (the sayings and doings of the prophet Mohammed peace upon him).

Also to keep the Arabic tongue safe from the lesion of solecism and foreign. This construction of Arabic syntax went through four stages, each stage is distinct, and they are all important to each other. Therefore, the two researchers dedicated this study to reveal the reality of those stages. The study aimed at tracking those stages so as to uncover their most prominent characteristics and identify the scholars of those stages and their efforts in

Arabic syntax. The study adopted the descriptive methodology. It has come out with a group of findings, the most important are: Arabic syntax went through four stages: the evolution, development, maturity and classification. The findings also showed that the first of what was set in syntax rules was full of mistakes and the syntax rules that are close to minds and used in speech. Each stage has its own characteristics that made it distinct from the other stages.

Key words : Arabic syntax – stages – Maturity .

مستخلص :

شُيِّدَ صرْحُ النحو العربيِّ بمجهودات جبارة من قبل سلسلة متساوقة من الرجال العلماء الذين كرسوا جهودهم ووظفوا عقولهم لخدمة اللغة العربية حفاظاً على كتاب الله وصيانة لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحماية للسان العربيِّ من آفة اللحن والعجمي . هذا التشييد مرَّ عبر مراحل أربعة لكل مرحلة منها ما يميزها ولا غنى لإحداها عن الأخرى ؛ لهذا رأى الباحثان تخصيص هذه الدراسة لتكشف عن حقيقة تلك المراحل ، وقد هدفتُ الدراسةُ إلى تتبع تلك المراحل إبراز خصائصها وسماتها والتعرف على علمائها ومجهوداتهم في النحو العربي . وأتَّبعَتُ الدراسةُ في ذلك المنهج الوصفي ، وتوصلتُ إلى جملة من النتائج ولعلَّ من أهمها : مرور النحو العربي بأربع مراحل هي : (النشأة)، (التطور)، (النضج)، (التصنيف والتبويب)، ومن النتائج كذلك إنَّ أول ما قُعد من القواعد النحوية هو ما كثر فيه الخطأ ، و ما كان قريباً من الذهن وكثر دورانه في اللسان ، لكلِّ مرحلة سمات خاصة بها تميزها عن غيرها من المراحل .

الكلمات المفتاحية : النحو . التقعيد . التطور . النضج

تمهيد :

إنَّ النحو العربي ما هو إلا عصارة الألسنة العربية الفصيحة عبر مئات السنين ، ويُعتبر وجود قواعده دليلاً على نظام الأمة العربية واحترامها لتاريخها وثقافتها ، كما يعد دليلاً على أصالتها ، ولكن وجود هذا النحو كلف الكثير ، فقد بُذل في سبيل تقعيده مجهودات بشرية تفوق الوصف ، وتعاقب على صنعه وإنتاجه أجيال وأجيال ، وكان وضعه نتيجةً لأسباب اللحن وغيره ، فشرع النحاة ينظرون في كلام العرب حتى تمَّ لهم مع الزمن هذا الفن - فن النحو - فوصل إلى ما وصل إليه بعد مروره بأربع مراحل ، تمثلت في مرحلة النشأة ومرحلة التطور ومرحل النضج ومرحلة التصنيف والتبويب ، وفيما يلي تفصيل تلك المراحل .

من المعلوم أنَّ كلَّ علمٍ من العلوم يبدأ صغيراً كالطفل الوليد ثم ينشأ ويتعرع حتى يبلغ مرحلة النضج ، وهكذا الشأن في علم النحو العربي الذي بدأ كعلاج لبعض الظواهر الجديدة التي طرأت على المجتمع العربي في صدر الإسلام ، وعليه فإنَّ علم النحو العربيِّ قد مرَّ بأربع مراحل على نحو ما ذكرنا في التمهيد ، وعلينا تبيان ذلك وتفصيله قبل أن يجفَّ مداد هذه الورقة ، وسنبداً بأولى تلك المراحل - إن شاء الله تعالى - وهي مرحلة نشأة النحو العربي .

أولاً : مرحلة النشأة :

بدأت هذه المرحلة من مراحل تقعيد القواعد النحوية نتيجة لما مسَّت إليه الحاجة من ضرورة وجود علاج سريع لظاهرة اللحن التي أخذت في التفشي خصوصاً عندما طالت كتاب الله الحكيم .

وتعد هذه المرحلة خطوة أولى من خطوات عملية التععيد النحوي تتماشى مع قانون النشوء ؛ إذ بدأت بوضع بعض القواعد إجمالاً لا تفصيلاً ، فكان الغرض الأول منها صيانة كتاب الله تعالى من اللحن ، وقد ذكرت المصادر والمراجع التي اعتنت بعلوم العربية مسألة نشأة التععيد النحوي بشيءٍ من التفصيل واستفاضت فيها ، وإذا كان بسط التاريخ أقدر على الاستيعاب والتبيين من إيجازه فإن الإيجاز أقدر منه على الجمع والتقريب ؛ لأنه اختيار وانتقاء ، ولهذا سأخذ من الإيجاز مطيئةً لعرض ما يتعلق بنشأة التععيد الأولى .

نشأت عملية وضع النحو الأولى للقواعد النحوية بالبصرة ؛ لأنها تقع على حدود البادية وملتقى العرب بالأعاجم حيث منشأ اللحن ، فكان أمراً طبيعياً أن تنشأ فيها البداية الأولى في منتصف القرن الثاني الهجري .

وإن أول ما قُعد من القواعد النحوية ما كثر فيه الخطأ ، وقيل ما كان قريباً من الذهن وكثر دورانه في اللسان.¹ بدأت عملية نشأة النحو الأولى على يد أبي الأسود الدؤلي ، وقال بذلك جمعٌ غفير من الأقدمين والمحدثين ، وعلى رأس الأقدمين ابن سلام الجمحي بقوله : "وكان أول من أسس العربية وفتح بابها وأنهج سبيلها ووضع قياسها أبو الأسود الدؤلي"² وتبعه في ذلك أبو الطيب اللغوي بعبارة واضحة صريحة وهي قوله: "كان أول من رسم للناس النحو أبو الأسود الدؤلي"³ وذهب إلى أنه أخذه من أمير المؤمنين علي بن أبي طالب.⁴ ولحقهم في الرأي أبو سعيد السيرافي الذي ذكر أن بعض الروايات تنسبه إلى نصر بن عاصم الليثي ، وبعضها إلى عبد الرحمن بن هرمز ، ورجح الرأي القائل بأن واضعه أبو الأسود الدؤلي.⁵

أمّا صاحبُ الفهرست فقد وضع عنواناً في كتابه أسماه (سبب يدل على أن أول من وضع في النحو كلاماً أبو الأسود الدؤلي)⁶ ، ومضى على خطوهم ياقوت الحموي مستشهداً بقول المبرد : "أول من وضع العربية ونقط

¹ ينظر دراسات في نظرية النحو العربي وتطبيقاتها ، صاحب أبو جناح ، دار الفكر ، بلا م ن ، ط 1 ، 1419 هـ . 1998 م ، ص 10 .

² طبقات فحول الشعراء ، ابن سلام الجمحي (محمد) ، قرأه وشرحه أبو فهر محمود محمد شاكر ، دار المدني ، جدة ، مطبعة المدني ، بلا ت ط ، ج 1 ، ص 12 .

³ كتاب مراتب النحويين ، أبو الطيب اللغوي ، تقديم وتعليق محمد زينهم محمد عذب ، دار الآفاق العربية ، القاهرة ، ط 1423 هـ . 2003 م ، ص 15 .

⁴ ينظر المصدر السابق ، ص 15 .

⁵ ينظر أخبار النحويين البصريين ، السيرافي (أبو سعيد الحسن بن عبد الله المزربان) ، تحقيق طه محمد الزيني ومحمد عبد المنعم خفاجي ، مصطفى البابي الحلبي ، بلا م ن ، ط 1 ، 1372 هـ . 1966 م ، ص 11 .

⁶ الفهرست ، ابن النديم (أبو الفرج محمد بن إسحاق بن محمد الوراق البغدادي المعتزلي الشيعي) ، تحقيق إبراهيم رمضان ، دار المعارف ، بيروت . لبنان ، ط 2 ، 1417 هـ . 1997 م ، ص 62 .

المصحف¹ قاصداً أبا الأسود الدؤلي ، وحذا حذوهم جلال الدين السيوطي بقوله : "تطابقت الروايات على أنّ أوّل من وضع النحو أبو الأسود الدؤلي وأنه أخذه أولاً عن علي رضي الله عنه"².

ومن المحدثين الذين ذهبوا إلى أنّ واضعه أبو الأسود إبراهيم السامرائي³، وشوقي ضيف⁴، وعبد الرّاجعي⁵، وأحمد أمين الذي قال في كتابه ضحى الإسلام : "ويظهر لي أنّ نسبة النحو إلى أبي الأسود لها أساس صحيح"⁶، ووافقهم الرأي الطنطاوي .

أمّا من خالفهم الرأي من المتقدمين في أنّ واضع علم النحو علي بن أبي طالب وليس أبا الأسود القفطي إذ يقول : "الجمهور من أهل الرواية على أنّ أول من وضع النحو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب"⁷، وأبو البركات بن الأنباري الذي ذهب إلى "أنّ أول من وضع علم العربية وأسس قواعده وحدّ حدوده أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه"⁸.

من تلك الروايات السابقة يتبين لنا أنّ المقعد الأول للنحو هو أبو الأسود الدؤلي بوضعه للحركات الإعرابية وبعض الأبواب ؛ وذلك لكثرة الروايات القائلة بذلك ، رغم وجود بعض الآراء التي تشكك في صحتها ، ولكن بالمقابل هنالك آراءً أخرى تشكك في صحة الروايات القائلة بأنّ المقعد الأول هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، إضافة لمشاغله بأمور الدولة والفتنة .

رجال مرحلة النشأة وأبرز مجهوداتهم في التععيد :

من المعلوم أنّ هذه المرحلة هي أولى المراحل التي نشأ فيها النحو وليداً فقد حمل عبأها مجموعة من العلماء الأفاضل يتمثلون في أبي الأسود الدؤلي ، عطاء ابن أبي الأسود ، عنبسة بن معدان الفيل ، ميمون الأقرن ، يحيى بن يعمر ، نصر بن عاصم . وسأبدأ بأولهم ومعلمهم أبي الأسود الدؤلي .

¹ معجم الأدباء أو إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب ، ياقوت الحموي (شهاب الدين أبو عبد الله بن عبد الله الرومي) ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ط 1 ، 1414هـ. 1993م ، ج 5 ، 2114 .

² الاقتراح في علم أصول النحو ، السيوطي (جلال الدين) ، قرأه وعلق عليه محمد سليمان ياقوت ، دار المعرفة الجامعية ، بلا م ن ، ط 1426هـ. 2006م ، ص 431 .

³ ينظر المدارس النحوية أسطورة وواقع ، إبراهيم السامرائي ، دار الفكر ، عمان ، ط 1 ، 1987م ، ص 10 .

⁴ ينظر المدارس النحوية ، شوقي ضيف ، دار المعارف ، القاهرة ، ط 9 ، بلا ت ط ، ص 14 .

⁵ ينظر دروس في كتب النحو ، عبد الرّاجعي ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ط 1975م ، ص 9 .

⁶ ضحى الإسلام ، أحمد أمين ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ط 1961 ، ج 2 ، ص 294 .

⁷ إنباه الرواة على أنباه النحاة ، القفطي (جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف) ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ط 1 ، 1424هـ ، ج 1 ، ص 39 .

⁸ نزهة الألباء في طبقات الأدباء ، ابن الأنباري (عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله الأنصاري أبو البركات كمال الدين) ، تحقيق إبراهيم السمرائي ، مكتبة المنار ، الزرقاء. الأردن ، ط 3 ، 1405هـ. 1985م ، ص 17 .

أ/ أبو الأسود الدؤلي :

هو ظالم بن عمرو بن سليمان ، ينتهي نسبه عند بكر بن كنانة ، كان من سكان البصرة وصديقاً للإمام علي رضي الله عنه ومحباً له .¹ وقد ذكرت فيما سبق الروايات التي أكدت أنه المقعد الأول للنحو .

أمّا عن أبرز مجهوداته في عملية التقعيد فإنّه يأتي في مقدمتها نقط الإعراب ، ويقصد به الحركات الإعرابية ، فهو أول من اهتدى إليها ؛ إذ وضع لها علامات ، هذه العلامات عبارة عن نقاط وضعها على ألفاظ آيات كتاب الله تعالى ، والتي عُرفت فيما بعد بالحركات الإعرابية ، وفي ذلك يقول المبرد : "أول من وضع العربية ونقط المصاحف أبو الأسود الدؤلي"² . أمّا كيفية وضع ذلك النقط فقد أوردها السيرافي أنّ أبا الأسود الدؤلي طلب من زياد أن يرسل له كاتباً لقناً ، فأرسل له كاتباً من عبد القيس ، فلم يرضه ، فأرسل له آخر من قريش .³ فقال له أبو الأسود : "إذا رأيتني قد فتحت في بالحرف فأنقط نقطة فوقه على أعلاه ، فإن ضمنت في فأنقط نقطة بين يدي الحرف ، وإن كسرت فاجعل النقطة تحت الحرف ، فإن أتبعته شيئاً من ذلك غنة فاجعل مكان النقطة نقطتين"⁴ ، فعقّب السيرافي بقوله : "فهذا نقط أبي الأسود"⁵ .

ولا يخفى على أحد عظمة هذا الصنيع ؛ إذ كان ضربة البداية لعملية وضع النحو العربي ، علماً بأن علم النحو هو العلم الذي يهتم بضبط آخر الكلمة ، وهذا الضبط هو ما اهتدى إليه أبو الأسود وحول فيما بعد إلى تلك الحركات الإعرابية .

ومن مجهوداته تقعيده لـ (إنّ) وأخواتها ، فقد روي أنّ أبا الأسود قال : "فكان ما وقع إليّ (إنّ) وأخواتها ما خلا (لكنّ) ، فلما عرضتها على علي رضي الله عنه قال لي : وأين (لكنّ) ؟ فقلت : ما حسبتها منها ، فقال : هي منها فألحقها ، ثم قال : ما أحسن هذا النحو الذي نحوت !"⁶

ونعتقد بصحة تقعيد أبي الأسود لـ (إنّ) وأخواتها الأمرين : أولهما أنّ الرواية جاءت على لسان أبي الأسود نفسه ، وقد يُشكّ في صحة تلك الرواية وهذا ما سيدحضه الأمر الثاني وهو : إنّ من المنطق أن يكون أبو الأسود قد اهتدى لباب (إنّ) وأخواتها ؛ إذ أنّها ممّا يكثر دورانه في اللسان ، وممّا يكون اللحن فيها وفي أخواتها واضحاً بيناً تدركه الأذان بلا عناء ، خصوصاً أنّ دافع أبي الأسود الأساسي لتقعيد النحو اللحن .

¹ ينظر أخبار النحويين البصريين ، السيرافي ، ص 11 .

² معجم الأدباء ، ياقوت الحموي ، ج 5 ، ص 2141 .

³ ينظر أخبار النحويين البصريين ، السيرافي ، ص 13 .

⁴ المصدر السابق ، ص 13 .

⁵ المصدر نفسه ، ص 13 .

⁶ نزهة الألباء في طبقات الأدباء ، ابن الأنباري ، ص 18 .

وكذلك من مجهوداته وضعه لباب الفاعل والمفعول ، وبذلك قال السيرافي¹ وابن النديم² وياقوت الحموي³ والقفطي⁴ . وكذلك من مجهوداته تقعيده لباب التعجب ، وبذلك قال بن الأنباري⁵ وياقوت الحموي⁶ والقفطي⁷ وابن خلكان⁸ . وكذلك - أيضا - من مجهوداته تقعيده لباب المضاف والمضاف إليه ، وبذلك قال القفطي⁹ . تلك الأبواب الخمسة السابقة هي ما قَعَدَهُ أبو الأسود الدؤلي ، وأريدُ أن أنبِّهَ إلى أنَّ وضع أبي الأسود لتلك الأبواب الخمسة لا يعني أنه أحاط بها كما في كتب النحو اليوم ، إلاَّ أنه وضع بدايات تلك الأبواب ، فأكْمَلَتْ بعد أجيالٍ وطولٍ زمان .

ب/ عطاء بن أبي الأسود الدؤلي :

كل ما ذكرته المصادرُ عنه إنَّه ممن تتلمذ علي يد والده أبي الأسود الدؤلي ، وأضاف القفطي أنَّه اتفق بعد موت أبيه مع يحيى بن يعمر على بسط النحو وتعيين أبوابه وبعج مقاييسه ، فاستوفيا جزءاً متوافقاً من النحو¹⁰ .

ج/ عنبسة بن معدان الفيل وميمون الأقرن :

كل ما ذكِرَ عنهما أنَّهما تتلمذا على يد أبي الأسود الدؤلي واستوعبا علمه جيدا ، ثم أضافا فيه ما أضافا ، وعلماه لمن جاء بعدهما ، وقيل إنَّ عنبسة هو أروع أصحاب أبي الأسود ، وبعض الروايات تقدم عنبسة وبعضها يقدم ميمون الأقرن¹¹ .

أمَّا عن أبرز مجهوداتهما وضع علم العربية ؛ والمراد به تقعيد بعض القواعد ، أو تطوير ما وضعه أبو الأسود ، وكذلك يُعزى إليهما تعليم ما قَعَدَ من النحو لخلفهم .

¹ ينظر أخبار النحويين البصريين ، السيرافي ، ص 15 .

² ينظر الفهرست ، ابن النديم ، ص 62 .

³ ينظر معجم الأدباء ، ياقوت الحموي ، ج 4 ، ص 1466 .

⁴ ينظر إنباه الرواة على أنباه النحاة ، القفطي ، ج 1 ، ص 51 .

⁵ ينظر نزهة الألباء في طبقات الأدباء ، ابن الأنباري ، ص 21 .

⁶ ينظر معجم الأدباء ، ياقوت الحموي ، ج 4 ، ص 1467 .

⁷ ينظر إنباه الرواة على أنباه النحاة ، القفطي ، ج 1 ، ص 54 .

⁸ ينظر وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر البرمكي الإربلي) ، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، ط 1900 م ، ج 2 ، ص 537 .

⁹ ينظر إنباه الرواة على أنباه النحاة ، القفطي ، ج 1 ، ص 51 .

¹⁰ ينظر إنباه الرواة على أنباه النحاة ، القفطي ، ج 1 ، ص 381 .

¹¹ ينظر أخبار النحويين البصريين ، السيرافي ، ص 20 . وينظر معجم الأدباء ، ياقوت الحموي ، ج 4 ، ص 1466 ، ج 5 ، ص 2132 . وينظر إنباه الرواة على أنباه النحاة ، القفطي ، ج 2 ، ص 381 ، ج 3 ، ص 337 . وينظر سبب وضع علم العربية ، السيوطي (عبد الرحمن بن أبي جلال الدين) ، تحقيق مروان العطية ، دار الهجرة ، بيروت - دمشق ، ط 1 ، 1409 هـ . 1988 م ، ص 45 . وينظر الحيوان ، الجاحظ (عمر بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء الليثي أبو عثمان) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط 2 ، 1424 هـ ، ج 7 ، ص 51 .

د/ يحيى بن يعمر العدواني :

هو أحد كبار التابعين ، لقي بعض الصحابة كعبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، كان عالماً بالقراءة والحديث والفقه والعربية ولغات العرب ، كان فصيحاً بليغاً ، يستعمل الغريب في كلامه ، أخذ علم العربية عن أبي الأسود الدؤلي ، توفي سنة (129هـ).¹

أمّا عن أبرز مجهوداته تصويب كثيرٍ من الأخطاء التي سمعها خصوصاً ما يتعلق بكتاب الله تعالى ، ومن ذلك ما روي من أمر تصويبه للحجاج بن يوسف.² وكذلك اشتراكه مع عطاء بن أبي الأسود الدؤلي في بسط النحو وتعيين أبوابه وبعج مقاييسه ،³ إضافة إلى نقط الإعجام ، وذلك أنّ بعض الروايات تذكر أنّه اشترك في تنقيط الحروف الهجائية المتشابهة مع نصر بن عاصم الليثي.⁴

ه/ نصر بن عاصم الليثي :

كان فقيهاً عالماً بالعربية ، من فقهاء التابعين ، وأحد أعلام القراء ، كان يسند لأبي الأسود الدؤلي في القرآن والنحو ، وله كتاب في العربية ، وقيل أخذ عن يحيى بن يعمر العدواني ، وأخذ عنه أبو عمرو بن العلاء ، وكان يرى رأي الخوارج فعدل عنه ، توفي بالبصرة سنة (89هـ) وقيل سنة (90هـ).⁵

أمّا عن أبرز مجهوداته فإنّه وضع نقط الإعجام ، وهو عبارة عن نقاط توضع على الحروف الهجائية المتشابهة في كتاب الله تعالى ، ووضع هذه النقاط إفراداً وأزواجاً ، وقال بذلك كلُّ من ابن خلكان⁶ والذهبي⁷ والأفغاني⁸ والهاشمي⁹.

¹ ينظر معجم الأدباء ، ياقوت الحموي ، ج 6 ، 2836 .

² ينظر إنباه الرواة على أنباه النحاة ، القفطي ، ج 4 ، ص 26 .

³ ينظر إنباه الرواة على أنباه النحاة ، القفطي ، ج 2 ، ص 381 .

⁴ ينظر مغاني الأخبار في شرح أسامي رجال معاني الآثار ، العيني (أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن حسين الغيتابي الحنفي بدر الدين) ، تحقيق محمد حسن محمد حسن إسماعيل ، دار الكتب العلمية ، بيروت . لبنان ، ط 1 ، 1427هـ . 2006م ، ج 3 ، ص 227 .

⁵ ينظر معجم الأدباء ، ياقوت الحموي ، ج 6 ، ص 2749 .

⁶ ينظر وفيات الأعيان ، ابن خلكان ، ج 2 ، ص 32 .

⁷ ينظر معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار ، الذهبي (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز) دار الكتب العلمية ، بلا م ن ، ط 1 ، 1417هـ . 1997م ، ص 39 .

⁸ ينظر من تاريخ النحو العربي ، الأفغاني (سعيد بن محمد بن أحمد) ، مكتبة الفلاح ، بلا م ن ، بلا ط ، بلا ت ط ، ص 35 .

⁹ ينظر جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب ، الهاشمي (أحمد بن إبراهيم بن مصطفى) ، تحقيق وتصحيح لجنة من الجامعيين ، مؤسسة المعارف ، بيروت ، بلا ط ، بلا ت ط ، ج 2 ، ص 127 .

وكذلك قيل عنه أنه وضع العربية أو علم العربية ، والمراد به وضع بدايات علم النحو¹ ولم تذكر المصادر ولا كتب التراجم نسبة وضع أبواب في النحو بعينها لنصر بن عاصم ، وإنما جاء الكلام عمّا وضعه جملة بقولهم (واضع علم العربية) ، إلا أنّ الطنطاوي قد خطأ عزو وضع النحو لنصر بن عاصم وعبد الرحمن بن هرمز بقوله : "فأمّا عزو الوضع إلى نصر بن عاصم الليثي أو عبد الرحمن بن هرمز فبمعزل عن الاختيار والتأييد"² وقال أيضاً : "فأمّا من زعم أنّ أولّ من وضع النحو عبد الرحمن بن هرمز أو نصر بن عاصم فليس بصحيح"³.

وفي ذلك نقول: إنّ أرجح الظن أنّ نصر بن عاصم اشترك مع يحيى بن يعمر في وضع نقط الإعجام ونظر فيما وضعه أبو الأسود الدؤلي .

أبرز سمات مرحلة النشأة :

إنّ المجهودات التي بُذلت في هذه المرحلة مهمة وإن لم تكن واضحة ، وهذا أمرٌ طبيعي يتماشى مع قانون النشوء ، ويمكن القول إنّ رجال هذه المرحلة وضعوا بذرة تقعيد النحو ، وتلك البذرة أتت أكملها فيما يلي من مراحل ، وقبل الولوج في المراحل التالية يجب ذكر أبرز سمات مرحلة النشأة وفيما يلي بيانها :

- 1/ القواعد التي قُعدت في هذه المرحلة كانت قواعد عامة مجمّلة .
- 2/ ما وضع من قواعد في هذه المرحلة أشبه بالمسموع ، ولم تنبت بينهم فكرة القياس ولا التعليل .
- 3/ معظم القواعد التي قعدت في هذه المرحلة لم تأخذ شكلها العلمي الممنهج .
- 4/ اعتمد مقعدو هذه المرحلة في تقعيدهم على سلائقهم التي لم يشبهها الانحراف بعد ، ولم يلتفتوا إلى جمع اللغة أو مشافهة الأعراب كما فعل خلفهم ؛ إذ لم تدع الحاجة بعد إلى ذلك .
- 5/ معظم قواعد هذه المرحلة وُضعت بدافع معالجة الأخطاء التي تتعلق بقراءة كتاب الله تعالى ومن ثم أخطاء عامة الناس .
- 6/ معظم رجال هذه المرحلة من قراء أي الذكر الحكيم .
- 7/ كل رجال هذه المرحلة لم يدركوا العصر العباسي .
- 8/ بُعد نحاة هذه المرحلة عن الخلاف ؛ لقرههم من عهد سلامة السليقة .

¹ ينظر سبب وضع علم العربية ، السيوطي ، ص 55 . وينظر من تاريخ النحو العربي ، الأفغاني ، ص (27 و29 و34) . وينظر تهذيب الكمال في أسماء الرجال ، أبو الحجّاج (يوسف بن عبد الرحمن بن يوسف جمال الدين بن الزكي أبي محمد القضاعي الكلبّي المزي) ، تحقيق بشارة عواد معروف ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط 1 ، 1400 هـ . 1980 م ، ج 29 ، ص 348 .

² نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة ، الشيخ محمد الطنطاوي ، مكتبة إحياء التراث الإسلامي ، بلام ن ، ط 1 ، 1426 هـ . 2005 م ، ص 22 .

³ المصدر السابق ، ص 24 .

9/ ضعف حركة التصنيف في هذه المرحلة .

ثانياً: مرحلة التطور:

بعد أن وضع أبو الأسود بذرة التقعيد الأولى وسقاها تلاميذه بالرعاية والدراية والنقل اتضحت فكرة التقعيد في الأذهان ، فاستلم كل من عبد الله بن أبي إسحق الحضرمي وأبو عمرو بن العلاء وعيسى بن عمر الثقفي وأبو الخطاب الأخفش الأكبر راية التقعيد من تلاميذ أبي الأسود الدؤلي ، وساهموا أيما مساهمة في دفع عملية التقعيد ، بل مثلوا حلقة مهمة من حلقات وضع النحو العربي ، فقعدوا وأصلوا وعللوا وقاسوا وخطأوا وصوبوا . فإذا كان تلاميذ أبي الأسود الدؤلي وضعوا لبنة النحو الأولى فإن هؤلاء الثلاثة وضعوا أحجار زاوية النحو العربي .

رجال مرحلة التطور وأبرز مجهوداتهم :

أ/ الحضرمي :

هو أبو بحر عبد الله بن أبي إسحق الحضرمي ، مولى آل الحضرمي ، وهم حلفاء بني عبد شمس بن مناف ، أخذ القراءة من يحيى بن يعمر ونصر بن عاصم ، توفي سنة (117هـ)¹ . وفي فضله سئل يونس بن حبيب عنه وعن علمه فقال : "هو والنحو سواء"² ، وكان أشد تجريداً للقياس من أبي عمرو بن العلاء³ . وكان له عقل ثابت وقدم راسخة ، فهذا صديقه أبو عمرو بن العلاء يقول : "اجتمعتُ أنا وهو عند بلال بن أبي بردة في زمن هشام بن عبد الملك فتكلمنا في الهمز فغلبني فيه"⁴ . الأمر الذي دلَّ على اتساع علمه ورجاحة عقله ، وكان حريصاً على تتبع الأخطاء وتصويبها خاصةً في شعر الشعراء ومن ذلك ما جرى بينه وبين الفرزدق⁵ . ويُعدُّ ابن أبي إسحق أول نحوي بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة⁶ .

أمَّا عن أبرز مجهوداته فهو أوَّل من مدَّ القياس ؛ أي حمل ما لم يُسمع عن العرب على ما سمع⁷ . وشرح العلل⁸ ، وصوب الأخطاء⁹ ، وألف في الهمز ، وخالف جمهور القراء في قراءة بعض آي الذكر الحكيم ، إذ كان يطبق على قراءته للقرآن أقيسة النحو ، مع أنَّ القراءة سنة متبعة ، فقد كان يقرأ قوله تعالى : (الزانية والزاني فاجلدوا كلَّ

¹ ينظر إنباه الرواة على أنباه النحاة ، القفطي ، ج 2 ، ص 105 .

² المصدر السابق ، ج 2 ، ص 105 .

³ ينظر نزهة الألباء في طبقات الأدباء ، ابن الأنباري ، ص 26 .

⁴ تاريخ العلماء النحويين من البصريين والكوفيين وغيرهم ، التنوخي (أبو المحاسن المفضل بن محمد بن مسعر المعري) تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو ، هجر ، القاهرة ، ط 2 ، 1412هـ . 1992م ، ص 152 .

⁵ ينظر إنباه الرواة على أنباه النحاة ، القفطي ، ج 2 ، ص 105 .

⁶ ينظر المدارس النحوية ، شوقي ضيف ، ص 22 .

⁷ ينظر إنباه الرواة على أنباه النحاة ، القفطي ، ج 2 ، ص 105 .

⁸ ينظر المصدر السابق ، ج 2 ، ص 105 .

⁹ ينظر المصدر نفسه ، ج 2 ، ص 105 .

واحدٍ منهما مائة جلدٍ ولا تأخذكم بهما رافةٌ في دينِ اللهِ إن كنتم تؤمنون باللهِ واليومِ الآخرِ وليشهدُ عذابهما طائفةٌ من المؤمنين¹ بنصب كلمة (الزانية) ، وكذلك قوله تعالى : (والسارقُ والسارقةُ فاقطعوا أيديهما جزاءً بما كسبا نكالاً من اللهِ واللهُ عزيزٌ حكيمٌ)² بنصب كلمة (السارق) وهو خلاف ما قرأ به القراء ، حيث كانوا يقرؤون بالرفع في الجميع.³

ب/ أبو عمرو بن العلاء :

هو أبو عمرو بن العلاء بن عمار بن عبد الله المازني النحوي ، ولد سنة (70هـ) وتوفي سنة (154هـ) بالبصرة ، وهو أحد القراء السبعة المشهورين ، واختلف في اسمه على واحدٍ وعشرين قولاً ، وأرجحها (زبان) ؛ وسبب الاختلاف في اسمه أنه كان لجلالته لا يُسأل عنه ، فكان إمام أهل البصرة في القراءة والنحو واللغة ، أخذ عن جماعة من التابعين ، وقرأ القرآن على سعيد بن جبير ومجاهد ، وروى عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، وهو من أعلم الناس بالقراءات والعربية وأيام العرب ، وكانت دفاتره تملأ بيته إلى السقف ، ثم تندسك فأحرقها ، وتعلمذ على يد يحيى بن يعمر ، وكان محلاً لثقتة ، كما تتلمذ على يد نصر بن عاصم.⁴

أمّا عن أبرز مجهوداته فقد قام بجمع اللغة واهتمَّ بها أيّما اهتمام.⁵ ودرس القراءات القرآنية حتى صار إمام البصرة فيها ، وقد أخذها - كما ذكرت - من سعيد بن جبير ومجاهد وغيرهم حتى عدَّ أحد القراء السبعة.⁶ وروى الأحاديث إذ روي عن أنس بن مالك وأبي صالح السمان وعطاء وغيرهم.⁷ كما وقف على إعراب كثير من الآيات القرآنية ، والمراد بالإعراب هنا المعنى الدقيق لهذه الكلمة ، ومن ذلك ما دار بينه وبين عيسى بن عمر من اتفاق حول نصب كلمة (الطير) في قوله تعالى : (ولقد آتينا داوود منا فضلاً يا جبالُ أوّبي معه والطيرَ وألنا له الحديد)⁸. ولكنهما اختلفا في تعليل نصبها ، فعلى أبو عمرو بن العلاء النصب على إضمار (وسخرنا الطير) ؛ لقوله

¹ النور ، 2 .

² المائدة ، 38 .

³ ينظر النحو العربي . نشأته . تطوره . مدارسه . رجاله ، صلاح رؤاي ، دار غريب ، القاهرة ، ط2003م ، ص134 . وينظر المدارس النحوية ، شوقي ضيف ، ص24 .

⁴ ينظر بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، السيوطي (عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين) ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، المكتبة العصرية ، لبنان . صيدا ، بلا ط ، بلا ت ط ، ج2 ، ص231 . وينظر معجم الأدياء ، ياقوت الحموي ، ج1 ، ص2749 .

⁵ ينظر من تاريخ النحو ، كمال جميل ولويل ، دار الحامد للنشر ، عمان ، ط1 ، 1419 هـ . 1999م ، ص24 .

⁶ ينظر بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، السيوطي ، ج2 ، ص231 .

⁷ ينظر المصدر السابق ، السيوطي ، ج2 ، ص231 .

⁸ سبأ ، 10 .

تعالى : (ولسليمانَ الرِّيحَ غُدُوها شَهْرٌ وَرَوَّاحُها شَهْرٌ)¹. بينما علل عيسى بن عمر النصب على النداء كما تقول : (يا زيدُ والحارثَ).²

ومن مجهوداته التعليل ، فقد اتَّسم تعليله بأنَّه مفسر للحكم ، وكذلك من مجهوداته استخدام القياس على الأعم الأغلب ، فإذا كان الحضرمي هو أوَّل من استخدم القياس فإنَّ أبا عمرو هو أوَّل من أصَّل مسألة القياس على الأعم الأغلب من كلام العرب ، ولم يقس على ما قلَّ أو ندر منه ، ومن ذلك ما يروي من قول أبي نوفل له : "أخبرني عما وضعتَ مما سميتَ عربيةً أيدخلُ في كلام العرب كلُّه؟ فقال : لا ، فقلتُ : كيف تصنع فيما خالفتك فيه العرب وهم حجة ؟ فقال : أحملُ على الأكثرِ وأُسمي ما خالفني لغات"³. وهذا ما سلكه البصريون من بعد ؛ إذ كانوا لا يلتفتون إلى الشاذ وإتِّمًا يشيرون إليه بخلاف الكوفيين ، وعلى الرغم من أنَّ أبا عمرو بن العلاء ممن يعظمون كلام الأعراب إلا أنَّه لم يقس على ما ندر وشدَّ ولكنه في ذات الوقت لم يهمله وإتِّمًا أطلق عليه اسم (لغات) . وبهذا يمكن القول إنَّه أصَّل للبصريين أصلاً مهمماً في عملية التقعيد.

وكذلك من أبرز مجهوداته التأويل ؛ إذ أوَّل الكثير من كلام العرب ليتلاءم وقواعدهم التي قعدوها . ومن ذلك تأويله لبيت الفرزدق الذي خطأه فيه الحضرمي بقوله : على أي شيء ترفع (أو مجلف) في قولك :⁴ (الطويل)

وعضَّ زمانُ يابنَ مروانَ لم يدعُ **** من المالِ إلا مُسحَّتاً أو مجلفُ

فقال الفرزدق على ما يسؤك وينؤك ، فقال أبو عمرو للفرزدق أصبتَ وهو جائز على المعنى أي (لم يبقَ سواه).⁵ وعليه فإنَّ أبا عمرو بن العلاء قد صَوَّب قول الفرزدق وجوزه بناءً على التأويل ؛ أي حملاً على قصد ومراد الشاعر . وليس من الغلو في شيء إذا قلتُ إنَّ أبا عمرو قد فتح باب التأويل لمن أتى من بعده من النحاة.

ولأبي عمرو بن العلاء العديد من الآراء النحوية التي تحسب ضمن مجهوداته وهي أكبر من أن تحصى في هذا المقام إلا أنَّني سأذكر بعضها .

¹ سبأ ، 12 .

² ينظر المغتضب ، المبرد (محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الثمالي الأزدي أبو العباس) ، تحقيق محمد عبد الخالق عظيمة ، عالم الكتب ، بيروت ، بلا ط ، بلا ت ط ، ج 4 ، ص 212 .

³ المزهري في علوم اللُّغة وأنواعها ، السيوطي (عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين) ، تحقيق فؤاد منصور ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط 1 ، 1418 هـ - 1998 م ، ج 1 ، ص 146 .

⁴ ينظر شرح ديوان الفرزدق ، ضبط معانيه وشرحه إليا الحاوي ، دار الكتاب اللبناني ، مكتبة المدرسة ، لبنان ، ط 1 ، 1983 م ، ج 2 ، ص 117 .

⁵ ينظر نزهة الألباء في طبقات الأدباء ، ابن الأنباري ، ص 28 .

من تلك الآراء النحوية ترك صرفه لكلمة (سبأ) في قوله تعالى : (فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بَنِيًّا يَقِينًا)¹ ؛ لأنه جعلها اسماً لقبيلة حملاً على المعنى² . ومن تلك الآراء قوله إن المنصوب في قولهم (حبذا محمداً رجلاً) تمييزاً لا حالاً³ .

وممّا توصل إليه أنّ التميميين قد يرفعون ما ينصبه الحجازيون في مثل قولهم : (ليس الطيب إلا المسك) فعندما سمع عيسى بن عمر بقوله هذا جاءه مستنكراً إذ قال : يا أبا عمرو ما شيء بلغني أنك تجيزه ؟ قال أبو عمرو: وما هو قال عيسى : بلغني أنك تجيز (ليس الطيب إلا المسك) بالرفع ، فقال له أبو عمرو : هيات نمت وأدلج الناس ، ليس في الأرض حجازي إلا وهو ينصب ، ولا في الأرض تميمي إلا وهو يرفع ، وأثبت له ذلك⁴ .

ولعلّ من أبرز مجهوداته تحديده للقبائل الفصيحة التي يؤخذ منها اللغة إذ قال : "أفصحُ الناس عليا تميم وسفلى قيس"⁵ ثم سعى تلك القبائل وفصلَ فيها⁶ .

أمّا حديثه في اللغة فهو لا يُحصى ولا يُعد ، فهو لغوي في المقام الأول ، وليس المقام يتسع لذكر ذلك.

وبعد ، فهذه خطوط عريضة أو لنقل لمحة سريعة لقليل من مجهودات أبي عمرو الضخمة في عملية التععيد ، وقد عرف أهل زمانه مكانته فأعطوه حقّه من التقدير والإجلال .

ج/ عيسى بن عمر الثقفي :

هو عيسى بن عمر الثقفي ، وكنيته أبو عمر ، وهو مولى خالد بن الوليد ، نزل في ثقيف فأسبب إليهم ، يُعدّ من مقدمي نحويي البصرة ، أخذ علمه من عبد الله بن أبي إسحق الحضرمي ، ومنه أخذ الخليل بن أحمد الفراهيدي ، وكان يحفظ الغريب ويتقعر في الكلام ، وله كتابان في النحو أحدهما يسمى (الجامع) والآخر يسمى (الإكمال) ، وهذان الكتابان قد عُرفا من بيتي الخليل وهما من الخفيف⁷ :

بطلَ النحوُ جميعاً كلّه **** غير ما أحدثَ عيسى بن عمر

ذاك إكمالٌ وهذا جامعٌ **** فهما للناسِ شمسٌ وقمر

¹ النمل ، 22 .

² ينظر الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين ، ابن الأنباري (عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله الأنصاري أبو البركات كمال الدين) ، المكتبة العصرية ، بلام ن ، ط 1 ، 1424 هـ . 2003 م ، ج 2 ، ص 410 .

³ ينظر المدارس النحوية ، شوقي ضيف ، ص 28 .

⁴ ينظر الأمالي ، الزجاجي (أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحق البغدادي النهاندي) ، تحقيق عبد السلام هارون ، دار الجيل ، بيروت ، ط 2 ، 1407 هـ . 1997 م ، ص 242 .

⁵ المزهرة في علوم اللغة وأنواعها ، السيوطي ، ج 2 ، ص 410 .

⁶ ينظر المصدر السابق ، ج 2 ، ص 410 .

⁷ ينظر أخبار النحويين البصريين ، السيرافي ، ص 61 .

يقول السيرافي في ذلك: "وهذان الكتابان ما وقعا إلينا ولا رأيتُ أحداً يذكر أنه رأهما"¹ غير أننا عثرنا في معجم الأدباء على أن المبرد قرأ أوراقاً عن أحد كتابي عيسى بن عمر.²

كان عيسى بن عمر كثيراً ما يخطئ الأعراب كأستاذه الحضرمي، توفي سنة (149هـ)، قال عنه ياقوت الحموي: "عالم بالنحو والعربية والقراءة مشهورٌ بذلك"³.

أمّا عن أبرز مجهوداته تأليفه لكتابي (الجامع والإكمال)، وقيل وضع كتاباً في النحو على الأكثر، فبوجه هذبه، وسعى ما شدد عن الأكثر لغات.⁴ وأغلب الظن أنه أحد كتابيه السابقين. وكان يطعن في كلام العرب، ومن ذلك محاولته تخطئة المشاهير منهم، كالنابغة الذبياني الذي حُطّي من قبله في قوله من الطويل:⁵

فبت كآني ساورتي ضئيلةً **** من الرُقش في أنيابها السُم نافع

إذ خطأه في كلمة (نافع) وذهب إلى أن الصواب (ناقعاً) على أنّها حال من السم.⁶

وكذلك من مجهوداته استخدامه للقياس، ومن ذلك قياسه النصب في لفظة (يا مطراً) في قول الأحوص من الوافر:⁷

سلامُ اللهِ يا مطراً عليها **** وليسَ عليكِ يا مطراً السلامُ

على النصب في لفظة (يا مطراً)، وكأنّه يجعل (مطراً) في تنوينها ونصبها كالنكرة غير المقصودة.⁸ علماً بأن البيت روي برفع كلمة (مطر)، ولم يوافق الرأي سيبويه.⁹ وكذلك نصبه لكلمة (الطير) في قوله تعالى: (ولقد آتينا داوود منا فضلاً يا جبالٍ أوّبي معه والطير وألنا له الحديد)¹⁰ قياساً على النداء كما تقول: (يا زيد والحارث)¹¹، على نحو ما ذكرنا سابقاً.

¹ ينظر أخبار النحويين البصريين، السيرافي، ص 26.

² ينظر معجم الأدباء، ياقوت الحموي، ج 5، ص 2141.

³ المصدر السابق، ج 5، ص 2141.

⁴ ينظر وفيات الأعيان، ابن خلكان، ج 3، ص 487.

⁵ ينظر ديوان النابغة الذبياني، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ط 2، بلا ت ط، ص 33.

⁶ ينظر النحو العربي، صلاح رؤاي، ص 156. وينظر وفيات الأعيان، ابن خلكان، ج 3، ص 487.

⁷ الأمالي، الزجاجي، 81.

⁸ ينظر الأصول في النحو، ابن السراج (أبو بكر محمد بن السري بن سهل النحوي)، تحقيق عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة، لبنان. بيروت، بلا ت ط، بلا ت ط، ج 1، ص 344.

⁹ ينظر الكتاب، سيبويه (أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر)، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط 3، 1408هـ-1988م، ج 2، ص 203.

¹⁰ سبأ، 10.

¹¹ ينظر المقتضب، المبرد، ج 4، ص 212.

ومن أبرز مجهوداته استخدامه للتأويل كما فعل أبو عمرو بن العلاء ، ومن ذلك تأويله لقولهم : (ادخلوا الأول فالأول) على تقدير (ليدخل) حملاً على المعنى¹.

ومما يُحسبُ له في عجلة الوضع النحوي تشدده في مسألة اضطراد القواعد النحوية² ، ولعلَّ تأويله دليلاً على ذلك . ومن مجهوداته رسوخ قدمه في القراءات القرآنية حتى اشتهر بالوقوف عندها³ . وكذلك من آرائه النحوية إنكاره لزيادة (ما) ثلاث مرات في بيتٍ شعريٍّ واحد⁴ . ومن ذلك إنكاره لبيت أمية بن أبي الصلت وهو قوله من الخفيف⁵:

سَلَعُ ما ومثله عَشْرُ ما **** عائلٌ ما وعالتُ البيقورا

وله غير ذلك من الآراء .

د/ الأخفش الأكبر:

هو أبو الخطاب عبد الحميد بن عبد المجيد ، مولى قيس بن ثعلبة ، من أهل هجر ، أحد الأخافش الثلاثة المشهورين ، وسادس الأخافش الأحد عشر ، كان إماماً في العربية ، لقي الأعراب وأخذ عنهم وعن أبي عمرو بن العلاء وطبقته ، وقد أخذ عنه يونس بن حبيب وأبو عبيدة وسيبويه والكسائي ، وكان ديناً ورعاً ثقةً ، وهو أول من فسَّرَ الشعر تحت كل بيتٍ ، وما كان الناس يعرفون ذلك قبله ، وإنما كانوا إذا فرغوا من القصيدة فسروها⁶ . كان نحويًّا لغويًّا ، وله ألفاظ لغوية انفرد بنقلها عن العرب⁷ . وتاريخ وفاته مجهول ، قال بذلك صاحب شذرات الذهب⁸ ، وصاحب مرآة الجنان⁹ ، وصاحب وفيات الأعيان¹⁰ ، بينما ذهب صاحب النجوم الزاهرة إلى أنَّه توفي سنة (117هـ)¹¹.

¹ ينظر الكتاب ، سيبويه ، ج 1 ، ص 398 .

² ينظر المدارس النحوية ، شوقي ضيف ، ص 366 .

³ ينظر نزهة الألباء في طبقات الأدباء ، ابن الأنباري ، ص 28 .

⁴ ينظر مغني اللبيب عن كتب الأعراب ، ابن هشام (عبد الله بن يوسف بن أحمد بن عبد الله بن يوسف أبو محمد جمال الدين) ، تحقيق مازن المبارك ومحمد علي حمد الله ، دار الفكر ، دمشق ، ط 6 ، 1985م ، ص 414 .

⁵ ينظر ديوان أمية بن أبي الصلت ، جمع وتحقيق وشرح سجع جميل الجبيلي ، دار صادر ، بيروت ، ط 1 ، 1998م ، ص 75 .

⁶ ينظر بغية الوعاة ، السيوطي ، ج 2 ، ص 74 .

⁷ ينظر وفيات الأعيان بن خلكان ، ج 3 ، ص 301 .

⁸ ينظر شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، ابن عماد الحنبلي (عبد الحي بن أحمد العسكري أبو فلاح) ، تحقيق محمد الأرنؤوط ، دار بن كثير ، دمشق ، بيروت ، ط 1 ، 1406هـ . 1986م ، ج 3 ، ص 73 .

⁹ ينظر مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان ، اليافعي (أبو محمد عفيف الدين عبد الله بن أسعد بن علي سليمان) ، وضع حواشيه خليل منصور ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط 1 ، 1417هـ . 1997م ، ج 2 ، ص 46 .

¹⁰ ينظر وفيات الأعيان ، ابن خلكان ، ج 3 ، ص 301 .

¹¹ ينظر النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ابن تقي (أبي عبد الله الظاهري بردي الحنفي أبو المحاسن جمال الدين) ، وزارة الثقافة والإرشاد ، دار الكتب ، مصر ، بلا ط ، بلا ط ، ج 2 ، ص 86 .

أمّا عن أبرز مجهوداته فهو ممّن جمعوا اللغة ورووا أحاديث الأعراب¹ حتى أنّ سيبويه استشهد بكلامه المأخوذ عن العرب في أكثر من موضع² وعلاقة هذا بوضع النحو العربي هو أنّ المادة المجموعة من العرب هي أساس عملية التقعيد ، ومن مجهوداته - كذلك - تفسيره للشعر تحت كل بيت وما كان الناس يعرفون ذلك على نحو ما ذكرتُ آنفاً³ . ومن أبرز مجهوداته إنّه من أوائل النحاة الذين تحدثوا عن اسم الفعل ، وفي ذلك يقول سيبويه : "وزعم أبو الخطاب أنّ بعض العرب يقول : (حمل الصلاة) فهذا اسم ائت الصلاة"⁴ ، وأراؤه النحوية واللغوية كثيرة زخر بها كتاب سيبويه ، ودونكم الكتاب⁵ .

وليس بمنأى عن الحقيقة أن يُقال إنَّ الأخص الأكبر كان راوية لكلام العرب أكثر من أنّه نحوي إلا أنّ هذه الرواية عن العرب الفصحاء استفاد منها النحاة في تقعيدهم لقواعد النحو وعلى رأسهم سيبويه ويونس بن حبيب ، لذلك عدُّ ممّن لعب دوراً مهماً في عملية التقعيد ، وهذا لا يعني أنّه ليس له آراء نحوية ، بل له آراء إلا أنّها قليلة إذا ما قورنت بروايته عن الأعراب .

أبرز سمات مرحلة التطور: تميّزت هذه المرحلة بالآتي :

1/ جمع اللغة ومشاهدة الأعراب .

2/ استخدام القياس في التأويل والتعليل .

3/ متابعة الشعراء وتصويب أخطائهم .

4/ بداية التأليف في التقعيد النحوي .

5/ الاعتناء بالقراءات القرآنية .

6/ وضع منهج للتقعيد كالقياس على الأعم الأغلب .

7/ ظهور المناظرات .

8/ عقد الحلقات التعليمية في المساجد كحلقة أبي عمرو بن العلاء .

وأخيراً يمكن القول إنّ أهمية هذه المرحلة تمثلت في تبين وتوضيح فكرة التقعيد ، بل أصّلت لها وزادت على ذلك بتقعيد كثيرٍ من القواعد على لغة العرب ومن ثمّ فتح الباب ومهدت الطريق للمرحلة التالية مرحلة النضج .

¹ ينظر بغية الوعاة ، السيوطي ، ج2 ، ص74 .

² ينظر الكتاب ، سيبويه ، ج1 ، ص (124 و201) .

³ ينظر بغية الوعاة ، السيوطي ، ج2 ، ص74 .

⁴ الكتاب ، سيبويه ، ج1 ، ص241 .

⁵ ينظر المصدر السابق ، ج1 ، ص (259 و255 و304 و324 و353) و ج2 ، ص (111 و118 و354) ، و ج3 ، ص (410) . وغيرها كثير .

ثالثاً: مرحلة النضج :

لقد هيأت المرحلة السابقة لهذه المرحلة علماء حملوا أعباءها حق الحمل ، وبذلوا جهداً مضنياً ، كان له الأثر البالغ في نضج عملية التقعيد ، وفي هذه المرحلة استقام التقعيد ، واكتملت الأصول ، وقُعدت القواعد ، وعُلمت الأحكام ، ووضعت معظم المصطلحات ، وصنف كل ذلك في كتابٍ لو كُتب بالإبر على أفاق البصر لكان عبثاً لمن اعتبر ، وقد مثل هذه المرحلة كلُّ من يونس بن حبيب والخليل بن أحمد الفراهيدي وسيبويه . وإذا كان رجال المرحلة السابقة وضعوا حجر زاوية التقعيد فإنَّ هؤلاء أقاموا بناء التقعيد وشيدوا صرحه .

رجالُ مرحلة النضج وأبرز مجهوداتهم :

أ/ يونس بن حبيب :

هو أبو عبد الرحمن يونس بن حبيب الضبي ، مولى بني ضبة ، وقيل مولى بني الليث ، وقيل فارسي الأصل ، وحبيب اسم أمه ، ولا يعرف له أب ، ولد سنة (90هـ) ببلدة (جَبَل) ، عاصر الحجاج بن يوسف ولقيه ، أخذ اللغة عن أبي عمرو بن العلاء ، وأخذ النحو عن حماد بن سلمة ، وشافه الأعراب حتى غدا مرجعاً للأدباء والنحويين ، وله آراء نحوية ومذاهب تفرد بها ، أخذ منه الكسائي والقراء السبعة وسيبويه ، كانت له حلقة بجامع البصرة يقصدها أهلُ العلم ، توفي سنة (182هـ) ¹.

أمَّا عن أبرز مجهوداته فإنَّه قد صنف العديد من الكتب منها : معاني القرآن وكتاب اللغات وكتاب النوادر الكبير وكتاب الأمثال وكتاب النوادر الصغير ².

وكانت له آراء نحوية تفرد بها ومن ذلك :

أ/ تجويزه دخول (نون) التوكيد الخفيفة على فعل الاثنين وجماعة النساء فيقال : (اضربانُ زيداً) و (اضربانان زيداً) ، في حين يرى سيبويه أنَّ العرب لم تقل بذلك ، وليس له نظير في ذلك ³.

ب/ ذهب إلى أنَّ (تاء) أخت و بنت ليست للتأنيث ؛ لأنَّ ما قبلها ساكن صحيح ولأنَّها لا تبدل في الوقف (هاء) ، وعلى ذلك فهي لا تحذف عند النسب ، بينما يرى الخليل وسيبويه حذفها عند النسب ⁴.

ج/ يرى يونس جواز مجيء الحال معرفة من غير تأويل بالنكرة ⁵.

¹ ينظر وفيات الأعيان ، ابن خلكان ، ج 7 ، ص 244 . وينظر الفهرست ، ابن النديم ، ص 64 .

² ينظر الفهرست ، ابن النديم ، ص 64 .

³ ينظر الكتاب ، سيبويه ، ج 3 ، ص 527 .

⁴ ينظر شرح التصريح على التوضيح أو التصريح بمضمون التوضيح في النحو ، الوقاد (خالد بن عبد الله بن أبي بكر محمد الجرجاوي الأزهري زين الدين المصري) ، دار الكتب العلمية ، بيروت . لبنان ، ط 1 ، 1421هـ . 2000م ، ج 1 ، ص 72 .

⁵ ينظر همع الهوامع في شرح جمع الجوامع ، السيوطي (عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين) ، تحقيق عبد الحميد هندواي ، المكتبة التوفيقية ، مصر ، بلا ط ، بلا ت ط ، ج 2 ، ص 301 .

د/ ذهب يونس بن حبيب إلى حذف (ياء) المنقوص عند النداء ، بينما ذهب الخليل إلى إثباتها ، ووافق سيبويه يونس في هذه المسألة¹.

ه/ جوّز يونس الفصل بين المضاف والمضاف إليه بالظرف أو المجرور غير المستقبل².

ومن مجهوداته في التقييد صرفه (هند) بقوله : "لأنَّ هذا موضع لا يتغير فيه الساكن ، ولم تدركه علة ، وهكذا سمعنا من العرب"³ ، ومن مجهوداته استخدام التأويل في التقييد ، وذلك عندما يجد شاهداً خالف قواعده عندها يلجأ إليه ليوافق بين ذلك الشاهد وبين قواعده ، ومن ذلك تأويله لقول الأعشى من البسيط⁴ :

إِنْ تَرْكَبُونَ فَرْكُوبَ الْخَيْلِ عَادَتُنَا *** أَوْ تَنْزَلُونَ فَإِنَّا مَعْشَرٌ نُزِّلُ

فكلمة (تنزلون) معطوفة على مجزوم ، والمعطوف على المجزوم مجزوم ، فكان حقها أن تحذف منها النون ، ولما لم تحذف في قول الأعشى أولها على أنها خبر ، وتقدير المبتدأ (أنتم) ، في حين ذهب الخليل وسيبويه إلى أنَّ ذلك من باب العطف على التوهم⁵ ونرى أنَّ الحقَّ قد اهتدى إليه يونس في هذه المسألة . ومجهوده في التقييد غير قليل ، وآراؤه النحوية كثيرة ، وقد أثرى كتاب سيبويه ، وقد أحصى الباحثان ذكرَ اسمه في كتاب سيبويه فوجدته قد ورد (167) مرة .

ب/ الخليل بن أحمد الفراهيدي :

هو الخليل بن أحمد بن عبد الرحمن أبو عبد الرحمن الفراهيدي الأزدي ، ولد سنة (100هـ) ، وتوفي سنة (175هـ) ، أخذ عن أبي عمرو بن العلاء وعيسى بن عمر وغيرهما ، خرج على البادية يشافه أهلها ، فقصد بوادي نجد والحجاز وتهامة ، فهو نادرة من نوادر الدهر ، ويعد من أفذاذ الرجال على مَرِّ الزمان والعصور ، وهو من أصحاب الأوليات في العلوم ، آتاه الله حساً لغوياً مدرباً ، وذهناً رياضياً بارعاً ، وذوقاً موسيقياً مرهفاً ، فبلغ الغاية في النحو ، واخترع العروض وخرج به على الناس علماً كاملاً ، كما اخترع طريقة تدوين المعاجم ، فأخرج أول معجم لغوي ، واستنبط من النحو في أصوله وفروعه وأقيسته ما لم يسبقه إليه سابق ، ونقل عنه سيبويه الكثير ، وكان عفيفاً زاهداً متقشفاً ، قضى حياته منقطعاً للعلم والتعليم حتى قيل : "لم يكن بعد الصحابة أذكي من الخليل ، ولا أجمع لعلم العرب"⁶.

¹ ينظر الكتاب ، سيبويه ، ج 4 ، ص 184 .

² ينظر همع الهوامع ، السيوطي ، ج 2 ، ص 526 .

³ الكتاب ، سيبويه ، ج 3 ، ص 506 .

⁴ ينظر ديوان الأعشى الكبير ميمون بن قيس ، شرح وتعليق محمد حسين ، مكتبة الآداب ، الجماميزت ، بلاط ، بلاط ط ، ص 63 .

⁵ ينظر الكتاب ، سيبويه ، ج 3 ، ص 51 .

⁶ إنباه الرواة على أنباه النحاة ، القفطي ، ج 1 ، ص 380 . وينظر معجم الأدباء ، ياقوت الحموي ، ج 3 ، ص 1263 .

استوعب الخليل الحصيلة العلمية التي توصل إليها سابقوه ، وعززها بذهابه إلى بوادي الحجاز ونجد وتهامة¹. لذلك اعتمد في تعقيده لقواعد النحو وإقامة بنيانه على السماع والتعليل والقياس ، أمّا القياس فقد أخذه من مصدرين أصيلين هما : القرآن الكريم وأفواه العرب الخالص الذين يوثق بفصاحتهم ؛ ومن أجل ذلك رحل إلى مواطنهم في الجزيرة يحدّثهم ويشافهمهم ويأخذ عنهم الشعر واللغة ، فجمع مادةً لغويةً و شعريّةً ضخمة .

أمّا التعليل فقد جعله سنداً لما يستنبطه من تلك المادة المجموعة ؛ ليؤكد به دقة فقه الأسرار اللغوية التي استقرت في دواخل العرب من قديم الزمان . وإذا أمعنا النظر في آرائه النحوية وجدنا تعليله فيها قد تماسك عوده ، وتحول من مرحلة النمو والتطور إلى مرحلة النضج ، ويثبت صدق هذا الزعم بالوقوف عند كتاب سيبويه؛ إذ كانت تعليلاته في أحكامه ناضجة مقنعة تمت إلى توضيح الأحكام الموضوعية بصلة قوية لا ينفك عنها . أمّا غرضها فغرض تعليمي محض ، علاوة على دورها في تبين الحكمة العميقة المتمثلة في انسجام كلام العرب على هذا النهج المنقطع النظير .

أمّا القياس عند الخليل فلا يقل عن سابقيه ، وفي ذلك يقول شوقي ضيف : "وعلى نحو ما تسيل علل الخليل وتعليلاته في كتاب سيبويه تسيل أقيسته ، ولا نغلو إذا قلنا أنّها كانت أهمّ مادة شاد بها النحو الوطيد"² ، وبني قياسه على الأغلب الأعم من كلام العرب كما فعل سابقوه ، ونصّ على ما شدّد منه ، بل أخذ يبحث له عن تأويل ، وكثيراً ما يوفق إلى ذلك ، ومدار ذلك كله الشواهد الشعرية والأمثال العربية والآيات القرآنية .

وعليه فإنّ الخليل بسماعه وتعليله وقياسه وتأويله وشواهد واستقرائه للغة العرب وذكائه ودقة ملاحظته مع سلامة ذوقه وهمته العالية بكل ذلك قدم لنا إنتاجاً علمياً ضخماً كتبت له البقاء ، ولا غلو ولا مغالاة إذا قلنا: إنّ عملية التععيد نضجت واستوت على يد الخليل بن أحمد الفراهيدي .

أمّا عن أبرز مجهوداته فحسبنا أن نقول في ذلك إنّ المؤلف الحقيقي لكتاب سيبويه ؛ إذ بُني معظم الكتاب على آرائه ، إضافة إلى تأليفه كتاب العين وغيره من الكتب ، ووضعه لعلم العروض ، وجمعه اللغة وبلوغه الغاية في استخراج مسائل النحو وتصحيح القياس ، ونضج التعليل والتأويل على يديه .

ج/ سيبويه :

اسمه عمرو بن قنبر ، وكنيته أبو بشر ، ولقبه سيبويه ويعني رائحة التفاح وقيل ذو الثلاثين رائحة ، فارسي الأصل ، ولد بالبليضاء وهي إحدى مدن فارس ، نشأ وترعرع وأقام بالبصرة ، وكان مولى بني الحرث بني كعب ، أخذ

¹ ينظر المصدر السابق ، القفطي ، ج 2 ، ص 258 .

² المدارس النحوية ، شوقي ضيف ، ص 51 .

العلم عن الخليل ، وكان أحبَّ تلاميذه إليه ، كما أخذ عن عيسى بن عمر ويونس بن حبيب وغيرهما ، وكان إذا قام على الخليل قال له الخليل : مرحباً بزائرٍ لا يُمل ، وهو صاحب أعظم كتاب في النحو ، توفي سنة (180هـ)¹ .
 أمّا كتابه فقد عُرف باسم (الكتاب) ، فهو من أعظم الكتب التي أُلِّفت في النحو على الإطلاق ، ولم يسمه سيبويه ، ولم يكتب له مقدمة ولا خاتمة ، وجمع فيه آراء سابقيه وعلى مقدمتهم الخليل ، وكان العلماء يعظمون هذا الكتاب أيما تعظيم ، فكان إذا أراد أحدُ قراءته على المبرد يقول له : أركبت البحرَ؟ تعظيماً واستصعاباً ، وبهذا الكتاب نضج النحو ، وتلاقحت فيه آراء السابقين ، واستشهد فيه بكلام العرب ، فانكب عليه العلماء دراسةً وتدريساً وشرحاً وتوضيحاً ، وما كثرة شراحه إلا دليلٌ على عظمته² . وأبلغُ مِنْ وَصْفِهِ قراءتهُ وتتبع مادته ، وجدير بالذكر أنّ هذا الكتاب لم يُعرف إلا عن طريق سعيد بن مسعدة الأُخفش الأوسط³ .

أمّا عن أبرز مجهوداته فيمكن القول إنّه صنف كتابه (الكتاب) ، وإن لم يُحسب لسيبويه غير كتابه لكفاه . وإذا كان الخليل ويونس بن حبيب قد استوعبا كل نتاج مجهودات النحاة السابقين ، واستفادا منه وأضافا إليه ما أضافا ، حتى منحاه صبغة النضج ، فإنّ هذا كلّهُ لم يكن ليصل إلينا لولا سيبويه ، فهو الذي جمع كل تلك الآراء ، آراء سابقيه وآراء أساتذته ، فجمعها وصنّفها ولاءم بينها ، وأضاف إليها ما أملاه عليه عقله الراجح من طرح بعض التساؤلات ، وذكر كثيرٍ من العلل والتبريرات مع إضافة شيء غير قليل من التدريبات ، فكان الكتاب ، وبهذا الكتاب شَيِّدَ صرح بناء النحو . والحق أنّ سيبويه قد برع وأبدع فيما يتعلق بالمسائل الصوتية والصرفية في كتابه إلا أنّ كتابه لم يعالج مسألة المصطلح النحويّ على الوجه الذي يمكن أن نصفه بالنضج والكمال .

أبرز سمات مرحلة النضج⁴:

- 1/ وضع المصطلحات الصرفية والصوتية وكثير من المصطلحات النحوية التي يستخدمها النحاة إلى يومنا هذا.
- 2/ تسمية علامات الإعراب وحركات البناء الأصلية منها والفرعية .
- 3/ ابتكار علم العروض .
- 4/ ابتكار الميزان الصرفي .
- 5/ الخروج إلى البادية .
- 7/ ابتكار نظرية العامل وفروعها وأحكامها .

¹ ينظر أخبار النحويين البصريين ، السيرافي ، ص 38 . وينظر معجم الأدباء ، ياقوت الحموي ، ج 5 ، ص 2122 . وينظر إنباه الرواة على أنباه النحاة ، القفطي ، ج 2 ، ص 346 . وينظر وفيات الأعيان ، ابن خلكان ، ج 3 ، ص 463 . وينظر الفهرست ، ابن النديم ، ص 74 .
² ينظر إنباه الرواة على أنباه النحاة ، القفطي ، ج 2 ، ص 354 . وينظر معجم الأدباء ، ياقوت الحموي ، ج 5 ، ص 1222 .
³ ينظر المصدر السابق ، ج 1 ، ص 41 .
⁴ ينظر النحو العربي ، صلاح رؤاى ، ص 192 .

8/ إكمال أصول النحو كالسمع والقياس والتعليل والتأويل .

9/ استخدام الشواهد والأدلة على صحة ما يستنبطونه من القواعد .

10/ بدء وضع المعاجم اللغوية لتفسير الغريب من كلام العرب .

11/ اختراع التمارين غير اللغوية لشحذ الذهن وإعمال الفكر ، ولتكون بمثابة التطبيق على الإمام بالقواعد نظرياً وعملياً .

12/ جمع ما فُعِدَ من قواعد في كتاب جامع .

رابعاً: مرحلة التصنيف والتبويب :

نضج النحو - كما أسلفنا - على أيدي رجال المرحلة السابقة ، ورغم هذا الدور العظيم المبذول ورغم النضج ورغم الكتاب مازال تقعيد النحو في حاجة إلى من يؤلف بين أجزائه ويوئمه ويتكلم في بعض تفاصيله ويضع بعض مصطلحاته ، وفي حاجة إلى أن يثبت قدمه وينشر أمره ويبث خبره ويعلم دروسه ، حتى الكتاب - كتاب سيبويه - في حاجة إلى من يشرحه ويتم مصطلحاته ويصنف أحكامه ، فتكلف كل ذلك جمع غفير ممن سُجِّروا لتلك العملية ، ذلك أن تاريخ اللغة العربية بطوله وبعرضه لم يشهد جهداً جباراً بُذِلَ كما شهدت تلك المرحلة مرحلة ما بعد النضج التي ظهر فيها أولئك الرجال باستثناء سابقهم ، حيث توافر على دراسة اللغة وتتبع مفرداتها وجملها ومعانيها ونظامها وأساليبها جهدٌ بشري خارق ، نهضت به أجيالٌ متساوقة من علماء أفذاذ لم يدعوا لتلك اللغة من ظاهرة إلا وضعوها تحت مجاهر الفحص وأضواء الدراسة ، وإنَّ معجزتهم الحقة هي إكمالهم لعملية تقعيد القواعد النحوية ، وفي هذه المرحلة ذيع صيت النحو واكتملت فروعها ، وأكمل رجالها تحديد الحدود مستخدمين العقل والمنطق والنظر والرواية والخبر ، وعليه يمكن القول إنَّها مرحلة التصنيف والترجيح والمناظرات واستخدام المنطق ، أو بعبارة أخرى هي مرحلة الثراء الفكري ، وهي المرحلة التي ظهر فيها النحو الكوفي .

رجال مرحلة التصنيف والتبويب وأبرز مجهوداتهم :

هذه المرحلة اختلفت عمّا يسبقها من مراحل بكثرة رجالها ؛ والسبب في ذلك يُعزا إلى نضج عملية التقعيد مع وجود كتاب حُصر فيه ما فُعِدَ من قواعد أدى إلى تصوير النحو وجمعه فانخرط نفرٌ كريم من الرجال في دراسة تلك القواعد ، ومن ثم قاموا بتهذيبها ، وإعادة تصنيفها ، وإتمام ناقصها ، ووضع عللها وأسبابها ومسوغاتها ومجوزاتها ، وسنكتفي هنا بذكر أسماءهم عن ذكر أخبارهم لا تقليلاً لشأنهم ولكن عزوفاً عن الإطالة ، وقد تناولتهم كتب التراجم بما هم أهل له ، وسأبدأ بأعلامهم فضلاً وأرجحهم عقلاً وأكبرهم سنأ الأخص الأوسط سعيد بن مسعدة وسأستثنيه من بين رجال هذه المرحلة بذكر شيء من أخباره ؛ لأن طبيعة المرحلة حتمت علينا ذلك ، وإليكم خبره:

هو مولى بني مجاشع ، وأحدق أصحاب سيبويه ، وهو أسن منه ، ولقي من لقيه سيبويه من العلماء ، وهو الطريق الوحيد إلى كتاب سيبويه في أول الأمر ، وقرأه عليه مجموعة من العلماء منهم الجرمي والمازني والكسائي ، وله العديد من الكتب في النحو والقوافي والعروض ، وكان أبو العباس ثعلب يفضل على غيره ، توفي سنة (215هـ).¹ وكانت له العديد من الآراء النحوية التي خالف بها أستاذه ، وهذه الآراء هي التي بني عليها الكوفيون مذهبهم ، ومن تلك الآراء:²

1/ جواز إعمال (إنَّ) إذا لحقتها ما الكافة .

2/ الحال السادة مسد الخبر في نحو (كلامي محمداً مسيئاً) قد تأتي فعلاً نحو : (رأي الناس يعطي الكثير).

3/ جواز دخول لام الابتداء على (نعم وبئس) .

4/ عامل الرفع في المضارع هو تجريده من النواصب والجوازم .

وأراؤه أكثر من أن تحصى في هذا المقام ، وقد تبعه الكسائي والفراء في كثيرٍ من آرائه وتبناها مذهباً لهم ، وأخذوا يدافعون عنها بالتعليل تارة وبالتأويل تارةً أخرى .

وأما بقية رجال هذه المرحلة فقد صنّفهم الباحثان إلى بصريين وكوفيين ، أمّا البصريون فهم : قطرب محمد بن المستنير المتوفى سنة (206هـ) والجرمي أبو صالح بن إسحق المتوفى سنة (225هـ) والتوزي أبو محمد عبد الله بن محمد بن هارون المتوفى سنة (230هـ) والمازني أبو عثمان بكر بن محمد بن عثمان المتوفى سنة (249هـ) والسجستاني أبو حاتم سهل بن محمد المتوفى سنة (255هـ) والرياشي أبو الفضل عباس بن الفرّج المتوفى (257هـ) والمبرد أبو العباس محمد بن يزيد المتوفى سنة (286هـ) .

أمّا الكوفيون يتمثلون في الكسائي علي بن حمزة المتوفى سنة (189هـ) وهو المؤسس الحقيقي للمذهب الكوفي ، والأحمر أبو الحسن علي بن الحسن المتوفى سنة (194هـ) ، والفراء أبو زكريا يحيى بن زياد المتوفى سنة (207هـ) وهو أبرز علماء المذهب الكوفي ، والضرير أبو عبد الله هشام المتوفى سنة (209هـ) واللحياني أبو الحسن علي بن المبارك المتوفى سنة (220هـ) وابن سعدان أبو جعفر محمد المتوفى سنة (231هـ) والطوال أبو عبد الله محمد بن أحمد المتوفى سنة (243هـ) وابن قادم أبو جعفر محمد بن عبد الله المتوفى سنة (251هـ) وثعلب أبو العباس أحمد بن يحيى المتوفى سنة (289هـ) .

بدأت هذه المرحلة بالكسائي المتوفى سنة (189هـ) وانتهت بوفاة ثعلب المتوفى سنة (289هـ) ، وعليه فإنَّ عمر هذه المرحلة بلغ المائة عام ، فيها اكتمل النحو ، علماً بأنّها تميّزت بسمات وهي على النحو التالي :

¹ ينظر أخبار النحويين البصريين ، السيرافي ، ص 42 .

² ينظر همع الهوامع ، السيوطي ، ج 1 ، ص (506 و591) . وينظر المدارس النحوية ، شوقي ضيف ، ص (97 و98) . وينظر النحو العربي ، صلاح رَوَّاي ، ص 382 .

أبرز سمات مرحلة التصنيف والتبويب : إنَّ أبرز سمات هذه المرحلة ما يلي :

- 1/ كثرة علماءها .
- 2/ الاعتناء بكتاب سيبويه دراسةً ونقداً .
- 3/ كثرة التصنيف حيث بلغ عدد مصنفات الفراء وحده تسعة عشر كتاباً .
- 4/ ظهور المذاهب (بصري وكوفي) .
- 5/ تعدد الآراء .
- 6/ كثرة المناظرات والمساجلات على نحو ما دار بين المبرد وثعلب .
- 7/ اهتمام الحكام والأمراء بعلم النحو .
- 8/ بداية التأليف في التصريف مستقلاً عن النحو على خلاف ما كان سابقاً .
- 9/ اكتمال المصطلحات النحوية ومغايرتها (مصطلحات نحوية بصرية ومصطلحات نحوية كوفية) .
- 10/ تعقب آراء السابقين بالتفنيد والمؤاخذة كما في كتاب (مسائل الغلط) الذي ألفه المبرد في بعض المآخذ على كتاب سيبويه .
- 11/ تأليف الكتب الجامعة بين النحو والصرف واللغة والأدب مثل (المقتضب والكمال) للمبرد .
- 12/ الاهتمام بأصول النحو كالقياس والسماع والتعليل والعوامل والمعمولات وكثر دورانها في مؤلفاتهم .
- 13/ كثرة الرواية والإحاطة بأخبار العرب .

تلك هي المراحل التي مرَّ بها النحو العربي ، ولم يكتب للقواعد النحوية الكمال إلا بعد أن مرَّت بتلك المراحل الأربعة ، حينها فقط انبسط سلطانها على جميع الألسنة ، بحيث أصبحت ميزان الكلام الدقيق ، الذي لا ينحرف ولا يجور ، مستمدةً صلاحيتها من كلام العرب الفصحاء أو من كتاب الله تعالى .

الخاتمة :

لم يكد أبو الأسود يضع بداية النحو ويعلم الناس حتى أقبل عليه تلاميذه يأخذون عنه ، وأضافوا بدورهم ما وأضافوا ، وعلى مقدمة ما وأضافوه تعليمهم لعبد الله بن أبي إسحق الحضرمي وأبي عمرو بن العلاء اللذين وضعوا الأصول حتى ظهر عيسى بن عمر بكتابه ويونس بن حبيب والخليل وسيبويه وسعيد بن مسعدة وقطرب والفراء ، وهكذا جعل النحاة يتتابعون مع الأيام أفراداً وطبقات ، يأخذ اللاحقون منهم عن السابقين ، وطفق النحو العربي ينمو غرسه مع الأيام ، يوماً بعد يوم وجيلاً بعد جيل ومرحلةً بعد مرحلة ، حتى كأنَّ القوم قد هياهم الله تعالى له من قبل ، وأعدهم على أفضل ما يكون الإعداد ، فما بهم إلا تنطلق ضربة البداية ليمضوا به خفافاً ، فإذا بهم قد

بلغوا به مرحلة الكمال ، لم يكن ليبلغها لولا العمل الدائب والجهد المتصل ، ولم يكن ليصدق لولا أنه واقعٌ موجودٌ بين أيدينا. وفيما يلي ما عنَّ لنا من نتائج :

1/ مرور النحو العربي بأربع مراحل هي : (النشأة) ، (التطور) ، (النضج) ، (التصنيف والتبويب) .
2/ إنَّ أول ما قُعد من القواعد النحوية ما كثر فيه الخطأ ، و ما كان قريباً من الذهن وكثر دورانه في اللسان .
3/ القواعد التي قُعدت في مرحلة النشأة كانت قواعد عامة مجملة ولم تظهر فيها فكرة القياس ولا التعليل .
4/ تميزت مرحلة التطور بجمع اللغة ومشافهة الأعراب واستخدام التعليل والتأويل وتصويب الشعراء والاعتناء بالقراءات .

5/ أبرز ما يميز مرحلة النضج ابتكار نظرية العامل واكتمال أصول النحو ممثلة في السماع والقياس والتعليل والتأويل .

6/ أبرز ما يميز مرحلة التصنيف والتبويب ما يلي : الاعتناء بكتاب سيبويه وكثرة التصنيف وظهور المناظرات العلمية وبداية التأليف في علم التصريف منفصلاً عن النحو .

وفي الختام يوصي الباحثان من خلال هذه الدراسة تتبع علم الصرف منذ استقلاله عن علم النحو ابتداءً بمرحلة التصنيف والتبويب . هذا والله المستعان وعليه التكلان .

المصادر والمراجع :

- 1/ القرآن الكريم .
- 2/ أخبار النحويين البصريين ، السيرافي (أبو سعيد الحسن بن عبد الله المزربان) ، تحقيق طه محمد الزيني ومحمد عبد المنعم خفاجي ، مصطفى البابي الحلبي ، بلا م ن ، ط 1372هـ - 1966م .
- 3/ الأصول في النحو ، ابن السراج (أبو بكر محمد بن السري بن سهل النحوي) ، تحقيق عبد الحسين الفتلي ، مؤسسة الرسالة ، لبنان . بيروت ، بلا ط ، بلا ت ط .
- 4/ الاقتراح في علم أصول النحو ، السيوطي (جلال الدين) ، قرأه وعلق عليه محمد سليمان ياقوت ، دار المعرفة الجامعية ، بلا م ن ، ط 1426هـ - 2006م .
- 5/ الأمالي ، الزجاجي (أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحق البغدادي الهاوندي) ، تحقيق عبد السلام هارون ، دار الجيل ، بيروت ، ط 2 ، 1407هـ - 1997م .
- 6/ إنباه الرواة على أنباه النحاة ، القفطي (جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف) ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ط 1 ، 1424هـ .

- 7/ الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين ، ابن الأنباري (عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله الأنصاري أبو البركات كمال الدين) ، المكتبة العصرية ، بلا م ن ، ط 1 ، 1424 هـ. 2003 م .
- 8/ بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، السيوطي (عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين) ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، المكتبة العصرية ، لبنان. صيدا ، بلا ط ، بلا ت ط .
- 9/ تاريخ العلماء النحويين من البصريين والكوفيين وغيرهم ، التنوخي (أبو المحاسن المفضل بن محمد بن مسعر المعري) تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو ، هجر ، القاهرة ، ط 2 ، 1412 هـ. 1992 م .
- 10/ جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب ، الهاشمي (أحمد بن إبراهيم بن مصطفى) ، تحقيق وتصحيح لجنة من الجامعيين ، مؤسسة المعارف ، بيروت ، بلا ط ، بلا ت ط .
- 11/ دراسات في نظرية النحو العربي وتطبيقاتها ، صاحب أبو جناح ، دار الفكر ، بلا م ن ، ط 1 ، 1419 هـ. 1998 م .
- 12/ ديوان الأعشى الكبير ميمون بن قيس ، شرح وتعليق محمد حسين ، مكتبة الآداب ، الجمايزت ، بلا ط ، بلا ت ط .
- 13/ ديوان أمية بن أبي الصلت ، جمع وتحقيق وشرح سجع جميل الجبيلي ، دار صادر ، بيروت ، ط 1 ، 1998 م .
- 14/ ديوان النابغة الذبياني ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ، القاهرة ، ط 2 ، بلا ت ط .
- 15/ سبب وضع علم العربية ، السيوطي ، ص 55 . وانظر من تاريخ النحو العربي ، الأفغاني ، ص (27 و29 و34) . وانظر تهذيب الكمال في أسماء الرجال ، أبو الحجاج (يوسف بن عبد الرحمن بن يوسف جمال الدين بن الزكي أبي محمد القضاعي الكلبى المزي) ، تحقيق بشارة عواد معروف ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط 1 ، 1400 هـ. 1980 م .
- 16/ شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، ابن عماد الحنبلي (عبد الحي بن أحمد العكري أبو فلاح) ، تحقيق محمد الأرنؤوط ، دار بن كثير ، دمشق. بيروت ، ط 1 ، 1406 هـ. 1986 م .
- 17/ شرح التصريح على التوضيح أو التصريح بمضمون التوضيح في النحو ، الوقاد (خالد بن عبد الله بن أبي بكر محمد الجرجاوي الأزهرى زين الدين المصري) ، دار الكتب العلمية ، بيروت. لبنان ، ط 1 ، 1421 هـ. 2000 م .
- 18/ شرح ديوان الفرزدق ، ضبط معانيه وشرحه إليا الحاوي ، دار الكتاب اللبناني ، مكتبة المدرسة ، لبنان ، ط 1 ، 1983 م .
- 19/ طبقات فحول الشعراء ، ابن سلام الجمعي (محمد) ، قرأه وشرحه أبو فهر محمود محمد شاكر ، دار المدني ، جدة ، مطبعة المدني ، بلا ت ط .

- 20/ الفهرست، ابن النديم (أبو الفرج محمد بن إسحاق بن محمد الوراق البغدادي المعتزلي الشيعي)، تحقيق إبراهيم رمضان، دار المعارف، بيروت. لبنان، ط2، 1417هـ. 1997م.
- 21/ الكتاب، سيبويه (أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر)، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3، 1408هـ. 1988م.
- 22/ كتاب مراتب النحويين، أبو الطيب اللُّغوي، تقديم وتعليق محمد زينهم محمد عذب، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط1423هـ. 2003م.
- 23/ المدارس النحوية أسطورة وواقع، إبراهيم السامرائي، دار الفكر، عمان، ط1، 1987م.
- 24/ المدارس النحوية، شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط9، بلا ت ط.
- 25/ مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، اليافعي (أبو محمد عفيف الدين عبد الله بن أسعد بن علي سليمان)، وضع حواشيه خليل منصور، دار الكتب العلمية، بيروت. لبنان، ط1، 1417هـ. 1997م.
- 26/ المزهري في علوم اللُّغة وأنواعها، السيوطي (عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين)، تحقيق فؤاد منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1418هـ. 1998م.
- 27/ معجم الأدباء أو إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، ياقوت الحموي (شهاب الدين أبو عبد الله بن عبد الله الرومي)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1414هـ. 1993م.
- 28/ معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار، الذهبي (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز) دار الكتب العلمية، بلا م ن، ط1، 1417هـ. 1997م.
- 29/ مغاني الأخبار في شرح أسامي رجال معاني الآثار، العيني (أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن حسين الغيتابي الحنفي بدر الدين)، تحقيق محمد حسن محمد حسن إسماعيل، دار الكتب العلمية، بيروت. لبنان، ط1، 1427هـ. 2006م.
- 30/ المغتضب، المبرد (محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الثمالي الأزدي أبو العباس)، تحقيق محمد عبد الخالق عظيمة، عالم الكتب، بيروت، بلا ط، بلا ت ط.
- من تاريخ النحو العربي، الأفغاني (سعيد بن محمد بن أحمد)، مكتبة الفلاح، بلا م ن، بلا ط، بلا ت ط.
- 31/ مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ابن هشام (عبد الله بن يوسف بن أحمد بن عبد الله بن يوسف أبو محمد جمال الدين)، تحقيق مازن المبارك ومحمد علي حمد الله، دار الفكر، دمشق، ط6، 1985م.
- 32/ من تاريخ النحو، كمال جميل ولويل، دار الحامد للنشر، عمان، ط1، 1419هـ. 1999م.

- 33/ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ابن تقري (أبي عبد الله الظاهري بردي الحنفي أبو المحاسن جمال الدين) ، وزارة الثقافة والإرشاد ، دار الكتب ، مصر ، بلا ط ، بلا ت ط .
- 34/ النحو العربي .نشأته .تطوره .مدارسه .رجاله ، صلاح رؤاوي ، دار غريب ، القاهرة ، ط2003م
- 35/ نزهة الألباء في طبقات الأدباء، ابن الأنباري (عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله الأنصاري أبو البركات كمال الدين) ، تحقيق إبراهيم السمراي، مكتبة المنار، الزرقاء .الأردن ، ط3 ، 1405هـ-1985م .
- 36/ نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة، الشيخ محمد الطنطاوي ، مكتبة إحياء التراث الإسلامي ، بلا م ن ، ط1 ، 1426هـ-2005م .
- 37/ همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، السيوطي (عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين)، تحقيق عبد الحميد هنداوي ، المكتبة التوفيقية ، مصر ، بلا ط ، بلا ت ط .
- 38/ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر البرمكي الإربلي)، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، ط1900م .

